الفصل الثاني
انحرافات منهجية في دراسة التراث الإسلامي

لا يخفى على أحد ما علق بالمعرفة الإسلامية خلال مراحل التاريخ من انحرافات منهجية في البحث والنظر والتلقي ، والنقد والتمحيص ، والخلاف والمواجهة ، شغلت المسلمين زمنا عن الاجتهاد ، والإبداع والتفكير العلمي ، إلا ثلة باقية من العلماء لم يخل منهم عصر في الاجتهاد والنظر ، كانوا بمنأى عن كل ذلك .

وقد ظلت تلك الانحرافات نقطا مظلمة في تاريخ المعرفة الإسلامية ، حجبت محاسن العلم ومكامن القوة في الفكر الإسلامي . وبمعرفة أشهر مظاهر هذه الانحرافات تتضح أهمية تأصيل الفكر الإسلامي وإعادة النظر في مناهج قراءة التراث ، ويمكن حصر هذه الآفات والانحرافات المنهجية في ما يلي :

١ـ الجمود والتقليد وتقديس آراء الرجال :

أصيب كثير من المتأخرين بداء الغلو في تمجيد التراث والجمود على القديم ، ورفض التسليم بأي جديد ينزع إليه من علت همته للاجتهاد والإبداع ، وقد تفشى بينهم ذلك بسبب الجهل وسوء الفهم وفساد التدبير في تعاملهم مع التراث ، حيث نظروا إلى ذخائر التراث الإسلامي كأنها جثث ميتة محنطة لاينبغي أن تمس بتبديل أو تغيير ، وعدوا كل جديد وارد عليها دخيلا مفسدا لأصالة الأمة وتراثها .

وهذا نظر سقيم ، ومسلك فاسد عقيم ، حجر قرائح العلماء والمتعلمين وكبلها عن الإبداع ، في عصر طغى فيه الجمود والتقليد ، حتى عدوا الخروج عن تصانيف الماضين مروقا وعقوقا ، وتجلى ذلك في بداية عصر النهضة لدى بعض الجامدين الذين تمسكوا بالعتيق وحرصوا عليه من كل ما يغيره أو يطوره حرص بخيل ضنين

ضاع خاتمه في التراب .

فلم يكن شيء أضر على المسلمين في التفكير والنظر والاجتهاد من قولهم « ما ترك الأول للآخر » حيث نشأ فيهم نابتة من المقلدة نظروا إلى علوم الماضين نظرة تعظيم وتقديس ، وسلموا الزمام ، وتركوا الاعتراض ، فماتت الهمم بذلك ، ودب فيهم التقليد ، وقصروا عن النظر ، حتى ظنوا أنه ما ترك الأول للآخر شيئا للاستدراك أو الإبداع والتعقب ، وما الأمر سوى خيال شاعر ، صدق فيهم لتأخر القرائح الإسلامية ، وركونها إلى الجمود ، كما قال الشاعر :

لم يدع من مضى للذي غبر فضل علم سوى أخذه بالأثر

قال الشاطبي : « المقلدة لمذهب إمام يزعمون أن إمامهم هو الشريعة حتى إذا جاءهم من بلغ درجة الاجتهاد ، وتكلم في المسائل ، ولم يرتبط إلى إمامهم ، رموه بالنكير ، وفرقوا إليه سهام النقد ، وعدوه من الخارجين عن الجادة ، المفارقين للجماعة» [(١)] .

ولو تبصروا لعلموا أن ذلك تحجير لواسع فضل الله ، الذي لم يؤقت بزمان أو مكان ، فكم ترك الأول للآخر ، وليس المتقدم أولى به من الآخر،«فإن الناس أبناء ما يحسنون» كما قال علي ﷺ .

قال ابن بسام الأندلسي : « وكم من نكتة أغفلتها الخطباء ، ورب مترددم غادرته الشعراء ، والإحسان غير محصور ، وليس الفضل على زمن بمقصور ، وعزيز على الفضل أن يُنكر ، تقدم به الزمان أو تأخر ، ولحى الله قولهم : الفضل للمتقدم ، فكم دفن من إحسان ، وأخمل من فلان ، ولو اقتصر المتأخرون على كتب المتقدمين ، لضاع علم كثير ، وذهب أدب غزير» [(٢)] .

---

(١) الموافقات في أصول الشريعة : ٢/ ٥٠٦.

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لابن بسام الشنتريني : ١/ ٥.

فإن الفضائل والعلوم لاتختص بزمان أو مكان ، ولئن كان زمان السلف أسعد الأزمان بغايات العلم والفضل ، فإن الله لم يخل عصرا من مننه التي لا تنقضي ، ولا تختص بقوم دون آخرين .

قال جمال الدين القاسمي : «والعلوم منح إلهية ، ومواهب لدنية صمدانية ، فغير مستعبد أن يُدخر لبعض المتأخرين ما لم يدخر لبعض المتقدمين ، فلا تغتر بقول القائل : ما ترك الأول للآخر فإنما يُستجاد الشيء ويسترذل ، لجودته ورداءته في ذاته ، لا لقدمه وحدوثه ، ويقال : ليس كلمة أضر بالعلم من قولهم : ما ترك الأول شيئا ، لأنه يقطع الآمال عن العلم ، ويحمل على التقاعد عن التعلم ، فيقتصر الآخر على ما قدم الأول من الظاهر ، وهو خطر عظيم ، وقول سقيم ، فالأوائل وأن فازوا باستخراج الأصول وتمهيدها ، فالأواخر فازوا بتفريع الأصول وتشييدها» [١] ، بل ربما يأتي المتأخر بما لم يدركه المتقدم ، كما قال المعري :

وإني وإن كنت الأخير زمانه ... لآت بما لم تستطعه الأوائل

ينافس أمسي في يومي تشرفا ... وتحسد أسحاري على الأصائل

قال ابن عبد ربه الأندلسي : «إني رأيت آخر كل طبقة ، واضعي كل حكمة ، ومؤلفي كل أدب ، أهذب لفظا ، وأسهل لغة ، وأحكم مذاهب ، وأوضح طريقة من الأول ، لأنه ناقض متعقب ، والأول بادئ متقدم » [٢] .

وقد تجلى هذا الجمود والتقليد في عكوف الناس على تراث المتقدمين حفظا واختصارا وتهذيبا ، وجمودا على ألفاظهم ، حتى عدوا الخروج عليها وإبداع ما سواها بدعة ومروقا ، لا يلجه إلا كل معترض لئيم ، أو أفاك أثيم ، خبثت سريرته ، وفسدت طويته ، فشاع بينهم التسليم ، والوقوف عند تصانيف الماضين .

---

(١) قواعد التحديث : ٣٧.

(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه : ٥٠١.

فبعد ظهور مختصر ابن الحاجب ، ومختصر خليل ، والهداية للمرغيناني في الفقه ، وحدود ابن عرفة في التعاريف ، وجوهرة التوحيد للباجورى في أصول الدين ، وألفية ابن مالك في النحو ، ونحوها لا تكاد تجد أحدا من المقلدين سمت نفسه ، أو علت همته للاستدراك على هذه المختصرات و تصحيح أوهامها ، بل لا تجد إلا مقدسا معظما لأصحابها ، معترفا بالعجز والقصور عن إدراك معانيها ، وكأنها الحق الذي لا يضام ، وحمى الشرع الذي لا يرام .

فحق فيهم قول الأصبهاني في أطباق الذهب : « ما المقلد إلا جمل محشوش ، له عمل مخشوش ، يقنع بظواهر الكلمات ، ولا يعرف النور من الظلمات ، يركض خيول الخيال في ضلال الضلال ، شغله نقل النقل عن نخبة العقل ، وأقنعه رواية الرواية ، عند دُر الدراية ، يروي في الدين عن شيخ هِمٍّ ، كمن يقود الأعمى في ليل مدلهم »[1] .

ومن نماذج تقديس كلام الرجال قول ابن الرصاع في مقدمة شرحه لحدود ابن عرفة ت ٨٠٣ هـ : « أما بعد ، فإنه لما سبقت منة الله تعالى إلى ، وأظهر فضله سبحانه على بمحبة شيخ الإسلام ، وعلم الأعلام الذي افتخرت به أمة النبي ﷺ الشيخ الولي العالم الأعلم الصالح الزكي ، القدوة الأسوة ، السني السني ، العارف على التحقيق ، الهادي إلى الطريق ، الدال على التدقيق ، صاحب السعد والسعود ، اليمن والتوفيق نهاية العقول ، في المنقول والمعقول ، في وقتنا وقبل وقتنا ، بقية الراسخين من ساداتنا ، آخر المتعبدين من سلفنا ، سيدنا ومولانا وبركتنا أبي عبد الله محمد بن عرفة ، وشاهدنا كتبه جامعة مانعة ، شافية وافية ، المبرز من فقهاء الزمان من يفك رموزها ، ويفهم إشارتها ، وكل ضعيف عقل ، خبيث سريرة ، وكبير جهل ، إذا ربت نفسه الخبيثة ، علا وغلا ، فيعترض بالاعتراض للعطب والبلا حفظ الله قلوبنا ، وملأها بمحبة ساداتنا ،

---

(١) قواعد التحديث للقاسمي : ٣٦٧.

الذين فتحوا لنا الأبواب ، وهدانا بهم إلى الحق والصواب » [١] .

فالفقيه عند القوم هو المقلد الذي حفظ الأقوال قويها وضعيفها بشقشقة شدقية ، وهذها كهذِ الأسمار بقوة لحييه ، وبذلك ابتليت المعرفة الإسلامية بهؤلاء الجامدين ، الذين قتلوا في الناشئة روح الإبداع ، وصار صاحب الحواشي ، المولع بالألغاز والأحاجي ، هو الإمام المختار ، والمفكر النظار ، الذي يشار إليه بالبنان ، ولا يقعقع له بالشنان .

وقد امتد نفس الجمود وإطراح الإبداع والتجديد حتى عم المسائل العلمية والإختراعات الحديثة ، التي ظنها الجامدون من قبيل الغارة على التراث ، فقل الإنتاج العلمي ونشأ في بلاد الإسلام أجيال من الأميين وأنصاف المتعلمين ، وساد جو من الركود العلمي الذي مس آحاد العلماء ، وهم يومئذ سلعة نادرة أعز من بيض الأنوق .

وبذلك تقاصرت الهمم ووقف المقلدون عند آراء الرجال ، «وأصبحت أقوال هؤلاء الأئمة بمنزلة نصوص الكتاب والسنة لا يعدونها ، فنشأت سدود بين الأمة وبين نصوص الشريعة ، وأصبحت الشريعة هي نصوص الفقهاء وأقوالهم » [٢] .

وحيل بين الأمة وبين علوم السلف وآثارهم ، نتيجة هذا الجمود والتقليد المذهبي الذي أضعف المعرفة الإسلامية زمنا ، وكان له أثر سيء في جمود القرائح وانحسار المد المعرفي للمسلمين بين الأمم ، وقتل الإبداع العلمي والحضاري في الأمة ، والله المستعان .

٢ ــ تأثير الأهواء في المعرفة الإسلامية :

كان السلف مستغنين بما كان لهم من صحيح الأثر وقوى النظر ، عما ظهر

---

(١) شرح حدود ابن عرفة لابن الرصاع : ١٤ .

(٢) الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي : ٢/ ٥ .

بعدهم ، من زخارف المحدثات ، التي كانت أمام علمهم : ﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾ [النور:٣٩] .

فقد كانوا أغزر الناس علما ، وأقلهم حشوا وتكلفا ، وانعكس الأمر عند المتأخرين من أهل الأهواء ، الذين انحرفوا عن ركابهم ، وزاغوا عن محجتهم ، وتجارت بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه ، فأحدثوا للناس جهالات سموها علوما ، وليس لها من قواعد العلم نقير ولا قطمير سوى زخارف القول ، وتنميق الألفاظ والرسوم .

ومنها علم الكلام الذي أحدثه المتكلمون وخلطوه بأمشاج الفلسفة وعلم المنطق ، بدعوى الدفاع عن العقيدة وصيانتها من شبه الخصوم ، وكذلك التصوف الفلسفي الذي أقحم في تاريخ الزهد باسم التربية والسلوك إلى الله ، ناهيك عن دسائس المبطلين في تاريخ الفكر مما اقتبسوه من تراث الأمم المجاورة .

وهذه المحدثات كانت رقاعات فكر ، وفضول جهل ، حدثت لما انصرف البطالون عن رعاية السنن والآثار ، والتمسك بأصول الشريعة ، و تركوا الاشتغال بفقه سنن الكون والحياة ، وغفلوا عن أسباب الرقي ، واشتغلوا بالظنون والأوهام ، فضلوا عن سواء السبيل .

كما قال عمر ﷺ : «إياكم وأصحاب الرأي فإنهم أعداء السنن ، أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها ، فقالوا بالرأي ، فضلوا وأضلوا» [(١)] .

وقال الإمام مالك : «ما قلت الآثار في قوم إلا ظهرت فيهم الأهواء ، ولاقل فيهم العلماء إلا ظهر فيهم الجفاء» [(٢)] .

---

(١) المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي : ١٩٠ ، مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة للسيوطي : ٤٧ .

(٢) ذم الكلام لشيخ الإسلام إسماعيل الهروي : ١٧٤ .

موقف السلف من هذه الأهواء المحدثات :

وقد رد نقاد المعرفة من السلف هذه المحدثات التي سماها أصحابها علوما ، ورأوها دخيلة على التراث الإسلامي ، لأنهم كانوا مستغنين عنها بالنظر في دلائل الكتاب والسنة ، وتتبع آثار السلف ، والاشتغال بفقه سنن الله في الكون وعمارة الأرض ، فلم يعدوا شيئا من هذه الأهواء من علوم الإسلام . ولم ينخدعوا بزخارف المتكلمين والمتصوفة والفلاسفة بل شددوا النكير على أصحابها .

وأثر عنهم في ذلك عبارات شديدة في رد هذه الأهواء ، قال أبو يوسف : «العلم بالكلام هو الجهل ، والجهل بالكلام هو العلم ، و إذا صار الرجل رأسا في الكلام قيل زنديق» (١) .

وقال الشافعي : «حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد ويحملوا على الإبل ويطاف بهم في العشائر ، وينادى عليهم هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام» وفي رواية عنه : «مذهبي في أهل الكلام تقنيع رؤوسهم بالسياط وتشريدهم في البلاد» (٢) .

كما ردوا زخارف المتصوفة ووساوسهم الدخيلة على منهاج السنة في التربية والسلوك ، ولذلك قال الشافعي : «لو أن رجلا تصوف أول النهار لا يأتي الظهر حتى يصير أحمق» (٣) .

ونقل الونشريسي عن الإمام مالك أنه «سئل عن قوم بنصيبين يقال لهم الصوفية ، يذكرون الله كثيرا فإن شبعوا قاموا يرقصون ، فقال للسائل : أصبيان هم ؟ قال : لا قال : أمجانين هم ؟ قال لا ، قوم مشايخ وغير ذلك عقلاء ، فقال مالك : ماسمعنا

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي :٧/ ٦١

(٢) سير أعلام النبلاء : ١٠/ ٢٩.

(٣) تلبيس إبليس لابن الجوزي : ٤١٥.

أحدا من أهل الإسلام فعل هذا ، إلا أن يكون مجنونا أو صبيا » [١] .

وأما الفلسفة والمنطق فكانا في نظرهم سرابا لا شيء فيه ، ومزنا لا ماء فيه . قال الذهبي في بيان زغل العلم والطلب : « وما دواء هذه العلوم وعلماءها والعاملين بها علما وعقدا إلا الحريق والإعدام ، إذ الدين مازال كاملا حتى عربت هذه الكتب ونظر فيها المسلمون ، فلو أعدمت كان فتحا مبينا » [٢] .

فقد كان أهل البدع أضر على الأمة من أهل المعاصي ، لما نفثوا في المعرفة الإسلامية من سموم ، وأغاروا على النصوص ، وحرفوا الكلم عن مواضعه ، وفتحوا على الأمة بذلك باب معرة وغواية ، فآلت البدع مدرجة إلى الضلال ، ومدخلا إلى اتباع الهوى ، وومتولجا إلى الحكم بالمتشابه ، وتحريف أحكام الشريعة عن مواضعها .

ومع ذلك ولع بها خلق من العلماء والعوام ، وصارت بلاء عاما في العصور ، شغلت المسلمين بالجدل التافه ، وضيعت عليهم أزمانا أعمارا نفيسة كان أولى أن تصرف في العلوم النافعة .

ولازال بعض المفتونين يعد هذه الجهالات من التراث الأصيل الذي ينبغي المحافظة عليه ، ويتعب نفسه في فهم ألغازها وأحاجيها ، ويضيع أعمار طلاب العلم في دراستها للحجة لا للفرجة ، متكلفا كل صعب وذلول لإثبات أنها لب الفكر الإسلامي وقوامه ، وأنه بغيرها لا يرجى للمسلمين رقي ولا تقدم في معرفة دينهم .

ومن هؤلاء أساتذة المنطق والفلسفة وحماة علم الكلام والتصوف في بلاد الإسلام أمثال طه عبد الرحمن ، ومحمد سعيد رمضان البوطي ، وطيب تزيني ،

---

(١) المعيار المغرب للونشريسي : ١١/ ١٦٣ .

(٢) زغل العلم والطلب للذهبي : ٤٤ .

وعبد الرحمن بدوي ، وأمثالهم ، مع أنها كانت من أخطر أسباب البلاء والتخلف الذي باض وفرخ في ديار المسلمين .

٣ـ ضعف البصر بصناعة نقد الآثار والأفكار :

كان نقد الأخبار والأفكار ومذاهب الطوائف والرجال علما قائما عند المتقدمين ، نافقة سوقه بين أهل الحديث ، حراس دين الله في الأرض ، ممن ضربوا بسهم وافر في رد الأباطيل والأهواء المحدثة ، فلم يرُج في زمانهم الدخيل من الأفكار ، أو الزائف من الآثار .

بل كانوا كلما علت رؤوس أهل البدع في أيامهم ، قمعوها بالعلم ، فصانوا المعرفة الإسلامية من الدس والعبث ، حتى قال الشافعي «لولا أهل المحابر لخطبت الزنادقة على المنابر» [(١)] .

ومن نفيس ما قاله الذهبي في ذلك «ونحن لا ندعي العصمة في أئمة الجرح والتعديل لكن هم أكثر الناس صوابا وأندرهم خطأ وأشدهم إنصافا وأبعدهم عن التحامل ، وإذا اتفقوا على تعديل أو جرح فتمسك به ، واعضض عليه بناجذيك ، ولا تتجاوزه فتندم ، ومن شذ منهم فلا عبرة به ، فخل عنك العناء وأعط القوس باريها فو الله لولا الحفاظ الأكابر لخطبت الزنادقة على المنابر ، ولئن خطب خاطب من أهل البدع فإنما هو بسيف الإسلام وبلسان الشريعة وبجاه السنه وبإظهار متابعة ما جاء به الرسول ﷺ فنعوذ بالله من الخذلان» [(٢)] .

فقد كانت أعلام السنة منشورة ، وألوية أهل البدع ورؤوسهم منكسة ، أيام كان أهل الحديث أمة ظاهرة ، وكانت رهافة الحس إزاء البدعة حاضرة ، مع نباهة الفكر والتيقظ ، والولع بهذا الشأن بين أهل العلم . فلما تناقص هذا العلم وتضاءل ،

---

(١) سير أعلام النبلاء : ١٠/ ٧٠.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي : ١١/ ٨٢.

خست صناعته بتناقص علمائه ، فاستشرت الأهواء بين سبايا المذاهب ، وعلا شأن الرؤوس الجهال ، ونفقت بضائعهم الكاسدة بين العوام ، وحلت بلادة الحس والتقليد محل النقد والتمحيص ، وشاع بينهم «سلم تسلم ، ما ترك الأول للآخر» وجرى على ألسنة الصوفية «كن بين يدي شيخك كالميت بين يدي الغاسل» ، و«من قال لشيخه لم؟ وكيف؟ لايفلح » .

وهي أفكار رزئ بها الفكر الإسلامي من لدن شيوخ المتصوفة وأحبار الشيعة ، الذين لقنوا الأتباع والمريدين تقليد الرجال ولقنوهم رسوم «التقديس والتسليم» وأجلسوهم على بساط الجهل ، فكانوا أضل من الأنعام ، حين عطلوا نعمة العقل والنظر ،كما قال الشاعر :

وإذا كان الغراب دليل قوم يمر بهم على جيف الكلاب

وبذلك ضعُف النقد ، وأُعدم العقل ، وحل محله ذوق الشيخ وهوى المريد ، ومال الناس إلى الاسترواح في مناخ البطالة ، والتقليد ، وانهمك المثقفون بعدهم في العصور المتأخرة يبتلعون ما يُلقى إليهم من غربان الفكر الناشز عن أصول الملة ، ويقولون هل من مزيد ، إذ لم يشف غليلهم ما خلفته أجيال المقلدين من أوراق شاحبة في أزمنة الانحطاط .

وقد دخل على التراث من هذه الجهة الغث المهين ، والمزلزل العليل ، في العلوم النقلية كالتفسير ، والحديث ، والتاريخ ، وأصول الدين ، فدونك تفسير أبي عبد الرحمن السلمي ، وعرائس المجالس ، والتفسير للثعلبي ، وهي كتب مشحونة بالإسرائيليات ، وبستان العارفين لأبي الليث السمرقندي ، واللمع لأبي نصر السراج الذي جمع فيه أكاذيب الصوفية في الرقائق ، وكتاب الإمامة والسياسة المنسوب زورا لابن قتيبة ، وإحياء علوم الدين للغزالي الذي خلط فيه عملا صالحا وآخر سيئا ، وجمع من الكلام المرذول ما تقشعر له القلوب ، وفصوص الحكم ،

والفتوحات الربانية ، وعنقاء مغرب لابن عربي الحاتمي ، وخلع النعلين لابن قسي الأندلسي ، وشمس المعارف الكبرى لأحمد بن علي البوني ، وهي كتب جمعت إلى جانب طلاسم الصوفية رسوم الدجل والشعوذة ، التي أزرت بالعقل المسلم وأركسته في الحضيض .

وقس على هذه الكتب مصنفات الشيعة مثل الكافي للكليني ، وبحار الأنوار للمجلسي ، وتفسير الطبرسي ، وهي مصنفات مليئة بالكذب على الصحابة ولعن السلف ، وتحريف التاريخ ، والكلام المرذول في الفكر والعقيدة ، وكتب حماة الدجل والخرافة ، مثل كتاب طبقات الصوفية ، والأنوار القدسية للشعراني ، وشواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق ، وجامع كرامات الأولياء للنبهاني ، ورماح الرحيم لأحمد التيجاني ، والإبريز من كلام عبد العزيز الدباغ .

فهذه كتب أورثت جهالات ومحدثات وشبه وأباطيل في المعرفة الإسلامية ، انتفخت بها كتب التراث ، وصارت رزءا للعقل الإسلامي ، الذي كل وتعب من حمل أوزارها ، والاكتواء بنار بلائها ، بما أحدثته في الأمة من انحراف وتفرق ، وتخلف عيالها عن الاشتغال بالعلوم النافعة ، ومغالبة الأمم في البناء الحضاري وعمارة الأرض .

فصرنا نرى من بين من نظم نفسه في سلك المصلحين ودعاة التغيير بالمغرب من يستلهم تراث الخرافة ليقدمه مشروعا لأبناء الصحوة الإسلامية المعاصرة في الإصلاح،أمثال الشيخ عبد السلام ياسين الذي أغرم بمشروع المهدي بن تومرت ، والمهدي السوداني ، والخميني الرافضي ، فتراه يقدم هؤلاء على أنهم قادة مصلحون ، غافلا عما حبل به تراثهم الفكري من البلايا التي جلبت شرورا على الأمة .

فيقول عن المهدي السوداني زعيم الثورة السودانية ت ١٣٠٢ هـ : «وكان الكشفُ والكرامة والغيبُ سدى قومة المهدي السوداني ولُحمتها ، فإنَّه بعد أن

سلك طريقة القوم على يد شيخه محمد شريف القادري السمّاني مَشْرَباً ، جمع الناس حوله حتى قوِيَتْ شَوْكَتُهُ ودعا الناس إلى قتال الإنجليز . . وكان هذا الـ«محمد بن عبد الله» نموذجا للقائم «المهدي» ، قال المهدي السوداني : «أتانى من الحضرتين ، النبوية وحضرة الأقطاب ، سيفٌ . وقد أُعْلِمْتُ أنه لا يُنْصَر على من معه أحد ، ومن أتانا بعداوةٍ يأخذه الله إما بالخسف أو بالغَرَق» [١] .

وقال : «وقد جاءني في اليقظة سيدُ الوجود ﷺ ومعه الخلفاء الراشدون والأقطاب والخضر عليه السلام ، وأمسك بيدي ﷺ ، وأجلسني على كرسيِّه ، وقال لي : أنت المهدي المنتظر ومن شك في مهديتك فقد كفر» [٢] ، وقد نسب المهدي الى نفسه العصمة ، وكفَّر من شك في مهديته ، ورفع أربع ألوية في حروبه للأقطاب الأربعة : الجيلاني والرفاعي والدسوقي والبدوي .

ولم يخل عصر من أئمة أفذاذ يردون هذا الباطل ، وهم ثلة باقية من ذوي البصر النافذ ، والحس الناقد لكل دخيل ، كأبي الحسين الملطي في كتابه «التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع» ، وابن الجوزي في «تلبيس إبليس» وابن تيمية في رسائله التي صارت مشرقا ومغربا ، والذهبي في تواريخه،وابن القيم في «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان» ، وابن الوزير في العواصم ، وغيرهم ، كما صنف بعض المعاصرين رسائل في بيان زغل هذه المؤلفات ، منهم الشيخ مشهور حسن سلمان في كتاب سماه «كتب حذر منها العلماء» [٣] .

ومن دون هؤلاء قوم غرقوا في ظلمات الجهل والتقليد ، وتكديس الغث من الفكر في صحفهم التي زاحموا بها كتب أهل العلم ، فصار التراث ركاما من الأسفار

---

(١) الفكر الصوفي في السودان ص ٩٩ ، الإحسان لعبد السلام ياسين : فصل المهدوية .

(٢) الإحسان لعبد السلام ياسين ، الفكر الصوفي في السودان ١٠٢ .

(٣) طبع في مجلدين بدار ابن حزم ١٩٩٥م.

اختلط فيها الحابل بالنابل ، في أزمنة كلال الأذهان وعمى الأبصار .

وكل ذلك جناه على أمتنا ضعف البصر ، وتعطيل نعمة النظر مما حجب معالم المنهج الإسلامي الأصيل في نخل التراث عن كثير من الناظرين ، ممن لم يكن لهم تمرس بهذا الشأن في قراءة التراث .

٤ــ الانبهار بتيار الحداثة والثورة على القديم :

ابتلي التراث الإسلامي بأيدي عابثة وعقول مغربة من أبناء هذه الأمة ، إثر ما ظهر في مطلع عصر النهضة من نزعات التغريب والحداثة ، التي بدأت تغزو العالم الإسلامي يومئذ ، حيث تأثر بها كثير من المثقفين العرب وبعض المنبهرين بمدنية الغرب من رجال الأزهر ، فارتموا في أحضانها ومرقوا عن الجادة ، بدافع الجموح والانبهار بالمدنية الغربية الحديثة .

وقد امتدت أيدي هؤلاء إلى التراث الإسلامي بمنطق التجني لا التبني ، وعملت على مسخه ، وتسخيره للإزراء بهذه الأمة وخدمة أعدائها ، وكان لجموح هؤلاء ردة فعل زادت من حدة تيار الجمود والتقليد ضد هجمة التغريب والحداثة على التراث .

وكان من أشهر هؤلاء محمد عبده ، الذي ثار على النظم القديمة بالأزهر بدافع من صديقه «اللورد كرومر» ، فهاجم من سماهم الجامدين من أصحاب العمائم بالأزهر ، وكان يقصد إلى إفراغه من محتواه ، وتقريب علماء الأزهر من اللادينيين ، وتليين مواقفهم لخدمة مصالح دعاة الحداثة من الإنجليز وتلاميذهم المخلصين في مصر كلطفي السيد وسعد زغلول وقاسم أمين .

وكذلك رفاعة الطهطاوي ، الذي درس في الأزهر شيئا من المتون والحواشي ، لم تغن عنه شيئا في فقه شرائع الإسلام ، فلماوجهه محمد علي باشا على رأس البعثة العلمية إلى فرنسا عام ١٨٢٦م انبهر بالفكر الغربي ، وافتتن بمدنية الفرنسيين ،

وتأثر بأفكار الثورة الفرنسية ، ونمط الحياة الغربية وصار يسبح بحمدها ، ويقدس مظاهرها ، فتزعم الدعوة إلى الوطنية والحرية والمساواة ، والسير سيرة الغربيين ، ولم يزل يعتذر في كتبه لسيئاتهم ويصورها لنا على أنها من محاسن الطبائع والعادات ، وإن كان لا يخفي امتعاضه من بعض عوائدهم المتحررة من قيود الدين والأخلاق . وقد كانت كتبه بذور الدعوة الارتماء في أحضان الحضارة الغربية ، ومنها «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» ، و«مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية» ، و«المرشد الأمين للبنات والبنين» ، أعجب فيها بحضارة الغرب ، ودعا إلى اتباع عوائدهم ونمط حياتهم .

وطه حسين ، الذي حفظ القرآن والتحق بالأزهر ، ثم تمرد على مناهج التعليم الأصيل ، وغادر الأزهر لما لحقه الخذلان ، وتأثر بمناهج المستشرقين وشبهاتهم حول التراث الإسلامي ، فألف كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» ودعا فيه إلى التحرر من سلطان الدين ، وقال : «إن سبيل النهضة واضحة بيّنة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء ، وهي أن نسير سيرة الأوروبيين ، ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً ، ولنكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، وما يُحب منها وما يُكره ، وما يُحمد منها وما يُعاب »[1] .

ثم سلامة موسى ت ١٩٥٨م رائد الاشتراكية المصرية ، والدعوة إلى العامية وأحد المغرقين في الانبهار بالحضارة الغربية ، القاصدين إلى سلخ الأمة عن دينها وحضارتها ، من خلال تعليم لاصلة له بالدين .

حيث يقول «كلما زادت معرفتي بالشرق زادت كراهيتي له وشعوري بأنه غريب عني ، وكلما زادت معرفتي بأوروبا زاد حبي لها وتعلقي بها ، أريد تعليماً أوروبياً لا سلطان للدين عليه ولا دخول له فيه ، وحكومة كحكومات أوروبا ، لا كحكومة

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر : ٣٦.

هارون الرشيد والمأمون ، وأدباً أوروبيا أبطاله مصريون ، لا رجاله رجال الفتوحات العربية ، وثقافة أوروبية ، لا ثقافة الشرق ، ثقافة العبودية والذل والتوكل على الآلهة ، واللغة العامية ، لا العربية الفصحى لغة التقاليد العربية والقرآن ، والتفرنج في الأزياء لأنه يبعث فينا العقلية الأوروبية ، هذا هو مذهبي الذي أعمل له طول حياتي سراً وجهرةً ، فأنا كافرٌ بالشرق مؤمنٌ بالغرب ، لأنه إذا كانت الرابطة الشرقية سخافة ، فإن الرابطة الدينية وقاحة لا تليق بأبناء القرن العشرين» [١] .

وقد رد عليه الأستاذ مصطفى صادق الرافعي ففل من غربه : وأركسه مع الأرذلين حيث قال : «رأيي في سلامة موسى معروف لم أغيره يوماً ، فإن هذا الرجل كالشجرة التي تُنبت مراً . . لا تحلو ولو زُرعت في تراب من السكر . . ما زال يتعرض لي منذ خمس عشر سنة . . كأنه يلقي على وحدي أنا تبعة حماية اللغة العربية وإظهار محاسنها وبيانها ، فهو عدوها وعدو دينها وقرآنها ونبيها ، كما هو عدو الفضيلة أين وجدت في إسلام أو نصرانية ، دعا هذا المخذول إلى استعمال العامية وهدم العربية ، فأخزاه الله على يدي ، ورأيته أنه لا في عيرها ولا نفيرها ، وأنه في الأدب حائط لا قيمة له ، وفي اللغة دعي لا موضع له ، وفي الرأي حقير لا شأن ، ثم قام هذا المفتون يدعو إلى الفرعونية ، ليقطع المسلمين عن تاريخهم ، وظن أنه في هذه الناحية ينسيهم لغتهم وقرآنهم وآدابهم ، ويشغلهم عنها بالمصرولوجيا ، والوطنولوجيا ، ثم أتم الله فضحه بما نشره أصحاب دار الهلال» [٢] .

وقال عنه أنوار الجندي : « لقد كانت كل كتابات سلامة موسى وأفكاره في حقيقتها جماع خيوط المخطط الماسوني التلمودي بباطله وهدمه وأخطاره ولقد

---

(١) اليوم وغدا، لسلامة موسى : ص ٥ ، المطبعة العصرية، القاهرة، ١٩٢٩م .

(٢) رجال اختلف الرأي فيهم من أرسطو إلى لويس عوض : أنوار الجندي : ٢٢ .

عرف أن سلامة موسى كان يلفظ الإسلام والمسيحية معاً وهو الذي أضاف إلى قائمة الرسل والأنبياء فرويد وماركس وداروين ولينين» [١] .

ومن المفتونين بهذا المنحى الشيخ طنطاوي جوهري الذي انبهر ببريق الحضارة الغربية وراح يفسر القرآن وفق النظريات الفلسفية الحديثة ، وصار يوفق بين أوهام الغربيين ودلائل القرآن ، حيث قال عن نظرية داروين ، «إني قرأت تلك المحاورات ، وعلمت ما في تلك القضيات ، ولم أر شيئا يغاير الدين ، ولا فكرا يضر بعقائد المسلمين ، فالإسلام يأمر الناس باليقين ، و لا يقين إلا بالعلوم ، التي يسميها الناس عصرية ، وهي في الحقيقة علوم إسلامية » [٢] .

وقد تحولت هجمة العلمانيين ودعاة الحداثة اليوم للنيل من السنة النبوية ، بعد أن ضيعوا أعمارا في تحريف التراث وأعياهم أن ينالوا من القرآن شيئا ، وقد فاقوا المتقدمين جرأة وصلفا فصار هؤلاء لا يقيمون للسنة وزنا ، بل يرونها سيفا مسلطا على الرقاب يمنع المفكرين الأحرار من التجديد والإجتهاد .

كمحمد شحرور من سوريا ، المهندس المتخصص في البناء والهندسة المدنية ، الذي لم يرح رائحة العلم بالشريعة ، حيث قضى حياته العلمية بين الإتحاد السوفياتي ، وجامعة دبلن بإيرلاندا الشمالية ، وحصل على ماجستير في ميكانيكا التربة وهندسة التأسيس البنائي .

ثم تراه يتجرأ ويكتب عن تجديد الدين «دراسات إسلامية معاصرة في الدولة والمجتمع» ، و«الكتاب والقرآن قراءة معاصرة» يقول فيه : «هذا الكتاب يبحث في الدين الإسلامي بطريقة جديدة لا أظن أن أحدا سار على نهجها» [٣] .

---

(١) رجال اختلف الرأي فيهم، أنوار الجندي : ١٦ .

(٢) الاتجاهات الوطنية في الأدب العربي الحديث : ٢/ ٣٥٨.

(٣) الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، محمد شحرور : ٥٠٠، ط : دار الأهالي للنشر ـ سوريا ١٩٩٥ م.

و الأمر كما قال لأن هذه الجرأة على المقدسات ونقض الثوابت لم تُعهد عند العلماء السابقين ، وإنما تجرأ عليها أهل الأهواء .

ويقول : «أصبحت السنة بمفهومها التقليدي الفقهي هي السيف المسلط على رأس كل فكر حر نير نقدي ، وأصبح الظن عند المسلمين أن محمدا ﷺ حل كل مشاكل الناس من وفاته إلى أن تقوم الساعة» [١] .

وقد لاك في كتابه تخريفات من كلام المفتونين ببريق الحداثة ، كادعائه أن العورة : «ليس لها علاقة بالحلال والحرام لا من قريب ولا من بعيد ، لأن العورة جاءت من الحياء ، وهو رغبة الإنسان في إظهار شيء ما في جسده أو سلوكه ، وهذا الحياء نسبي وغير مطلق ، ويتبع الأعراف ، فالعورة متغيرة حسب الزمان والمكان» [٢] .

مع أن تاريخ الحضارات أثبت أن العُري وكشف العورات كان سمة ملازمة للتوحش والبدائية لدى الإنسان القديم ، وكلما تطور الإنسان وارتقى بهداية الوحي لازم الستر ، والأناقة في اللباس ، وهؤلاء يريدون العودة بالأمة إلى حياة التوحش وقوانين الغاب .

كما شن دعاة الحداثة من تلاميذ المستشرقين غارة على اللغة العربية بغية النيل من القرآن الكريم ومناهج التعليم الأصيل ، وقد تمثلت في حملة سلامة موسى وتلميذه لويس عوض الذى وصف لغة القرآن بأنها كالأغلال التى يجب تحطيمها لإحلال العامية محلها . . وبأنها لغة دخيلة وميتة دعا إلى هجرها ، وإحلال العامية المصرية محلها ، تقليدا للأتراك الكماليين الذين استبدلوا الحروف العربية بالحروف اللاآتنية ، وترجموا القرآن إلى التركية ، ومنعوا الآذان بالعربية وحرموا تدريس العربية في المدارس والمعاهد .

---

(١) الكتاب والقرآن، محمد شحرور : ٥٦٩.

(٢) الكتاب والقرآن، محمد شحرور : ٦١١ ـ ٦١٢..

وقد جاءت دعوة هؤلاء استجابة لمخطط تغريبي قاده جيل من المستشرقين والمبشرين منهم « مولار ، وويلكوكس»وكان أبرز ما دعا إليه إبطال شكل النصوص وتغيره بالحروف اللينة ، وتسكين أواخر الكلمات ، وإحياء الكلمات العامية ، وإدخالها في صلب اللغة الفصحى والنزول باللغة المكتوبة إلى خطاب العامة ، لتمصير العربية نهائيا ، وقد رد عليه الرافعي بما يكشف زيف هذه الاتجاه .

وكان منهم كذلك إسكندر المعلوف الذي دعا إلى التحرر من قيود النحو وقواعد العربية ، وكان يقول : «ما أحرى أهل بلدنا أن ينشطوا من عقالهم طالبين التحرر من رق لغة صعبة المراس ، قد استنزفت أوقاتهم ، بل أصبحت ثقلا يؤخرهم عن الجري في مضمار التمدن » [(١)] ، وإثر ذلك نشر حافظ إبراهيم قصيدته المشهورة :

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي ... ونواديت قومي فاحتسبت حياتي

أنا البحر في أحشائه الدر كامن ... فهل سألوا الغواص عن صدفاتي

أيطربكم من جانب الغرب ناعب ... ينادي بوأدي في ربيع حياتي

وأسمع للكتاب في مصر ضجة ... فأعلم أن الصائحين نعاتي

كما ولع بذلك أدباء المهجر أمثال جبران خليل جبران الذي دعا إلى الثورة على قوالب وقواعد العربية في مقال له تحت عنوان «لكم لغتكم ولي لغتي» مما قال فيه : «لكم منها جثث محنطة باردة جامدة ، ولي منها أجساد لا قيمة لها بذاتها بل كل قيمتها بالروح التي تحل فيها ، لكم منها مما قال سيبويه وأبو الأسود وابن عقيل ومن جاء قبلهم وبعدهم من المضجرين المسلمين ، ولي منها ما تقوله الأم لطفلها ، والمحب لرفيقته ، والمتعبد لسكينة ليله» ، لكم أن تحتفظوا بما يبتر من أعضائها المختلة ، وأن تحتفظوا به في متاحف عقولكم ولي أن أحرق بالنار كل عضو ميت ،

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب العربي الحديث : ٢/ ٣٦٣.

وكل مفصل مشلول ، لكم لغتكم عجوزا مقعدة ، ولي لغتي غارقة في بحر من أحلام شبابها إن خشب النعوش لا يزهر ولا يثمر ؛ أقول لكم إنما تحسبونه بيانا ليس بأكثر من عقم مزركش وسخافة مكلسة» [١] .

وسار على نفس المسلك خلق من المفتونين بالأدب الرومانسي المحلق في سماء الخيال كمخائيل نعيمة ، وإيليا أبي ماضي فظهرت عندهم مجموعة من عبارات الخيال السخيف التي تغرق القارئ في بحر من الأوهام بتشبيهات ممجوجة : كقولهم : «لموت البنفسجي ، وضوء القمر الطري ، والزهرة الفيلسوفة ، ووعظت على هيكل نعشي ، وخطبت على جماهير قلبي ، وأوقدت شموع جوانحي» .

وقد هاجم هؤلاء الأديب «سامي الكيالي» في مقال وصف فيه أدباء المهجر «بأنهم يصفعون لغة العرب التي يريدونها بلا قواعد وأن يكونوا أحرارا في أن ينحتوا لها من ملكاتهم قواعد متحركة ، وأكثرهم يأتون بغوامض تشبيهات ومجازات لا يفهمها جن ولا إنس» [٢] .

وقد شغف فريق منهم بالكتابة في الأدب الغربي وأطواره شغفا ملك عليهم حياتهم ، ترى لهم في كل يوم حديثا عن الدراما ، والرومانتيزم ، والمذهب الواقعي ، و أدباء الغرب كبرناردشو ، وأوسكار وايلد ، وترجنيف .

حتى أصبح ذلك مرض العصر ، وصار العلم بآدب الغربيين آية التبحر في الثقافة ، وأصبح الاستشهاد بقول أحدهم حجة مسكتة ينقطع بها جدل المختصمين [٣] ، وهم من أجهل الناس بلغة العرب وآدابها ، أعماهم بريق الحداثة

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب العربي الحديث، ٢٧٥ عن بلاغة العرب في القرن العشرين : ٥١.

(٢) انظر مقال محمد عبد الله عنان «الأدب التافه يطغى على الأدب الرفيع» في ملحق السياسة الأدبى عدد ٢٤ شوال ١٣٥٠/ ٢٦ فبراير ١٩٣٢م.

(٣) الاتجاهات الوطنية في الأدب العربي محمد حسين : ٢/ ٢٧٧.

عن أصول الأمة وحضارتها .

٥ ـ ضمور الاهتمام بالعلوم الكونية :

أصيبت المعرفة الإسلامية في مجال العلم بالسنن الكونية وفقه فلسفة العلوم بضمور كبير في اهتمام العقل المسلم ، فكثير من المتعلمين لا يفقهون عن هذا المارد الحديث شيئا ذا بال ، حتى إنك لترى أكثر المشتغلين بالعلوم الشرعية والإنسانية غرباء بين أهل الأرض في معرفة أبجديات العلوم الكونية ، واستيعاب الظواهر العلمية الحديثة .

وقد ظهر لي أن أبناء أمتنا وحدهم من بين سكان العالم ابتلوا بهذه الغربة ، لانصرافهم عن سنن الإعداد وأسباب الرقي ، وعدم اكتراثهم بمواكبة التطور العلمي في العالم ، تراهم ينظرون إلى المخترعات العلمية الحديثة نظر مشدوه لا يعي ما يمور حوله منها ، ولا ما يخرج منها ، ولا يستطيع استيعاب آلياتها .

حيث يتخرج الطالب عندنا في العالم العربي بإجازة في شعب العلوم الشرعية أو الإنسانية ، وأحيانا العلوم التجريبية وهو بعد لا يحسن إصلاح دائرة كهرباء ، أو صنبور لا يمسك الماء ، بله أن يتطلع إلى تحليل الظواهر العلمية ، والتركيبات التكنلوجية في أبسط جهاز ، أو فهم وسائل الاتصال الإعلامي الحديث ، أو اقتحام لجج ذلك الميدان .

ومن المعلوم أن فقه سنن الكون والحياة من أولويات فروض الكفاية ، لأن العلم بنواميس الله في الكون سبيل العيش في عالم تحكمه سنن لا ترحم أحدا ، فالجهل بها خيانة للأمة ، والاشتغال عنها بقضايا اللغو والثرثرة أشد خزيا وجرما ، وأمتنا بدافع الانهزام السياسي أمام الأعداء فرطت وضيعت هذه السنن في الرقي المدني ، ولم تحقق فيها فروض الكفاية .

فلا زلنا نعيش في شتى مناحي الحياة تبعية مقيتة لغيرنا ، لا نملك قوت يومنا ولا

قرار أمتنا ، والأمة الجاهلة بهذه السنن لاتنعم بالحرية أبدا ، ولا تقوى على العيش في عالم يحكمه فراعنة الحضارة المادية الحديثة ، إلا أن تكون ذيلا وذليلا ، يجود عليها هذا بلباس يواري سوءات أهلها ، وآخر برغيف يسد جوعتها ، وثالث بسلاح كي تصون أرضها وعرضها ، وتصد عدوان أعدائها .

وتبقى هي كالميت الحي في شبحه ، بين أولئك المردة الذين ملكوا البر والبحر ، وتحكموا في استغلال خيرات الأرض ، بقوة الحديد والنار ، وسرعة البرق في الإنجاز والاتصال .

يقول الشيخ محمد الغزالي ~ : « إن فقه الكون والحياة فريضة أسبق من فرائض أخرى صنعها أصحاب ثقافات مغشوشة زعموها دينا وهي أبعد ما تكون عن الدين »[1] .

وقد كان سلف الأمة من الفقهاء والمحدثين والمفسرين علماء موسوعيين أتقن كثير منهم حرفا وصنائع وعلوما ، فالشافعي رحمه الله كان فارسا ماهرا ، والإمام البخاري كان راميا لا تخطئ له رمية ، و الحافظ ابن حبان كان محدثا فقيها وعالما فلكيا ، والفخر الرازي كان عالما بالتفسير مدركا للسنن الكونية ، قام بتجارب في قوانين الدورة المائية ونزول الأمطار ، وكان يرتقي قمم الجبال ليميز نزول المطر أهو من السماء أم من السحاب الذي يحاذي سفوح الجبال .

وعُرف من علماء المسلمين في الطب والفيزياء والكيمياء والهندسة من كان لهم مشاركة في علوم اللغة ، وعلوم الشريعة ، كأبي بكر الرازي الطبيب ، وابن زهر عالم البصريات ، وابن النفيس ، والزهراوي ، وغيرهم ممن شغلت علومهم سمع الزمان ، وكان علماء أروبا عالة عليها في عصور الاكتشافات العلمية .

---

(١) تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل : ٢٢ .

ثم آل أمر الأمة إلى الانحدار بعد انفصال العلوم بعضها عن بعض ، وعكوف المتعلمين على شعب في المعرفة دون أخرى ، حيث عشش الجهل في ديار المسلمين،وحلت الخرافات والأساطير في عصور الانحطاط محل النظر في العلوم ، وأصيبت المعارف الكونية بضمور كبير ، وضحالة في اهتمام أبناء الأمة .

فإلى عهد قريب لم تكن بلدان العالم الإسلامي تستطيع تحصيل فروض الكفاية في علوم الحياة بتوفير الخبراء وأهل الصنائع ، الراسخين ، فكنت ترى مستشفيات المسلمين ومختبرات العلوم والجامعات ملآى بأطباء ومهندسين وأساتذة من اليهود والنصارى للاستعانة بهم في سد النقص الحاصل في هذه الفروض .

في حين ترى طائفة كبيرة من المسلمين من طلاب المعاهد العتيقة انكمشوا على الثمالة الباقية من علوم الخلف في المتون والحواشي والمختصرات التي بلغت حد الألغاز والأحاجي ، وعجزوا عن مسايرة الركب العلمي بعقولهم وأفهامهم ، وقصروا في استشراف ما يقع وراء البحار أو فهم قوانينه ، بل التسليم بإمكان حدوثه ونجاحه .

وقد ساهمت خطط المستعمرين في إبعاد هذه الطائفة من أبناء الأمة عن ميدان هذه العلوم ، بفصل معاهد التعليم الديني عن التعليم المدني ، وترك هذه الأمة من الناس تعيش على هامش الحياة وما يمور فيها ، وفق الاتفاقيات الدولية بين أعداء الإسلام التي تحرم نقل التكنولوجيا إلى بلاد المسلمين ، والعمل على تهجير العقول والأدمغة ، حتى لاتقوم لأمة الإسلام قائمة ، وتظل مجتمعات المسلمين أسواقا استهلاكية لبضائع أمريكا وأروبا ، خاضعة لجبروت إسرائيل أخزاها العلي القدير .

وقد وُجدت القابلية في أبناء الأمة لذلك ، فصار خلق منهم يعيشون في بروج من الخيال الخصيب ، ويتلهون بالتفنن في اختراع أسماء بلا مسميات في مفاهيم تحليل النصوص وقراءة ما وراء السطور ، وتحليل فلسفة الطرب الأندلسي ، وجمع

أنماط الأهازيج الشعبية ، وأشكال التهريج المسرحي ، وقتل الوقت في مجالس اللغو والبطالة ، وتضييع الأعمار في جهالات تضر وعلوم لاتنفع كالفنون التشكيلية التي ركبها البطالون ، وصاروا يضحكون بها على السذج ويوهمونهم أنها علوم تستحق عقد المؤتمرات وتبذير أموال الأمة في السخافات [١] .

ومما يدعو إلى الأسى أننا معشر المسلمين نعيش فوق أرض ملآى بالنفط والحديد والذهب الإبريز ، لا ندري ماتحتها ، حتى يأتي غيرنا ممن يملك مفاتيح الصناعة ، فينقب ويثير الأرض ليستخرج منها الغالي والنفيس ، ويرتفقه لينفق منه كيف يشاء ، ثم يرمي لنا الفضلات ، في أنفة وكبرياء ؛ لأن خلائق من أهل الجهل عندنا لا زالوا يتمجدون بفهم سيء لقول النبي ﷺ : « **نحن أمة أمية لا نقرأ ولا نحسب** » [٢] . وينزلون الحديث في غير منازله .

حيث نبتت نابتة من الأميين في علوم الدين والدنيا يتوهمون أن الأمية صفة لازمة للأمة إلى آخر الدهر ، فتراهم يرفضون الحساب الفلكي والمعادلات الرياضية ، التي قام عليها إرسال المركبات إلى الفضاء ، وصناعة الأسلحة ، ووسائل الاتصال واختراق الآفاق بسرعة الضوء ، وبذلك بقينا ذيلا نستجدي الأمم الأخرى ، لاحظَّ لنا في صنع قرار أنفسنا ، بل إبداء الرأي في مصير غيرنا ، لضحالة حظنا في علوم صَفِرَت منها أيدينا ، فأمسينا كما قال الشاعر :

ويُقضى الأمر حين تغيب تيم ولايُستأمرون وهم شهود

وعجيب أن بعض المسلمين اشتغلوا بنقاش قضايا لا هي من فروض الأعيان ، ولامن فروض الكفايات ، طولوا بها الشروح والحواشي ، فربما استغرق بعضهم في

---

(١) قال بعض الظرفاء : العلوم التشكيلية في حقيقتها انفصال عن القيمة ، وهذا ما يفسر ازدهارها في الغرب.

(٢) أخرجه البخاري في الصوم ١٨١٤ ، ومسلم في كتاب الصيام ١٠٨٠ ، وأحمد في المسند : ٢/ ١٢٩ .

شرح باب المياه والطهارات سنين من الزمن ، وكان منهم شيخ ألمعي أزهري ظل يشرح مختصر خليل في الأزهر مدة أربعين سنة ، في كل سنة لا يكاد يخرج من باب المياه والطهارات!!

ويشتغل اليوم بعض أهل اللغو والجدل بتصنيف رسائل مثل : «عقيدة أهل الإيمان في خلق آدم على صورة الرحمن» يشغب بها على العوام ويلبسهم شبها كانوا في راحة منها ، بدعوى الدفاع عن العقيدة مع أن قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١] ، ناف للاحتمال الذي تطرق إلى حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « **خلق الله آدم على صورته ، طوله ستون ذراعًا** »[(١)] .

ففيه إثبات صفة الصُّورة لله تعالى على ما يَلِيق بجلال وجْهه وعظيم سُلْطانه ، خلافًا لِمَن أنكَرَها من الجهميَّة وغيرهم ، وقد كان في ذلك كفاية وغنية لمن رام تجريد التوحيد ، دونما حاجة إلى كل ذلك الجدل واللغط الذي أعقب الخلاف في هذه المسألة .

قال ابن خزيمة : «توهَّم بعض من لم يتَحَرَّ العلم أنَّ قوله : «على صورته» يريد صورة الرحمن ، عزَّ ربُّنا وجلَّ عن أن يكون هذا معنى الخبر ، بل معنى قوله : «**خلَقَ آدم على صورته**» ، الهاء في هذا الموضع كناية عن اسْم المَضْروب والمشتوم ، أراد ﷺ أنَّ الله خلَقَ آدم على صورة هذا المضروب الذي أُمِر الضَّارب باجْتناب وَجْهِه بالضرب ، والذي قبح وجه»[(٢)] .

فتمحُّل تأويلها بصورة الرحمن هو بناء على شفا جرف هار بناء على حديث ضعيف عن ابن عمر مرفوعا : «**لا تقبِّحوا الوجْه؛ فإنَّ الله خلَقَ آدم على صورة**

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٢٦) ومسلم (٢٨٤١) ، وأحمد في المسند : ٧٨٢٤، و ابن حبان ٥٨٠٢ .

(٢) كتاب التوحيد لابن خزيمة : (١ / ٨٤ ٨٥) .

الرَّحمن»[١].

هو مجرد تعب ليس وراءه أرب سوى إثارة الفتن والتشويش واللغو، وشغل المسلمين بما لا ينفعهم في دين ولا دنيا.

وقد كان الأولى بذل تلك الجهود في غير هذا المرمى، فإن الفروق بين العلم الديني والعلم المدني تتيح للناظرين في علوم الكون مجالا رحبا واسعا؛ لأن النظر في فقه الدين مسيج بضوابط وحدود لا ينبغي تجاوزها، فهو علم منضبط أساسه الاتباع، والعلم المدني علم منفتح مطلق أساسه الاختراع والإبداع، وثمت آيات كثيرة تنعى على الجهال القاعدين عن النظر في سنن الله في الكون، لكن الفهم الأعمى للأمية يسري في النفوس كالخمر في أبدان السكارى.

معاداة وسائل التمدن من آفات الجهل بعلوم الكون:

وقد حصل ذلك بسبب بُعد مناهج التعليم في بلاد المسلمين عن مواكبة ما يمور في العالم من تقدم علمي وحضاري، وانصرافها إلى التقليد والاجترار، وفصل التعليم الديني عن التعليم المدني. مما أثر سلبا على تحصيل الملكات النافعة للرقي والتقدم، وفهم ما يجري من تجارب الشعوب والأمم في مظاهر التقدم العلمي والحضاري.

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» ٥٢٩، وابن خزيمة في «التوحيد» ١/ ٨٥، والدارقطني في «الصفات» ٤٥، ٤٨، وغيرهم من طريق جَرِير عن الأعمش، عن حبيب بن أبي ثابت، عن عَطَاء، عن ابن عمر مرفوعا، وهو حديث ضعيف وقد أعله ابن خزيمة بثلاث عِلَل:

الأُولى: أنَّ الثَّوري قد خالف الأعْمش في إسناده فأرسَلَه.

الثانية: عنعَنَةُ الأعمش، وهي مردودة؛ لأنَّه مدلِّس ما لم يصرِّح بالسَّماع من حبيب بن أبي ثابت.

الثالثة: لا يُعلَم لحبيب بن أبي ثابت سَمَاعٌ من عطاء. كتاب «التوحيد» ١ / ٨٧، وزاد الألباني رحمه الله علَّة رابعة، وهي تغَيُّر جرير بن عبد الحميد وسُوء حِفْظه، وقد اضْطَربت روايته برواية لفْظ: «على صورته» عند ابن أبي عاصم ٥٣٠، واللالكائي ٧١٦.

وقد وقع ذلك لبعض الأكابر كالإمام المفسر شهاب الدين محمود الألوسي صاحب روح المعاني ت١٢٧٠ هـ الذي عبر عن موقفه مما وصلت إليه أوربا من اختراعات في مجال الملاحة البحرية والجوية تعبيرا ساذجا ينم عن جمود العقل المسلم يومئذ ، وبعده عن استيعاب ما يمور وراء البحار . فعند تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء:٨١] ، يتعجب من تعنِّي الإنجليز عقب الثورة الصناعية وكَلَفهم بصُنع طائرة تحلق مرتفعة في الهواء .

حيث يقول : «ومن العجب أن أهل لندن قد أتعبوا أنفسهم منذ زمان بعمل سفينة تجري مرتفعة في الهواء إلى حيث شاءوا ، بأبخرة يحبسونها فيها ، اغترارا منهم بما ظهر منذ سنين من عمل سفينة تجري في الماء بواسطة آلات تحركها أبخرة فيها ، فلم يتم لهم ذلك ، ولا أظنه يتم حسب إرادتهم على الوجه الأكمل ، وأخبرني بعض المطلعين أنهم صنعوا سفينة تجري في الهواء ، لكن إلى حيث شاءوا ، بل إلى حيث ألقت رحلها» [(١)] ، وكأنه يتحدث عن الجمال حين تضع جُرانها على الأرض!!

وإنه ليشتد عجبك وأنت تطالع فتاوى علماء نجد أيام كان الملك عبد العزيز آل سعود يجاهد ويجالد في إقناعهم سنين من الزمن لإنشاء خطوط الهاتف ، وقد حضروا عنده سنة ١٣٣١ هـ ١٩٢١م حين علموا بعزمه على إنشاء محطات للتلغراف اللاسلكي بمدينة الرياض وغيرها من مدن نجد ، فقالوا : « ياطويل العمر ، لقد غشك من أشار عليك باستعمال التلغراف ، وإدخاله إلى بلادنا ، فقال لهم : لقد أخطأتم فلم يغشنا أحد ، وليس هناك من دليل أو سنة رسول يمنع من إحداث اللآسلكي والسيارات » [(٢)] .

وقد عزم على مد خط هاتفي بين مكة وحداء والرغامة ، ثم عدل عنه خوفا من

---

(١) «روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني» ١٨/ ٧٨ .

(٢) المجددون في الإسلام لعبد المتعالي الصعيدي : ٥٦٨.

فتنة الجامدين يومئذ من طلبة العلم حيث كانوا يقطعون أسلاك الهاتف ، لأنها في زعمهم خيوط تسكنها الشياطين ، لا تشتغل حتى يذبح المتكلم عندها ذبيحة لغير الله ، فيحمل الشيطان كلامه وينقله إلى المستمع ، عبر أسلاك الهاتف ، وذلك شرك وبدعة ما أنزل الله بها من سلطان [١] .

ثم عقدوا مؤتمرا لأمور أنكروها في بلاد الحجاز وأصدروا فتوى بشأن تلك المسائل مطلعها : « أما بعد فقد ورد علينا من الإمام سلمه الله تعالى سؤال من بعض الإخوان عن مسائل تطلب منا الجواب عليها ، فأجبنا بما نصه : أما مسألة البرق ، فهو أمر حادث في آخر الزمان ، ولا نعلم حقيقته ، ولا رأينا فيه كلاما لأحد من أهل العلم فتوقفنا في مسألته ، ولا نقول على الله ورسول بغير علم ، والجزم بالإباحة والتحريم يحتاج إلى الوقوف على حقيقته» [٢] .

فعدل الأمير عن إنجاز ما عنَّ له بشأن هذا المخترع الجديد حتى يقتنع فقهاء نجد بذلك ، ويتأكدوا أنه عمل لا متولج للشياطين فيه!!

وقد حصل نحو ذلك في بلاد الشام عندما أُدخل التلغراف إلى حلب سنة ١٢٧٨هـ حيث قال كامل حسين الغزي : « وفي هذه السنة صار الشروع بتمديد السلك البرقي ، وكان بسطاء الناس إذا قيل لهم إنه ينقل الأخبار من بلد إلى أخرى مهما كانت بعيدة في لحظة كطرفة عين ، ينكروا ذلك ويقولوا : لا شك أن الذي ينقل هذا الخبر شيطان مارد منبث في التيل» [٣] .

وقد عجب الناس زمنا في مصر من اختراع المنطاد الذي عمله الفرنسيون ، واستنكر ذلك الجبرتي سنة ١٢١٣هـ فقال :« وفي يوم الأربعاء كتبوا أوراقا بتطيير

---

(١) المجددون في الإسلام بتصرف ٥٦٨.

(٢) المجددون في الإسلام ٥٧٠ والمراد بالبرق التلغراف اللاسلكي.

(٣) كامل حسين الغزي : نهر الذهب في تاريخ حلب : ٣/ ٣٩٠ .

طيارة ببركة الأزبكية مثل التي سبق ذكرها وفسدت ، فاجتمعت الناس لذلك وقت الظهر ، وطيروها وصعدت إلى الأعلى ومرت إلى أن وصلت تلال البرقية وسقطت ، ولساعدها الريح وغابت عن الأعين لتمت الحيلة ، وقالوا : إنها سافرت إلى البلاد البعيدة بزعمهم !!» [١] .

وقد اشتد عجبي وأنا أتابع عرضا لأحدث ما أنتجته المؤسسات الإعلاميات من أجهزة الحاسب وبرامج «الوسائط المتعددة » ، وما يسره الله للناس بذلك من خدمات لا تقدر بثمن في مجال التعليم والبحث العلمي في العلوم الشرعية ، والعلوم الكونية وغيرها ، وكان ذلك في ملتقى علمي ضم جموعا من طلاب وأساتذة الدراسات الإسلامية وحملة القرآن ، فكنت أتفرس الوجوه فلا أرى إلا عيونا جاحظة تدور في محاجرها ، من شدة العجب والاستغراب ، لما يعرض أمامها من عجائب الدنيا ، في عالم استوعب خباياه صبيان المتعلمين في بلاد الغرب .

ولا يزال حال المسلمين اليوم كحالهم بالأمس ، من آثار الانفصام النكد في مناهج التعليم والمعرفة بين العلوم الشرعية والعلوم الكونية ، مما كان ينشده أعداء الإسلام ، وقد تحقق ذلك فينا بسبب داء الغفلة وذل التبعية الذي عشش في ديارنا .

وزاد الطين بلة تدخل الإرادة السياسية والأنظمة الحاكمة في كثير من بلاد المسلمين لتكريس هذا الوضع ، حتى نظل أمة مهينة ، وذيلا وذليلا تابعة للأسياد! نأكل ما لا نزرع ، ونلبس ونركب ما لا نصنع ، بحيث لو قلنا لكل شيء ارجع من حيث أتيت لخشينا أن نمشي في الطرقات حفاة عراة نركب البغال والحمير ، ونستجدي قوتا من أمم الغرب ؛ لأننا لم نصنع شيئا بأيدينا ، وربما غُرلا كما ولدتنا أمهاتنا ، لأن أدوات الجراحة والختان نستوردها كذلك من غيرنا .

قال ابن المؤقت المراكشي : « وبالجملة فسنة الترقي هي سنة الله ، ولن تجد لسنة

---

(١) عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، للجبرتي ٢/ ٢٤٤ .

الله تبديلا ، وكلما خمدت أمة وسكنت حرارة شبابها وتدلت في الحضيض أرسل الله لها من يوقظها من غفلتها ، فإن هبت للعمل ارتقت ، وإلا فلتنذر بالزوال من الوجود ، هاهي الأمم ارتقت من حولنا في جميع مواد الحياة من التجارة والزراعة والصناعة ، هاهم أغلب المسلمين في بقاع الأرض ليس لهم نصيب من الترقي إلا كسراب بقيعة» [١] .

وهذا لايليق بأمة ملأت سمع الزمان بحضارتها وعلومها ، وأكل من فتات موائدها علماء النصارى بجامعات المشرق والأندلس ، إبان العصور الزاهية للحضارة الإسلامية .

٦ ـ الاشتغال بالدجل والخرافة على حساب العلم :

الخرافة هي الحديث المستملح المكذوب ، و تقول العرب «حديث خرافة» ، وخرافة رجل من بني عذرة ، أو من جهينة ، زعموا أنه استهوته الجن واختطفته ، ثم رجع إلى قومه ، فكان يحدث بأحاديث يعجب منها الناس فكذبوه ، فجرى على ألسنة الناس ، واستعمل في كل خبر غريب لا يُصدق كما قال الشاعر المستهتر ديك الجن :

أأتـرك لـذة الـصهباء عمـداً لمـا ... وعـدوه مـن لـبنٍ وخمـر
حيـاةٌ ثـم مـوتٌ ثـم بعـثٌ ... حـديث خرافـةٍ يـا أم عمـرو [٢]

ومن ذلك ما روي من أساطير الجاهلية : « أن تأبط شراً قتل غولاً وعاد إلى قومه وقد تأبط رأسه فقيل تأبط شراً» [٣] . وما روي : «أن عليا ﷺ صارع الجن في بئر ذات العلم ، وأنه اقتلع باب خيبر لوحده» .

---

(١) الرحلة المراكشية أو مرآة المساوئ الوقتية لابن المؤقت المراكشي : ١٩ .

(٢) محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني : ٢ / ٣ ، ومجمع الأمثال للميداني : ١/ ٨٥ .

(٣) محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني : ٢/ ١٠٤.

وقد نشأت نابتة من بني جلدتنا ممن ضل سعيهم في الحياة الدنيا من مشايخ الدجل وأحبار السوء ، ولعوا بإحياء الأساطير ، ودين الخرافة ، لإشغال المسلمين اليوم عن واجب الحال ، وصرفهم عن واجبات ثقال ، يصبون الزيت في كانون خمدت ناره منذ أمد ليشتعل من جديد ، ويمعنون في شغل الناس بتفاهات الأئمة الغائبين ، وترهات متصوفة الأرزاق المجانين ، في سنوات عجاف يأكل فيها المسلم رغيفه من موائد الغرب ، ومساعدات أمريكا ، ويستجدي المنظمات الصليبية التي تهدف إلى سلخ المسلمين عن دينهم .

فتراهم يقيمون المعارك على قضايا الغيوب التي استأثر الله بعلمها ، ونهى عن الخوض فيها ، ويشغلون الأمة بأكاذيب وضلالات كعلم الأولياء الغيب وامتلاكهم مفاتيحه الخمسة ، واطلاعهم على ما في اللوح المحفوظ ، وطيرانهم في الهواء وسيرهم فوق الماء ، ودخولهم إلى النار دون أن تنال منهم شيئا ، ورؤياهم النبي ﷺ يقظة لا مناما في الأسواق والشوارع ، وإغاثة السيد البدوي أتباعه في البحار والأنهار ، وإنقاذه إياهم أينما كانوا في الفيافي والقفار ، واستطالة عنق عبد العزيز الدباغ في فاس حتى صار أطول من كل طويل ، فطوى الله له السموات السبع والأرضين السبع ، حتى رأى الجنة والنار ، والملائكة والحور العين ، ورأى الرومية تُرضع طفلها في روما!!

وهذا الغثاء يردده أشياخ في المشرق و المغرب ، كالشعراني في «لواقح الأنوار في طبقات الأخيار» ، و أحمد برادة التيجاني في «جواهر المعاني» ، وأحمد بن مبارك في «الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز» والحبيب الجفري في خرافاته ، وعبد السلام ياسين في مؤلفاته ويقدمه مشروعا تنويريا لأبناء الحركة الإسلامية في القدوة والتربية لعلهم يرشدون .

يقول عبد السلام ياسين « ونورد هنا شهادة عبد من عباد الله ، أمي أو يكاد ، يصف لنا ببساطة وصدق ما حدث له حين اصطفاه الله وقربه إليه فأبصر بنور الله

وسمع بسمعه ، يقول مولانا عبد العزيز الدباغ : فلما بلغت باب الفتوح بفاس دخلتني قشعريرة ، ثم رعدة كثيرة ، ثم جعل لحمي يتنمل كثيرا ، فجعلت أمشي وأنا على ذلك و الحال يتزايد إلى أن بلغت قبر سيدي يحيى بن علال نفعنا الله به وهو في طريق سيدي علي بن حرازم ، فاشتد الحال ، فجعل صدري يضطرب اضطرابا عظيما حتى كانت ترقوتي تضرب لحيتي ، فقلت هذا هو الموت من غير شك ، ثم خرج شيء من ذاتي كأنه بخار الكسكاس ، ثم صارت ذاتي تتطاول حتى صارت أطول من كل طويل ، ثم جعلت الأشياء تنكشف لي وتظهر كأنها بين يدي ، فرأيت النصرانية ترضع ولدها وهو في حجرها ، ورأيت جميع البحور ، ورأيت الأراضين السبع وكل ما فيهن من دواب ومخلوقات ، ورأيت السماء وكأني فوقها وأنظر فيها ، وإذا بنور عظيم كالبرق الخاطف الذي يجيء من كل جهة ، فلما رقدت رأيت ذاتي كلها عيون العين تبصر والرأس تبصر و الرجل تبصر وجميع أعضائي تبصر ، ثم استمر الأمر علي ساعة فانقطع»[1] .

قال عبد السلام ياسين : « وبقية كتاب الإبريز تتمة للفتح وإخبار عن الغيوب وعن أنوار الذات ومعرفة الله وصحبة رسوله ، ومن يقرأ من العامة العقلانية يتوهم أن بالرجل خبالا . . وحاشا معاذ الله أن تنفذ البصائر المعمية إلى أسرار الله ولو عرضها عليهم صادق مسكين»[2] .

وهذا المنحى الخرافي الذي نحته منظروا الزوايا من شيوخ التصوف في تلاميذهم من أساتذة وطلاب الجامعات ، ودهاقنة الشيعة في الحوزات العلمية ونظروا له في مؤلفاتهم أضعف من انتشار الفكر العلمي ، وحد من تأثيره في حياة كثير من المسلمين .

---

(١) الإسلام بين الدعوة والدولة : ٣٥٨. الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز : ١٥ .

(٢) الإسلام بين الدعوة والدولة لعبد السلام ياسين : ٣٥٩.

فترى من يولع بأساطير المتصوفة ، ويته بها فرحا ، مثل ما ساقه الشعراني من : «أن الشيخ أبا يعزي أقام في بدايته خمس عشرة سنة في البر ، لا يأكل إلا من حبّ الشجر في البادية ، وكانت الأسود تأوي إليه والطير يعكف عليه ، وكان إذا قال للأسد : لا تسكني هنا ، تأخذ أشبالها وتخرج بأجمعها ، قال الشيخ أبو مدين : زرته مرة في الصحراء وحوله الأسد والوحوش والطير تشاوره على أحوالها . . فكان يقول لذلك الوحش : اذهب إلى مكان كذا وكذا ، فهناك قوتك ، ويقول للطير مثل ذلك فتنقاد لأمره . ثم قال : يا شعيب ، إن هذه الوحوش والطيور أحبت جِواري فتحملت ألم الجوع لأجلي» [(١)] .

ولو أن الأمر اقتصر على جهلة العوام لهان الخطب ، لكن هذا البلاء سرى اليوم فيمن يحللون تراكيب المواد في مختبرات الكيمياء ، ويتقنون حساب الأرقام في حل المعادلات الرياضية ، ومن يبحثون في عالم الفلك والفيزياء في قلب الجامعات ، ثم تراهم إذا خرجوا إلى عالم الخرافة والأساطير صاروا أغبى من الحمقى والمغفلين .

إذ ليس المقصود بالفكر العلمي أن يشتغل المرء بحل المعادلات الرياضية ، والبحث في عوالم الفيزياء والطب والصيدلة والكيمياء ، ويقف عند ذلك ، بل الواجب أن يترسم خطى المنهج العلمي في التفكير وتحليل الظواهر ، وفهم أسرار الكون و الحياة .

فإنك تجد أمة من المشتغلين بالعلوم البحتة من أكثر الناس تصديقا بالخرافة وولعا بالأساطير والأوهام ، لبعدهم عن معين الشريعة ، وسنن أهل العلم ، ولذلك تراهم أسرع الناس انتسابا إلى الطرق الصوفية ، وزوايا الخرافة ، وولعا بمخاريق المجاذيب والأميين من المشايخ .

فلا ترى أثرا للفكر العلمي في حياة هؤلاء ، بل تجد الواحد منهم يعيش بعقل

---

(١) طبقات الصوفية للشعراني : ١ / ١٣٦ .

العالم في المختبر وقاعة الجراحة مع المعادلات الرياضية والكميائية ، والآلات والأجهزة الطبية ، فإذا خرج ترك عقله مع معطفه الأبيض حين يخلعه ، وانقلب إلى تدينه المغشوش ليصدق «أن فلانا طار في الهواء ، أو مشى فوق الماء ، وأن شيخه يخترق الجدران ويسافر في الآفاق ، وأنه يُحضر لك فاكهة الصيف في فصل الشتاء» ، ونحو ذلك من حكايات أهل الدجل .

يقول الشعراني : في ترجمة يوسف العجمي الكوراني : «وكان ﷺ إذا خرج من الخلوة يخرج وعيناه كأنهما قطعة جمر تتوقد فكل من وقع نظره عليه انقلبت عينه ذهباً خالصاً ، ولقد وقع بصره يوماً على كلب فانقادت إليه جميع الكلاب ، إن وقف وقفوا وإن مشى مشوا» . إلى أن قال : «ووقع له مرة أخرى أنه خرج من خلوة الأربعين فوقع بصره على كلب فانقادت إليه جميع الكلاب ، وصار الناس يهرعون إليه « أي إلى الكلب» في قضاء حوائجهم ، فلما مرض ذلك الكلب اجتمع حوله الكلاب يبكون ويظهرون الحزن عليه ، فلما مات أظهروا البكاء والعويل ، وألهم الله تعالى بعض الناس فدفنوه فكانت الكلاب تزور قبره حتى ماتو» [(١)] .

قال الشعراني : «فهذه نظرة إلى كلب فعلت ما فعلت ، فكيف لو وقعت على إنسان؟!» [(٢)] .

وبذلك كادت سنن الله في الكون أن تنقلب عند هؤلاء إلى لعبة في أيدي الدجالين ، لهم أن يحركوها أو يعطلوها متى شاءوا ، وكأن الأحداث والمسببات ليست رهينة بأسبابها إلا في مختبرات التحليل وقاعات العلوم بالجامعات ، وأوراش الصناعة والفلاحة ، حتى إذا انقلب الناس إلى حياتهم العادية سلموا زمام عقولهم للخرافة!!

---

(١) لواقح الأنوار في طبقات الأخيار، المسمى طبقات الصوفية للشعراني : ٢/ ٦٦ .

(٢) طبقات الصوفية للشعراني : ٢/ ٦٦ .

مما يدل أن لدى هؤلاء الخرافيين انفصاما في الفكر واختلالا في موازين العقل ، ولولا علوم الغرب لعادت حياة القوم إلى مرحلة التوحش والسحر والشعوذة ، فيليق بهم أن يعشوا مع الجن والعفاريت ، ولا يأنسوا من التراث إلا بخرافات بهلول المجنون ، وميمونة السوداء ، وأبي يزيد البسطامي والحلاج وأبي مدين والشعراني والدباغ ، ليطيروا في الهواء ، ويسيروا فوق الماء ، ويدخلوا إلى النار فلا يحترقون ، ويرقصوا مع الراقصين ، ويتغنوا بكرامات الأئمة المعصومين ، حتى يسكروا بخمرة الخبال الصوفي ، فتسقط عنهم الشعائر ، في زمن تغزو فيه أمريكا وإسرائيل بخيلها ورجلها بلاد المسلمين ، وتهدد بعتادها المتطور في عالم الحديد والنار أمن الأمة ووجودها في الأرض .

في حين ترى الكتاب و المثقفين من منظري الزوايا الصوفية كالقادرية والنقشبندية والختمية والتيجانية ، والأحمدية والملاماتية وأضرابهم ، يفاخرون من أذلوهم باستعمار بلادهم بالدعاوى العريضة التي شاعت في سير مشايخ الدجل .

أمثال أحمد بن على البدوي ت ٦٥٧هـ الذي زعم أرباب الخرافة أنه « صعد إلى سطح غرفته ، وأقام فوق السطح نحو اثني عشرة سنة ، وكان يمكث أربعين يوما فأكثر لا يأكل ولا يشرب ولا ينام ، وعاش لايظله سقف و لا يحجبه شيء عن السماء فكان الناس يلقبونه بأبي اللثامين السطوحي ، و إذا عرض له الحال يصيح صياحا متصلا ، وادعو أنه كان يضع اللثامين على وجهه ليستر بهما الأنوار الربانية ، والتجليات الإلهية التى كانت تنطبع على محياه» [1] .

ولقب ببحر العلوم ؛ لأنه كان يقول : «وعزة ربي سواقي تدور على البحر المحيط ،

(١) شذرات الذهب لابن العماد ٥/ ٣٤٥ وطبقات الصوفية للشعراني ١/ ١٥٨ والنجوم الزاهرة ٧/ ٢٥٢.

لو نفذ ماء سواقي الدنيا ما نفذ ماء سواقي» [١] .

وذكر المؤرخ الجبرتي أنه بلغ من جهل العوام اعتقادهم أنه تشفع عند الله مع بعض الأولياء فأخر عنهم قيام الساعة إلى حين ، قال الجبرتي : « في آخر سنة ١١٤٧هـ أُشيع في الناس بمصر بأن القيامة قائمة يوم الجمعة سادس عشر ذي الحجة ، وفشا هذا الكلام في الناس قاطبة حتى في القرى والأرياف ، وودع الناس بعضهم بعضاً ، وطلع أهل الجيزة نساء ورجالاً وصاروا يغتسلون في البحر ، ومن الناس من علاه الحزن وداخله الوهم ، ومنهم من صار يتوب من ذنوبه ويدعو ويبتهل ويصلي ، واعتقدوا ذلك ، ووقع صدقه في نفوسهم . . وكثر فيهم الهرج والمرج إلى يوم الجمعة المعين . فلم يقع شيء ، فانتقلوا يقولون فلان العالم قال : إن سيدي أحمد البدوي والدسوقي والشافعي تشفعوا في ذلك وقبل الله شفاعتهم» [٢] .

وقال الشعراني : «ووقع ابن اللبان في حق سيدي أحمد ﷺ فسُلب القرآن ، والعلم ، والإيمان ، فلم يزل يستغيث بالأولياء فلم يقدر أحد أن يدخل في أمره فدلوه على سيدي ياقوت العرشي فمضى إلى سيدي أحمد ﷺ وكلمه في القبر ، وأجابه» [٣] .

وزعموا أنه كان يُنقذ المستغيثين في البحار ، ويمد يديه من فوق سطح بيته فيستنقذ الأسرى من أيدي النصارى ، و قد كان الأولى بهذا القطب الصوفي الرافضي المتصرف في العوالم والأكوان وصاحب الخوارق والأحوال !! أن يوقف زحف التتار والمغول الذين استباحوا البلاد وأذاقوا المسلمين صنوف النكال ، ويفتح ثغور الروم ، أوينقذ أمصار المسلمين من أيدي الصليبيين ، لكنها دعاوى

---

(١) طبقات الصوفية للشعراني :١/ ١٥٨.

(٢) عجائب الآثار للجبرتي : ١/ ١٠٨ .

(٣) طبقات الصوفية للشعراني :١ / ١٨٣.

الخبال تروج على العميان في سوق الجهالة !!

وحقيقة الرجل أنه كان داعية شيعيا علويا استغل التصوف ستارا لاسترجاع حكم الروافض الذى انقرض بزوال الدولة العبيدية فى مصر على يد صلاح الدين الأيوبى ، وحين ضعفت الدولة الأيوبية انتهز الشيعة الفرصة فأعادوا دعوتهم المتسترة بالتصوف لإرجاع ذلك الملك الزائل ، فلم تُسعفهم صولة دولة المماليك فظلوا رموزا للدجل والشعوذة .

ثم إبراهيم بن أبي المجد الدسوقي ت ٦٧٦ هـ شيخ الطائفة البرهامية وصاحب الدعاوى العريضة ومنها قوله : «أنا في السماء شاهدت ربي ، وأنا على الكرسي خاطبته ، أنا بيدي أبواب النار أغلقتها ، وبيدي جنة الفردوس فتحتها ، من زارني أسكنته جنة الفردوس ، وقد كنت أنا وأولياء الله أشياخا في الأزل ، وإن الله ﷻ خلقني من نور رسول الله وأمرني أن أخلع على جميع الأولياء بيدي» [(١)] .

وقد كان الدسوقي يتبجح بهذا الدعاوى الكاذبة في زمن عاقب الله فيه المسلمين بما سلف لهم من المعاصي بتسلط التتار والمغول ، واجتياحه للبلاد الإسلامية ، وانهدام ركن الخلافة ، فكيف فتحت أبواب الجنان ، وغلقت أبواب النيران ، في عصر مني فيه المسلمون بهذه المصائب والهزائم؟!! وقد كان هولاكو وجينكزخان وأتباعهم يعيثون في بلادهم فسادا ، ويسومون الأمة سوء العذاب .

ثم أبو العباس أحمد بن محمد الملثم زعموا « أنه عاش أربعمائة سنة ، وأنه صلى خلف الإمام الشافعي ت ٢٠٤ يوم كان جامع مصر سوقا للدواب ، و أنه قد أُعطى التبدل فى الصورة بحيث يظهر بغير صورته ، فى أماكن عدة على سبيل البدل ، وقد ألف السيوطى في ذلك رسالة سماها «المنجلي في تطور الولي» وذكر فيها « أن ذلك يكون من باب تعدد الصور بالتمثل والتشكل ، ومنها ما يكون من باب طي المسافة ،

(١) طبقات الصوفية : ١/ ١٨١ ، و المجددون في الإسلام لعبد المتعالي الصعيدي : ٢٤٧ – ٢٤٨.

وزوي الأرض بحيث ينتقل الولي من مكان إلى آخر في لحظة من غير أن تتعدد صورته ، فيظن من رآه فيها أنه كان في صور متعددة لسرعة انتقاله من مكان إلى آخر مع بعد المسافة ، وليس كذلك بل هو من طي الله الأرضَ لأوليائه ورفع الحجب المانعة عنهم» [١] .

حتى خرج هؤلاء إلى الاعتقاد في تناسخ الأرواح وتبدل أجساد الأولياء كما ذكر الشعراني عن الشيخ «حسين أبي علي» أنه : «كان من كُمَّل العارفين وأصحاب الدوائر الكبرى ، وكان كثير التطورات تدخل عليه بعض الأوقات تجده جنديا ، ثم تدخل فتجده سبعاً ، ثم تدخل فتجده فيلاً ، ثم تدخل فتجده صبياً وهكذا ، ومكث أربعين سنة في خلوة مسدودة بابها ليس لها غير طاقة يدخل منها الهواء وكان يقبض من الأرض ويناول الناس الذهب والفضة» [٢] .

ومما شاع عند الرفاعية من كرامات الشيخ أحمد الرفاعي « أن الله ناداه : قم يا أحمد وزر بيت الله الحرام وزر النبي ﷺ ، فقال الرفاعي لربه : سمعا وطاعة ، فسافر ومعه جم غفير إلى مكة ثم المدينة ووقف عند القبر وقال : السلام عليك يا جدي ، فقال له النبي ﷺ : وعليك السلام يا ولدي . فتواجد الرفاعي وقال :

في حالة البعد روحي كنت أرسلها ... تقبل الأرض عني وهي نائبتي

وهذه دولة الأشباح قد حضرت ... فامدد يمينك كي تحظى بها شفتي

فانشق التابوت ومد النبي ﷺ يده إلى الرفاعي ليقبلها أمام جمع كبير من الناس يزيدون على التسعين ألفا وكان من بينهم عبد القادر الجيلاني وعدي بن مسافر وحيوة بن قيس الحراني» [٣] .

---

(١) طبقات الأولياء لابن الملقن : ٦٩ ، طبقات الصوفى للشعرانى ١ / ١٥٣ .

(٢) طبقات الصوفية للشعراني : ٢/ ٨٣ .

(٣) تنوير الأبصار في مناقب آل النبي المختار : ٦ . قلادة الجواهر في ذكر الرفاعي وأتباعه الأكابر :١٥ .

واعتبروها حادثة متواترة يكفر منكرها ويصير خارجا من ملة الإسلام كما صرح بذلك أبو الهدى الصيادي قائلا : « فخروج يد النبي ﷺ لسيدي أحمد بن الرفاعي ممكن ولا يشك فيه إلا ذو زيغ وضلالة ، أو منافق طبع الله على قلبه ، وإنكارها يؤدي إلى سوء الخاتمة» [(١)] .

وهي أسطورة تناقلها هؤلاء المغفلون في البلاد الإسلامية وطاروا بها كل مطار ، مع أن ثقات المؤرخين الذين ترجموا للشيخ أحمد الرفاعي كابن خلكان والذهبي وابن كثير ، لم ينقلوا شيئا من هذا الدجل .

وتجد هذا الغثاء يُنشر اليوم باسم التربية وإحياء التراث الصوفي ، في مواقع زوايا الصوفية ، حيث يرى هؤلاء أن إحياء هذه البلايا ، وبعث هذه الأفكار الميتة سبيل انتصار الأمة وتقدم المسلمين .

وعند التحقيق وتقليب النظر في تاريخ الحضارة الإسلامية ألفيناهم أمة من الفاشلين ، وخلائق من العاطلين امتلأت بهم الربط والزوايا والخوانق والتكايا ، قعدوا في مناخ البطالة ، وظلوا يتسولون المعارف الأرضية ممن غلبوهم على الأرض ، وتركوهم أذل من السراط .

بل لا يخفى أن كثيرا من هؤلاء القاعدين على بساط الجهل ، والولع بالأساطير قد وقعوا وارتموا من حيث يشعرون أو لا يشعرون في خدمة مشاريع الدوائر الصليبية في تخريب عقول المسلمين وديارهم ، وتخلفهم عن الركب الحضاري للأمم ، إذ لا تطمع مؤسسات المكر الصليبي والصهيوني أن تدس أخطر من هذا الفكر المغشوش في تراث الأمة .

٧ . اختلال سلم الأولويات في فقه الخلاف والمواجهة :

ابتليت المعرفة الإسلامية بقوم من أهل الترف والبطالة ، اختلت لديهم موازين

---

(١) قلادة الجواهر في ذكر الرفاعي وأتباعه الأكابر ، أبو الهدى الصيادي : ١٠٨ .

الأولويات في التعامل مع التراث والاستفادة منه فيما ينفع الأمة ، فلا تراهم يهتمون بشيء يخدم قضايا الأمة الكبرى في الفكر والعقيدة وسنن الرقي وبناء الحضارة ، بل تجد لديهم نهما شديدا وولعا عجيبا بالنظر في الجزئيات والخلافيات ، والتنقير عن تلاد المسائل الفرعيات التي أثارت فتنا ومحنا بين المسلمين ، كلما انتهوا من مسألة نظروا في أخرى .

وقد يستمر الخلاف بينهم في مسألة شهورا وأعواما ، يجندون لها ماوسعهم من جهد وقوة ، ويضيعون فيها نفائس الأوقات في معارك الجدل مع الخصوم ، فلا يدعون مسألة خلافية ، أو معركة جدلية ، تثير الفتن بين العباد إلا ولجوها ، وشمروا فيها للنزال والانتصار ، وفرحوا بخذلان المخالف ، وانتهضوا عليه بالجلبة والصياح ، وأحيانا بالشتائم والسخائم ، باسم الجهاد ونصرة الدين .

قال الشيخ محمد الغزالي ~ : « لقد سألت نفسي هل المولعون بقضايا الخلاف صغراها وكبراها ، والذين يحشدون أفكارهم ومشاعرهم وأوقاتهم للانتصار فيها . . . هل هم مخلصون للقضايا المتفق عليها ، لماذا ننسى القواعد التي تجمعنا ونهش للدروب التي نتفرق فيها ، الحق أن هذا الاهتمام بالأمور الخلافية لون من الطفولة الفجة ، والزيغ الفار بأهله من ميدان الحق ، لأنه كثير التكاليف ، إلى ميدان آخر لا مشقة فيه ، ولاتزحمه واجبات ثقال» [1] .

وقد حصل ذلك لدى قوم قليلي الفقه كثيري الحركة ، حيث ترى اختلالا لديهم في فقه سلم الأولويات ، واشتغالا بقضايا ميتة يهدرون فيها الطاقات ، ويضيعون نفائس الأوقات في مواجهات فاشلة ، ومعارك خاسرة ضد العوام ، بسل فصال النضال ، ونصب المجانيق ، والضرب بدبوز من حديد ، وشهر الصارم البتار في وجه المبتدعة الأشرار ، الذين يخالفون في مسائل فروعية اتسعت لها الأنظار ، مع

(١) تراثنا الفكري في ميزان الشرع و العقل : ٦.

ترك ما هو أولى بالمواجهة منها من بلايا الفكر الوافد .

وأكثرها مسائل فرغ منها الأئمة ولم يبق منها في القوس منزعا ، قد تجلى الخلاف فيها كالشمس في ضحاها ، ولم يبلغ أحد مدارك سد الخلاف فيها ، فتجد مما يؤلف اليوم رسائل هي من باب الاجترار ، وضياع الأعمار والأموال فيما قتل بحثا نحو «القذادة في تحقيق مسألة الإستعاذة » في مسألة الجهر والإسرار بالاستعاذة ، و«المفيدة لكل مستفيد ومستفيدة » في إثبات سنية القبض بعد الركوع ، و«الجوهرة الغالية في حكم الجماعة الثانية» ، ونحوها .

في حين جلبت دوائر المكر والإلحاد على المعرفة الإسلامية عقيدة وشريعة ومنهجا بخيلها ورجلها ، وصارت تنفث السم الزعاف ، وتنشر الإلحاد بين شباب الإسلام متجهمة حانقة معطلة لمنارات الخير في ميدان العلم والفكر ، مزرية بأعلام الأمة كالبخاري ومسلم ومالك والقرطبي وغيرهم لتسقطهم من ديوان الرجال ، فأولى أن تجتمع عليها الجيوش الإسلامية وترسل عليها الصواعق المرسلة ، والشهب العلمية لتزيل صفراءها وخضراءها النابتة فوق دمن الحداثة والعلمانية البالية .

وإذا كان مكر الصليبيين والعلمانيين أشد من ضلال فرق ماتت في الفكر الإسلامي ، فإن كثيرا من الغلمان الطائشين يرون أن من أوليات المعركة الفكرية والعقدية اليوم أن نعلن الحرب على الجهمية والمعطلة ، مع أن جهمية ومعطلة عصرنا اليوم أشد ضلالا من تلك الفرق التي خبت نارها ، وانطفأ شررها ، وإنما هي أشباح نقاتلها في غير معركة ، وهياكل ميتة نخاصمها في غير ميدان .

فإن دوائر الفكر الصهيوني والصليبي تستغل اليوم ضعاف الفكر والإيمان من المسلمين ، وتستقدمهم إلى جامعات الغرب تحت إشراف طلائع المستشرقين ، كما هو الحال في هارفرد بأمريكا ، والسربون بفرنسا ، وتمكنهم من كافة الوسائل

للبحث والكتابة في أفكار مسمومة بالية في التراث الإسلامي ، ومحاولة إحيائها ، وتقديمها للأجيال المقبلة حتى تمقت هذا الدين وتضجر من حضارة المسلمين .

وإنه ليشتد بالمرء الأسى وهو يلمح خلائق من حملة العلم يهدرون جهودهم وأوقاتهم في دروب من الخلاف الفقهي قد انتهى منه علماء الإسلام ، أوجدل كلامي مضى بمضي زمانه ، وأوسعه الأئمة بحثا وردا على المخالفين ، فيشتغلون بذلك عن معضلات كان الأولى أن تبذل فيها الجهود وتصرف لها نفائس الأوقات .

ولربما تجد المشتغل بهذه الخلافات أميا عاطلا لايملك قوت يومه ، وقد ضيع حقوق الأمة عليه ، وهذا من انقلاب سلم الأولويات في عقول أبناء المسلمين ، وكفى بالمرء إثما أن يضيع من يعول ، بله أن يحقق بعض فروض الكفاية في المجتمع .

وأنت إذا أنعمت النظر فيما يقتتلون حوله من المسائل وجدت أكثرها من العلم الذي لاينفع والجهل الذي لايضر ، من مثل إرجاء الفقهاء ، وهل كان أبو حنيفة منهم ؟ ونوادر ابن تيمية في القول بفناء النار ، وحوادث لا أول لها ، وتتبع سقطات ابن حزم ، والنظر فيما يخرج النووي وابن حجر من دائرة أهل السنة لكونهما تأولا بعض الصفات ، ونحو ذلك مما لايعني المرء في دينه ، ولم يُكلف البحث والنظر فيه .

وفي أحسن الأحوال يشغلون أوقاتهم ويستميتون لحمل العباد على رأي واحد في مسائل الخلاف المعتبر الذي تواردت فيه الأدلة واتسعت له الأنظار ؛ كالنزول على الأيدي أوعلى الركب في السجود ، وقراءة الفاتحة خلف الإمام ، وصلاة الجماعة الثانية في المسجد ، والسدل أو القبض بعد الركوع ، ورؤية النبي ﷺ ربه ليلة المعراج ، ونحوها من المسائل التي لا يرتفع فيها الخلاف بين الأئمة .

كل هذا يقع في زمن بلغت فيه الأمة دركا من الهوان لم يُعهد من قبل ، حيث تداعت أمم الصهاينة والصليبيين على ديار الإسلام نهبا وسلبا ، وتقتيلا وتخريبا ،

واشتدت هجمة العلمانيين ودعاة الحداثة من الداخل تغير على مكارم الشريعة ، وتهدم حرمات الدين ، وتطعن في السنة ونبي الأمة ، وتلعن الصحابة وأعلام الأئمة ، وأمة الغافلين منا ليسوا في ورد من ذلك ولا صدر ، يُغار عليهم ولا يُغيرون ، بل لا يرون شيئا من ذلك يستحق الاهتمام مع طغيان الجهل بتحقيق وجه الخلاف في هذه المسائل بين العوام .

ومع ظهور نسائم الربيع العربي الإسلامي في تونس ومصر وليبيا اتجه هؤلاء إلى إعلان الحرب على المصلحين ، والرد على الثائرين ، باسم مواجهة الخوارج ، وأهل الأهواء المعارضين لولاة أمر المسلمين .

حيث ألف الشيخ «نعمان الوتر» رسالة سماها «نسف شبهات دعاة المظاهرات والاعتصامات» قال فيها : «وهذه الأعمال المنكرة وافدة علينامن أعداء الإسلام ، ليحدثوا بها أنواعا جديدة من الفرقة والانقسام بين أبناء المسلمين، . . إذ هي صورة من صور الخروج ، وبذرة خبيثة من بذورالفوضى العامة التي ربما أتت على الأخضر واليابس عياذا بالله» [(١)] .

ومن هؤلاء الغلاة في مواجهة المستضعفين مع مهادنة حكام الجور «الشيخ خالد أحمد العلاونة الذي هاجم ثوار التحرير في مصر ووصفهم « بأنهم خوارج وكفار ، وقال : إن حذاء حسني مبارك أطهر من لحى الإخوان المسلمين التي على وجوههم ، ومن ناصرهم وأيّدهم» [(٢)] .

وهذا من عظيم الجور والتطاول على المسلمين ، مما يؤكد أن هؤلاء الغلاة «تراهم مرجئة مع الحكام ، ثم ينقلبون خوارج مع العلماء» ، يكيلون المدح لأصحاب الصولجان ، وُيمعِنون في الشتم والقدح في المستضعفين الذين لا ناصر

(١) نسف شبهات دعاة المظاهرات والاعتصامات والإضرابات لنعمان الوتر : ص ٢ .

(٢) صحيفة «السبيل» الأردنية الأحد ١٧ ابريل ٢٠١١ .

لهم إلا الله .

ومن نفس المدرسة الناقمة على شباب الثورة «أبو عاصم المصري» الذي شبه مظاهرات الثوار بخروج مشركي هوازن يوم حنين بنسائهم وصبيانهم ، حيث وجه رسالة لثوار مصر عبر موقع منتديات البيضاء التابع لعلي رضا أتى فيها بالعجر والبجر ، وركب مطايا الزور والتحريف ، ورمي المتظاهرين بما لا يستسيغه عاقل [١] .

وقد صار ديدن القوم إثارة الفتن والوقيعة بين شباب الأمة وعلمائها المجاهدين ، في حين لا نكاد نسمع لأحدهم جعجعة ولا نرى طحينا في نصرة قضايا المسلمين المستضعفين ، والدفاع عن حرمات الأمة ضد الطغاة والغزاة المستعمرين .

فالاشتغال بهذه المواجهات الخاسرة ، وإهدار الجهود في خلافات بالية لحمل الناس على رأي واحد تعب ليس وراءه أرب ، بل جناية على الإسلام وأهله لما يفضي إليه ذلك من بث العداوة بين المسلمين ، وإشغالهم بمسائل لا يرتفع فيها الخلاف عن الاهتمام بالقضايا الكبرى التي تعاني منها الأمة ، كتقويم العقيدة والأخلاق ، والتورع عن المحارم والشبهات ، والدفاع عن حرمات الإسلام في البلاد ، والدعوة إلى تحيكم الشريعة ، وإعداد العدة لمواجهة علل الكفر والفقر والمرض والجهل ، وغيرها من الأوبئة التي تفتك بالخلق ، وتخرب ديار المسلمين .

٨ـ تعالم النكرات وخطره على التراث الإسلامي :

من شر الآفات و الغوائل على التراث الإسلامي دخول الأحداث وصغار المتعالمين في علومه ، وأخذهم وردهم فيها ، وهم المجاهيل الذين لم يعرفوا برسوخ القدم في طلب العلم ، وإن كانوا أشياخا وأشجارا في الوقار .

قال ابن حزم ~ : « لا آفة على العلوم وأهلها ، أضر من الدخلاء فيها وهم من غير أهلها ، فإنهم يجهلون ، ويظنون أنهم يعلمون ، ويفسدون ويقدرون أنهم

---

(١) منتديات البيضاء العلمية :www.albaidha.net/vb/showthread.php?t=٣٠٨٠١.

يصلحون »[١] .

وقد ابتليت المعرفة الإسلامية بخلق ظهروا في حلائب العلم ، تصدروا للنظر في المعارف وعلوم التراث قبل النضج والاكتمال ، ومن تصدر للناس قبل أوانه تعرض لهوانه .

وهؤلاء قوم ناموا عن طلب العلم زمنا ، ولم يدركوا فيه وردا ولا صدرا ، ثم قاموا كطحالب الغدران الطافية على الماء ، وركبوا مطايا الخير للشر ، فجلبوا على المعرفة الإسلامية عارا ، وحملوها أوزارا . وقد أثر من كلام علي ﷺ : «العلم نقطة كثرها الجاهلون »[٢] .

وأثر من كلام الغزالي : «لو سكت من لايعلم لقل الخلاف»[٣] ، وقديما قيل : «إن من البلية تشيخ الصحفية» .

وقال الشافعي : « فالواجب على العالمين ألَّا يقولوا إلا من حيث علموا ، وقد تكلم في العلم من لو أمسك عن بعض ما تكلم فيه منه لكان الإمساك أولى به ، وأقرب من السلامة له إن شاء الله »[٤] .

ورأى الشاطبي ـ رحمه الله ـ أن ما حصل من شذوذ المتأخرين وانحرافهم عن مذاهب السلف الماضين إنما كان من هذه الجهة حيث قال : «والثاني ألَّا يكون من أهل الاجتهاد وإنما أدخل نفسه فيه غلطا أو مغالطة إذ لم يشهد له بالاستحقاق أهل الرتبة ولا رأوه أهلا للدخول معهم فهذا مذموم وقلما تقع المخالفة لعمل المتقدمين

---

(١) مجموع رسائل ابن حزم : ١ / ٣٤٥.

(٢) كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس للعجلوني ٢ / ٦٧ .

(٣) وقد صنف الشيخ عبد الغني النابلسي رسالة سماها "زيادة البسطة في بيان العلم نقطة " وشرحها الشيخ أحمد بن محي الدين الإغريسي ت ١٣٣٠هـ. انظر : سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر للمراد : ٣٩٨.

(٤) الرسالة للشافعي : ٤١.

إلا من أهل هذا القسم »[١] .

فالمتعالم فج الدعوى لخلوه من الحقائق ، ولو تحقق لأغنته الحقائق عن الدعاوى ، مع ضعف ظاهر ، وإنما كان السلف على التواضع وهضم النفس وترك الادعاء . قال القاضي عبد الوهاب المالكي :

متى تصل العطاش إلى ارتواء ... إذا استقت البحار من الركايا
ومن يثني الأصاغر من مراد ... وقد جلس الأكابر في الزوايا
وإن ترفع الوضعاء يوما ... على الرفعاء من إحدى البلايا
إذا استوت الأسافل والأعالي ... فقد طابت منادمة المنايا

وقد أخرج الخطيب عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال : «لا يزال الناس بخير ما أخذوا العلم عن أكابرهم ، وأمنائهم وعلمائهم ، فإذا أخذوه عن أصاغرهم وشرارهم هلكوا»[٢] .

وقد كثر المتعالمون في زماننا من أصحاب الغارة على التراث من دعاة الحداثة ، وحشوية الأمة من الجهلة المتحمسين ، حتى فاقوا عدد باعة البقول والشحاذين في الأسواق ، وتداعت أرسالهم كالذباب مشوشة على المعرفة الإسلامية بين العباد ، فتعنت حماية التراث من وساوسهم وتخليطهم ، إذ الحجر على الجهلة الأدعياء لاستصلاح الأديان ، أولى من الحجر على المفاليس لاستصلاح الأموال والأبدان .

وقد اشتكى الذهبي ~ من مثل هذا النوع في زمانه وهم في زماننا سماء ، وأهل بصر بين العميان ، حيث قال في ترجمة هدبة بن خالد ت ٢٣٥هـ « فكيف بالماضين لو رؤونا اليوم نسمع من أي صحيفة مصحفة ، على أجهل شيخ له إجازة ، ونروي من نسخة أخرى بينهما من الاختلاف والغلط ألوانا ، ففاضلنا يصحح ما تيسر من

---

(١) الموافقات في أصول الشريعة، للشاطبي : ٣/ ٧٥.

(٢) نصيحة أهل الحديث للخطيب البغدادي ، حديث رقم ٨ .

حفظه ، وطالبنا يتشاغل بكتابة أسماء الأطفال ، وعالمنا ينسخ ، وشيخنا ينام ، وطائفة من الشبيبة في واد آخر من المشاكلة والمحادثة لقد اشتفى بنا كل مبتدع ، ومجنا كل مؤمن ، أ فهؤلاء هم الذين يحفظون على الأمة دينها ؟ كلا والله ، فرحم الله هدبة وأين مثل هدبة ، نعم ما هو في الحفظ كشعبة» [١] .

وقد صنف العلماء قديما في هتك أستار المتعالمين وكشف عوارهم رسائل ومؤلفات منها «تنبيه العلماء على تمويه المتشبهين بالعلماء» لعلي بن زيد البيهقي ٥٦٥هـ ، و«تحفة النبهاء في التفرقة بين الفقهاء والسفهاء» للزياني المغربي ١٢٤٩هـ ، وألف عبد الكريم بن فكون الجزائري ت ١٠٧٣هـ ~ «منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية» [٢] . و ألف بكر أبوزيد كتابا نفيسا في نقض هذه الآفة الناشئة بين المسلمين ، ومما قال فيه : « ولم يبق منهم من يحسن الجمع بين كلمتين إلا استطال على منازل العلماء ، فهؤلاء المنازلون في ساحة العلم ، ليس لهم من عدة فيه سوى القلم والدواة هم الصحفية المتعالمون شخصية مؤذية ، تتابعت الشكوى منهم على مدى الإعصار ، وتوالي النذر سلفا وخلفا :

شعوذة تخطر في حجلين وفتنة تمشي على رجلين

إنهم زيادة في أنصاب أهل العلم كواو عمرو أونون الإلحاق ، فهذا القطيع حقا ، هم غول العلم ، بل دودة لزجة ، متلبدة أسرابها في سماء العلم ، قاصرة عن سمو أهله ، وامتداد ظله ، معثرة دواليب حركته ، حتى ينطوي الحق ، ويمتد ظل الباطل وضلاله ، فما هو إلا كفجر كاذب ، وسهم كاب حسير» [٣] .

أسباب تشيخ الصحيفة :

وقد وُجدت أسباب حملت هؤلاء المتطفلين على الادعاء ، وأحدثت نتوءا واعوجاجا في مناهج المعرفة وقراءة التراث ، وفتحت أرسالا من أسراب التعالم في

---

(١) سير أعلام النبلاء : ١١/ ٩٩.

(٢) طبع بدار الغرب الإسلامي بيروت : ١٤٠٨ هـ . بتحقيق الدكتور أبو القاسم سعد الله.

(٣) التعالم وأثره على الفكر والكتاب : ٨- ٩.

هذا العصر منها :

١- قعود الراسخين ، وإحجام المتأهلين عن التصدر الانتصاب لدعوة الخلق وإقامة الحجة ، حتى رأينا دنانا فارغة تحدث جلبة وضجيجا بين الناس ، وأوعية من أهل العلم وقمم الفكر أحجمت عن النزال أمام نفاق سوق الجهال ، وتعالم الأغمار ، وقد كان من دعاء عمر ﷺ : «اللهم إني أشكو إليك جلد الفاجر وعجز الثقة » ، أو كما قال الشاعر :

ملأى السنابل تنحني تواضعا والفارغات رؤوسهن شوامخ

وقال أبو العلاء المعري :

ولما رأيت الجهل في الناس فاشيا تجاهلت حتى ظُن أني جاهل

فوا عجبا كم يدعي الفضل ناقص ووا أسفا كم يظهر النقص فاضل

٢- تفشي داء العجب والغرور بين بعض حملة العلم المجترئين على العظائم ، لضمور وازع الإيمان والحياء ، مما جرأهم على اقتحام خطة السوء الفاجرة وهي« القول على الله بغير علم» .

٣- انقطاع صلة الناس بكتب السلف ، واقتصار طلاب العلم على الطحالب والقشور في سوق المعارف ، وعكوفهم على ثمالة ونزر قليل في حدائق العلوم لا تؤهلهم لشيء ، فنشأت نابتة من المقتصرين على نتف وسطور ، يستكملون شرائط العلم بالدعاوى العريضة ، فيصير الأعمش منهم في بلاد العمى سلطانا .

٤- ضعف ملكة العربية بين المثقفين واستشراء لغة عامية هجينة نشرها أعاجم أغتام لم يرضعوا ألبان العربية ، حيث ثقلت ألفاظها على ألسنتهم ، فعكفوا على ألفاظ سوقية ، وعبارات فجة مبتذلة صارت هي البضاعة النافقة في سوق الجهالة .

١ـ التعالم وأثره في تحريف نصوص الشريعة :

تولج هذا الباب خلق من النكرات الفاشلين الذين أعياهم الجهل ، وطالت

عليهم السنون في ظل البطالة وخمول الذكر ، فتعلقوا بتحريف نصوص الكتاب والسنة ، والتطاول في أعراض علماء الأمة ليرتفعوا ، ويشتهروا شهرة الشر ، كما قيل : «إن كنت خاملا فتعلق بعظيم» ويدخلوا التاريخ من بابه الأسود،كما قال الشاعر :

أصبح السافل منا عالياً ... وهوى أهل المعالي والشرف
يسفل الناس ويعلو معشر ... قارفوا الإقراف من كل طرف
ولعمري لو تأملناهم ... ما علوا لكن طفوا مثل الجيف

قال العلامة أحمد محمد شاكر ~ : «أما في عصرنا ، فقد نابت نوائب ، ونبتت نوابت ، ممن استعبدوا لآراء المبشرين وأهوائهم ، وممن جهلوا لغة العرب إلا كلام العامة وأشباههم ، وجهلوا القرآن فلم يقرؤه ، ولا يكادون يسمعونه إلا قليلا ، وجهلوا السنة ، بل كانوا من أعدائها ، وممن سخروا من علم علماء الإسلام ، وسفهت أحلامهم ، ومردت ألسنتهم على قولة السوء في سلفنا الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، بل لا يؤمنون بالغيب إلا قليلا ، هؤلاء وأشباههم وأمثالهم ، اجترؤا على العبث بالقرآن ، واللعب بالسنة ، فعرضوا لتفسير القرآن ، وزعموا لأنفسهم الاجتهاد الجاهل ، يفتون الناس ويعلمونهم اللعب والعبث ، وينزعون من قلوبهم الإيمان ، لا أقول : إن هؤلاء وأولئك يفسرون القرآن بأهوائهم ، فإنهم أضعف من أن تكون لهم أهواء وأشد جهلاً ، بل بأهواء سادتهم ومعلميهم من المبشرين والمستعمرين أعداء الإسلام» [1] .

فما تشاء في هذا العصر القليل الرشاد ، الكثير الفساد ، أن تسمع بمفسر جهول كذاب ، لا يدري ما السنة ولا ما الكتاب ، يلوي أعناق النصوص ليستدل بها على سخافات جهله ، ويشيعها بين العوام ، إلا سمعت ورأيت ما يندى له الجبين!!

---

(١) عمدة التفاسير لأحمد محمد شاكر : ١ / ٤٦.

فتجد من يستدل لوجوب السياحة في الأرض للدعوة بقوله تعالى : ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة:٢] ، مع أنها وردت في سياق النكاية بالمشركين ، ومن يرى الحج فرضا على الرجال دون النساء بقوله تعالى : ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ [الحج:٢٧] ، ويرى وجوب إطعام القطط والكلاب من لحم الأضحية يوم العيد لقوله تعالى : ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ [الحج:٣٦] .

ومن التعالم في السنة تطاول أقوام مفلسين في صناعة الحديث على كتب السنة تحريفا وإغارتهم على السنن باسم النقد ، وهم لا يحفظون منها حرفا ، ولم يروحوا للدراية فيها عرفا ، تسارعوا إلى الحكم على السنن تصحيحا وتضعيفا ، وإثباتا ونفيا بلا إحاطة ، وتوهيما للراسخين فيها بلا مكنة ، فكانوا كلابس ثوبي زور .

وذلك شأن من يقتحم قُحما ليس من رجالها ، ويلبس ثياب الكبراء متعثرا بأذيالها ، شغلوا العلماء بسخفهم وشغبهم على التراث ، واستنزفوا جهودهم في التعقيب عليهم ، ولا غرابة فإن البغاث بأرضنا تستنسر ، تراهم يتكنون بألقاب العلماء ، كالمحدث ، والأثري ، وهي مراتب علمية لا تكون إلا لمن تمرس بالصناعة برهة من الزمن .

وقد بين السخاوي رسم المحدث الذي يستحق وظائف المدارس الحديثية ، ثم قال «وأما إذا كان على رأسه طيلسان ، وفي رجليه نبلان ، وصحب أميرا من أمراء الزمان ، أومن تحلى بلؤلؤ ومرجان ، أو بثياب ذات ألوان ، فحصل تدريس حديث بالإفك والبهتان ، وجعل نفسه لعبة للصبيان ، لا يفهم مايقرأ عليه من جزء ولاديوان ، فهذا لا يطلق عليه إسم محدث ، بل ولا إنسان ، وإنه مع الجهالة آكل

حرام ، فإن استحله خرج من دين الإسلام» [١] .

وهذا حال أغليمة من حملة شواهد فارغة من علوم الشريعة ، لا تحمل إلا الأسامي والرسوم ، تراهم اليوم يقهقهون على كراسي الجامعات بجهالات يتأكلون بها سحتا حراما ، ويركبون بها بيداء الكذب ، ثم ما يلبث يلحقهم الإدبار والانحدار .

تصدر المرء قبل الوقت يفضحه كما لا يسمى الحصرم العنب

ومن آثار هذا التجاسر على السنة النبوية ما نسمع به اليوم من لدن أهل الجرأة على السنة من زعماء المدرسة العقلانية المعاصرة ، ممن يودون مراجعة السنن ، وفق «مقاييس نقد المتون» عندهم ، بدعوى أن المحدثين صححوا الأحاديث وضعفوها بالنظر إلى الأسانيد فحسب ، وأن كثيرا من السنن فيها علل في المتون يعلل بها الفقهاء والمفكرون ، وإن كانت لا تجري على سنن وقواعد المحدثين ، وأنه لا يخلو من ذلك مصنف من كتب الصحاح والسنن ، فهو علم علل جديد يعلل به هؤلاء بعد أبي الحسن الدارقطني ، وابن القطان ، والذهبي؟! ألا رحم الله من عرف قدره وقعد دونه .

وقد تجاسر على ذلك من لم يشم لعلم الحديث رائحة ، منهم رجل عرفته متخصصا في علم الفلك والأرصاد ، ثم إذا به يدعي أن لديه عددا كبيرا من أحاديث البخاري ومسلم وكتب السنن مما صححه النقاد بها علل قادحة في المتن ، ينبغي أن تراجع وفق مقاييس النقد المعاصرة ، منها حديث الذباب ، وأحاديث قتل المرتد ، وحديث نزول المسيح ، وأحاديث خروج المهدي ، وحديث لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة ، ونحوها ، يجتر فيها الكذب القديم للزنادقة والمستشرقين ، مع ضحالة في المعرفة بقواعد هذا العلم ، وهذا محض جرأة وتطاول على حمى منيع سد

(١) فتح المغيث في شرح ألفية الحديث : ١/ ٤٥ .

المحدثون بابه ، ولم يدعوا فيه مغمزا لمتخرص .

كما ظهرت صحافية لبنانية تطاول المحدثين وتدعي فهما في نقد السنة ، ردت حديث «ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن» [١] . فقالت : «مش معقول عوض أن يخرج النبي ﷺ صاحب الذوق الرفيع و يقول للنساء كل سنة وأنتم طيبين ، يقول لهن : النساء ناقصات عقل ودين» ، وهذا تحريف للحديث ، واجتثاث له من سياقه ، ثم إن السنن لا ترد بالذوق والهوى!!

والعجيب أنك تجد مؤسسات تتصدى للتجديد في الفكر الإسلامي وأسلمة المعرفة ، تُعنى بترويج هذه المهازل ، وترصد أموالا لنشر مؤلفات ومقالات من مثل هذا الفكر الناشز ، فتنشر فكر أفراخ المعتزلة والقرآنيين من دعاة التحرر من قيود السنة ، الذين يخلطون الدين بأمشاج من الفكر الحداثي ، ويفلسفون أحكامه حسب أهوائهم ، وهم لايفقهون في الدين ماتفقه الصبيان في المكاتب .

فماذا أبقى هؤلاء من دعاوى المستشرقين البالية ؟!التي أفنى علماء السنة في هذا العصر أعمارهم في ردها ، كالشيخ أحمد شاكر ، والشيخ المعلمي اليماني ، والعلامة مصطفى السباعي رحمهم الله .

٢ـ التعالم في الفقه والفتوى :

وعلم الفقه مهيع وعر فسيح ، تسور حماه في هذا العصر خلائق من المتسارعين إلى ميادين الفتوى ، وتولجه منهم صنوف من عشاق الظهور ، من فقيه آخذ بالشواذ والقول المهجور ، وصاحب فقاهة بالهوى والتشهي ، ومهوس بالتقليد والتلفيق لا يدري ما الفقه ولا ما هنالك .

والفتوى كما قيل جمرة ونار تستعر ، لأنها باب التوقيع عن الله ، والحكم على

---

(١) أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد : ١٣٦٩، والبيهقي في السنن : ٦٠٦٤ ، ابن خزيمة في الصحيح ١٩١٥، ومسلم في الإيمان من حديث ابن عمر : ١١٤، وأحمد في المسند : ٥٠٩١ .

أفعال المكلفين ، اصطلى بنارها اليوم وتقحم حماها خلائق من هؤلاء ، فإن أصغيت سمعك لما يصدر اليوم ممن غرزوا أقدامهم في منازل التفيقه سمعت ماتشاء من فتاوى هندية ، وشواذ متهافتة ، عمادها الوقاحة والتجري لا التحري ، تُعنت الخلق ، وتُشجي الحلق ، وتحدث شروخا لا تندمل في الأمة إلا بعد حين .

يُرى صاحبها متجاسرا على هذا التراث ، متقولا على الله بغير علم ، يفتي بآراء بالية ، لا يدري كيف يستلها من مطاوي الكتب ، بل تراه يجيب قبل أن يسمع ، ويعترض قبل أن يفهم ، ويهذي بما يؤذي ، ويهرف في المعضلات بما لا يعرف ، في وقت أضيق من بياض الميم ، أو صدر اللئيم ، فيما لو عرض على عمر لجمع له أهل بدر كلهم .

والعجيب أنك تجدهم في صنيعهم هذا يتذرعون بدعوى الاجتهاد المقاصدي ، والفقه الحضاري ، وهي كلمات عائمة ، واصطلاحات يرسلونها بغير ضوابط ، ويسبحون بها في بحار ما وراء النصوص ، ليتشرعوا بروحها لابحروفها كما يدعون !!

فهذا أحمد حسن الباقوري يفتي الشباب المتغرب في بلاد الغرب بجواز استباحة زواج المتعة حالة خوف العنت ، أخذا بمذهب الإمامية ، لأنه مقاصديا أخف ضررا من الزنا ، ولأن مذهب الإمامية مذهب إسلامي يجوز الاختيار منه !!

وقد بنى رأيه على قول شاذ لمن يرى إمكان الرجوع إلى الحكم المنسوخ ، إذا عادت نفس أسباب تشريعه ، فلا يبقى معه حكم منسوخ في الشريعة أبدا إلا رجع الناس إليه بدعوى تشابه ظروف الحرج ، وهي دعوى من يرون أنه لا نسخ في الشريعة [1] .

وهذا منحى من لايفقه منازع الأدلة ، حيث استدلوا على هذا السخف بحديث

(١) انظر «مع القرآن» لمحمد الباقوري : ١٦٧، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور : ٥/ ١١.

عمران بن حصين في متعة الحج «أنزلت آية المتعة في كتاب الله ، ففعلناها مع رسول الله ﷺ ، ولم ينزل قرآن يحرمه ، ولم ينه عنها حتى مات ، فقال رجل برأيه ما شاء» [١] . يعني عمر ، والحديث ترجم له البخاري بقوله « باب من تمتع بالعمرة إلى الحج» فاستدل به الذين يهرفون بما لايعرفون على استباحة زواج المتعة في العصر الحديث ، وأقاموا على هذا الجهل والغثاء صرحا من اللغط والشغب .

وذاك يرى جواز زواج المسلمة من الكتابي ، لأنه لا نص ولا إجماع يحرمه حسب زعمه ، وقد دعت إليه الضرورة الحضارية ، وآخر لايرى بأسا بأن تغني النساء أمام الرجال ، وأن تمثل الفتاة المسلمة على خشبة المسرح أمام الشباب ، من باب الفن المقاصدي !!

ومن عجيب ما وقفت عليه من ذلك قول عبد الصابور شاهين في حوار مع زعماء الجماعة الإسلامية بمصر : «إن إعفاء اللحية كان من عادات العرب ، فإعفاؤها أوحلقها إنما هو من مهمة الحلاق ، والعجيب أننا لازلنا نشتغل بمهمة الحلاق» [٢] .

وهذا ضرب من الاستهزاء بسنن النبي ﷺ بمحض الهوى والتشهي ، وضرب الأمثال لها بمجرد الظن والتخرص ، فالإزراء بها من مقام سنن الفطرة الذي جاءت فيه أحاديث كثيرة بوجوب إعفائها إلى عدها من مهمة الحلاق نوع من العبث والتلاعب بأحكام الشريعة ، وهو أمر لايليق بعوام المسلمين ، فكيف بمن يدعي الفقه والعلم !

ومن أشهر هذه النوادر في فقه الشذوذ ما أفتى به الشيخ الزمزمي بالمغرب من جواز أن تغني المرأة وتمثل أمام الرجال ، إذا كانت بحجابها الشرعي ، وكان غناؤها

---

(١) أخرجه البخاري، باب من تمتع بالعمرة إلى الحج ٤٢٤٦، ومسلم في الحج : ١١٢٦.

(٢) عبد الصابور شاهين ندوة الحوار مع الحركات الإسلامية في مصر، برنامج للتلفزة المصرية ١٩٩٢.

سليما من الإثارة والرفث ، لحديث غناء الجاريتين بحضرة النبي ﷺ . زاعما أن تمثيل المرأة شبيه بمشيها وكلامها في الشارع أمام الرجال [١] .

وهذا من التعسف في لي أعناق النصوص ، فإن الجاريتين اللتين غنيتا كانتا حديثتي السن لم تبلغا الحلم ، لمن يفقه لغة العرب .

فحملهُ على غناء النساء البالغات أمام الرجال من لي المفاهيم وتحريف معاني لغة العرب ، وإلا فما معنى قول عائشة < : «رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَسْتُرُنِي بِرِدَائِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَى الْحَبَشَةِ يَلْعَبُونَ فِي الْمَسْجِدِ حَتَّى أَكُونَ أَنَا الَّتِي أَسْأَمُ ، فَاقْدُرُوا قَدْرَ الْجَارِيَةِ الْحَدِيثَةِ السِّنِّ الْحَرِيصَةِ عَلَى اللَّهْوِ» [٢] .

قال ابن منظور «والجارية الفتية من النساء ، بينة الجراية والجراء وقولهم كان ذلك أيام جرائها بالفتح ، أي صباها» [٣] .

وقال السيوطي : «الجارية في النساء كالغلام في الرجال ، يقعان على دون البلوغ» [٤] .

بل يرى بعض مشايخ الصحوة أن من الفن الراقي غناء فيروز وأم كلثوم ويقول : «لايمكن أن تهتاج غرائزنا ونحن نستمع لفيروز تغني «غنيت مكة أهلها الصيدا» أو تغني جبال لبنان أو تغني القدس ، أو إلى أم كلثوم في نهج البردة» ،

---

(١) وقد نشرت فتوى الشيخ الزمزمي في جواز غناء المرأة وتمثيلها أمام الرجال بجريدة الراية المغربية، عدد ٣٢٠ أكتوبر ١٩٩٨م وقد صنف في حكم الغناء كتابا مفردا سماه «القول المنصف في الغناء والمعازف» صار متكأ ومرجعا للمتوسعين في هذه المسألة، ملأه بحكايات واهية عن بعض السلف كان يروجها المتأدبون من المجان والمغنين كصاحب الأغاني، وقد رد عليه كثيرون وبينوا تهافت تلك الأدلة والحكايات.

(٢) البخاري في كتاب النكاح ٥٢٣٦.

(٣) لسان العرب لابن منظور : ١٤/ ١٤٣.

(٤) انظر التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور : ١٨/ ٨.

ويرى دخول غناء فيروز في الفن الإسلامي [١] .

ومن غرائب الزمزمي الأخيرة فتوى فضيحة لم تدبرها ، تجيز «جماع جثة من كانت في عصمته بعد وفاتها ، إذا كان الطرفان يربطهما عقد القران قبل الموت» [٢] . ليقحم الشيخ بذلك الفقه الإسلامي في ممارسة الجنس على الجثث ، ويجعل الدين مسخرة بين الخصوم من العلمانيين الذين صاروا يتهكمون عليه وعلى أمثاله من الغائبين عن هموم الإصلاح السياسي الذي انخرطت فيه كل شرائح المجتمع في حين غاب عنه العلماء ورضوا لأنفسهم مقاعد الخوالف !!

وهذا السخف لا علاقة له بالشرع ، لأن الوارد في السنة التعجيل بدفن الميت ، لما روى عن النبي ﷺ أنه قال : «**أسرعوا بالجنازة ، فإن تك صالحة فخير تقدمونها عليه ، وإن يكن سوى ذلك فشر تضعونه عن رقابكم**» [٣] .

لكن الأمر كما قال ربيعة الرأي : «استُفتى من لا علم له ، وظهر في الإسلام أمر عظيم ، قال : ولبعض من يفتي ها هنا أحق بالحبس من السراق» [٤] .

قال ابن القيم : «فكيف لو رأى ربيعة زماننا ، وإقدام من لا علم عنده على الفتيا ، وتوثبه عليها ، ومد باع التكلف إليها ، وتسلقه بالجهل ، والجرأة عليها ، مع قلة الخبرة وسوء السيرة ، وشؤم السريرة ، وهو بين أهل العلم منكر أو غريب ، فليس له في معرفة الكتاب والسنة وأثار السلف نصيب ، لا يبدي جوابا بإحسان ، وإن ساعد القدر فتواه لعلة ففتواه : كذلك يقول فلان :

---

(١) انظر حوارات قصي صالح راشد الغنوشي : ١٢٩ .سلسلة الحوار منشورات الفرقان البيضاء ١٩٩٣.

(٢) مجلة هيسبريس ٧ ماي ٢٠١١م .

(٣) أخرجه البخاري ١٢٣١ ومسلم حديث رقم ١٥٦٨ ، والنسائي ١٨٨٤ ، وغيرهم .

(٤) بدائع الفوائد ٣/ ٢٧٧.

يمـــدون للإفتـــاء باعـــا قـــصيرة وأكثـرهم عنـد الفتـاوي يكـذلك

ثم قال : «وقد أقام الله سبحانه لكل عالم ورئيس وفاضل من يظهر مماثلته ، ويرى الجهال وهم الأكثرون مساجلته ومشاكلته ، وأنه يجري معه في الميدان ، وأنهما عند المسابقة كفرسي رهان ، ولاسيما إذا طول الأردان ، وأرخى الذوائب الطويلة وراءه كذنب الأتان ، وهذر باللسان ، وخلا له الميدان الطويل من الفرسان :

فلـــو لـــبس الحـــمار ثيـــاب خـــز لقـــال النـــاس يالـــك مـــن حمـــار

وهذا الضرب إنما يستفتون بالشكل لا بالفضل ، وبالمناصب ، لا بالأهلية ، قد غرهم عكوف من لا علم عنده عليهم ، ومسارعة أجهل منهم إليهم ، تعج منهم الحقوق إلى الله عجيجا ، وتضج منهم الأحكام إلى من أنزلها ضجيجا ، فمن أقدم بالجرأة على ما ليس له بأهل من فتيا أو قضاء أو تدريس استحق اسم الذم ولم يحل قبول فتياه ولا قضائه »[1] .

ومن بين هؤلاء يظهر أهل شذوذ يجمعون النوادر والأقوال المهجورة ، ويخترعون فصوصا غريبة ، لا يطمع القاسطون بدس أعجب منها بين المسلمين ، ثم يدعون التمسك بالأصول :

وكـم مـن فقيـه خـابط في ضـلالته وحجتـه فيهـا الكتـاب المنـزل

كل ذلك باسم فتح باب الإجتهاد ، وتجديد الأحكام لأجل تغير الزمان ، والمكان والأحوال ، وهي كلمة حق تنزل في غيرمنازلها ، ويتولج بها إلى باطل العبث بالأحكام .

٣ . التعالم بالتطاول في أعراض العلماء :

وهذا مسلك خلق من المتهورين ، من اللُّسن الجهال ، الذين تقاعد بهم الزمان عن منازل العلماء الأعلام ، ولم يدركوا درك الخلان والأقران ، فتطاولوا بألسنهم

---

(١) إعلام الموقعين : ٤/ ٢٠٧.

يتلمظون بقرض أعراض العلماء ، ويتفاصحون بسخائم الجهل على حملة العلم ، ومن جهل شيئا عاداه .

تراهم لايفرقون بين قول وقائله ، لأنهم من آكلة اللحوم والأكباد ، لامن حملة العلم في الصدر والفؤاد ، ورثوا ما لايُورث ، فصار رأسمالهم الشتائم والسباب ، مما لا يرقى إلى أدب الحُطيئة ودِعبل السبَّاب ، حيث لايعرفون إلى مطايا الخير سبيلا .

يُمارس نفسا بين جنبيه كزَّة إذا هم بالمعروف قالت له مهلاً

ولم تكن الوقيعة في أعراض العلماء من سنن السلف وميراث النبوة ، فلا يجهلن أحد فيخلط الجرح والتعديل ، وكلام المحدثين في الرجال بسفاهات الجهال ، وشتائم ربات الحجال ، فأين الثرى من الثريا؟ بل كان العدل والإنصاف في الناس منهجا للمحدثين .

قال ابن حبان « ولسنا ممن يوهم الرعاع مالا يستحله ، ولا ممن يحيف بالقدح في إنسان وإن كان مخالفا لنا ، بل نعطي كل شيخ حظه مما كان فيه ، ونقول في كل إنسان ما كان يستحقه من العدالة والجرح» [1] .

وقد ظهر أكثر اللغط في هذا الباب من جهة سبايا المذاهب ، ممن لم يكن لهم كبير شأن ، كجفاة الحشوية الذين قرؤوا الحديث والحديثين ثم تطاولوا بالاعتراض على العلماء ، وتلك بلية جرأت الأخلاف على الأسلاف ، وشيخت الأحداث ، وهم بعد لم يبرحوا التراب .

فكم من جاهل مغمور ، أو متعصب مدحور ، إذا تحركت خسة نفسه للبروز والظهور ، ولغ في عرض عالم من علماء الإسلام ، وتأكَّل بلحمه ، ليُقال إني خصم فلان ، ومخالف له فاعرفوني ، والشُهرة شُهرتان ، شهرة في الخير ، وشهرة في الشر ، وهؤلاء لم يجدوا مطية للظهور إلا الثانية .

---

(١) الثقات لابن حبان : ٧/ ٦٤٦.

فقد قام على شيخ الإسلام ابن تيمية قوم أغمار لا يصلح الواحد منهم أن يكون شسعا لنعله ، وشغبوا عليه يجارون بذلك مخالفيه كالسبكي وابن حجر الهيتمي ، وابن جماعة . ولئن قبل النظار خلاف العلماء للعلماء ، فما بال تطاول السفهاء على العلماء إلا كما قال جرير :

وابنُ اللّبون إذا ما لزّ في قرنٍ لم يستطعْ صولةَ البزلِ القناعيسِ

ولم أر فيمن ذكروا في تواريخ الرجال من أهل الوقعية في علماء الملة ، من بلغ دركا هاويا من الخسة و الدناءة في التسافه على علماء الملة مثل مخلوق عجيب من متعصبة الحنفية ، خاصم الأحياء والأموات ، واشتغل بنبش القبور ، وجلد أصحابها بعد الموت .

إنه الشيخ « محمد زاهد الكوثري الحنفي» ، السباب الطعان ، الذي لم يدع أحدا من أئمة الإسلام تشتم منه رائحة المخالفة للحنفية ، أو الاعتراض على شيعته من الأشاعرة الصوفية إلا لعنه ، أو همزه وغمزه . فقد ثلب عرض مئتين وثمانين عالما من علماء الإسلام ، بجريرة الخصومة في الرأي والمذهب ، وكفر خلقا منهم ، ويكفيك أن تعلم أن من بين من طعن فيهم «سفيان الثوري ، والإمام مالك ، والشافعي ، والبخاري ، والخطيب البغدادي ، و الدار قطني ، والحافظ المزي ، والبرزالي ، وابن تيمية ، والذهبي ، وابن القيم ، وابن حجر» وخلائق ذكرهم عبد الرحمن المعلمي اليماني [1] .

وقد قذف الخطيب البغدادي ورماه بالعظائم في كتابه «تأنيب الخطيب على ما ساقه في ترجمة أبي حنيفة من الأكاذيب» واتهم الحافظ ابن حجر ~ بأنه كان يتتبع النساء في الطرقات ، ونحو ذلك من الإفك والبهتان الذي سل سخائمه على علماء

(١) راجع التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل لعبد الرحمن المعلمي اليماني .

الملة ، مما حمله عليه تعصبه الذميم ، وحقده على المخالفين [١] .

ومن التهم التي كالها لابن القيم في «تبديد الظلام المخيم على نونية ابن القيم» ، سخائم فجة وصفه فيها بأنه « ضال مضل ، زائغ ، وقح ، كذاب ، حشوي ، بليد ، غبي ، جاهل ، مهاتر ، خارجي ، تيس ، حمار ، ملعون ، من إخوان اليهود والنصارى ، لايزيد عنه في الخروج على الإسلام والمسلمين لا الزنادقة ولا الملاحدة ، ولا الطاعنون في الشريعة ، بلغ من الكفر مبلغا لا يجوز السكوت عليه» [٢] .

وكفى بها مصيبة أن يصير العلم والعلماء هزؤا بين أيدي هذا وأمثاله ، وما تزال المعرفة الإسلامية مرزأة بمتلصصة من هذا النوع ، تُشغل بشغب ألسنتها بال المخلصين ، وتُشوش على الخالين .

وقد كان من آخر ما تطاير من شرر جُرأة هؤلاء الأحداث المطاولين ، لنجوم السماء ، أن بعض حشوية الغلاة في المشرق من تلاميذ المدرسة الجامية بدعوا النووي و ابن حجر ، و طالب شيخهم «محمود حداد» بإحراق «فتح الباري» للحافظ ابن حجر و«شرح النووي علي مسلم » لأن صاحبيهما من الأشاعرة في العقيدة . فصدق في القوم قول المعري :

ذا وصف الطائي بالبخل مادرأ ... وعير قسا بالفهاهة باقل

وقال السها للشمس أنت ضئيلة ... وقال الدجى للصبح لونك حائل

وطاولت الأرض السماء سفاهة ... وفاخرت الشهب الحصى والجنادل

فيا موت زر إن الحياة ذميمة ... ويا نفس جدي إن دهرك هازل

وبالجملة فتلك آفات وغوائل رزئت بها المعرفة الإسلامية ، في وقت غفل كثير من المسلمين عن تشخيص ما بهم من أوجاع فكرية ، وتلهَّوا باستصلاح المعايش

---

(١) راجع بيان تلبيس المفتري محمد زاهد الكوثري، لأحمد بن الصديق : ٤٤ .

(٢) تحريف النصوص من مآخذ أهل الأهواء، الشيخ بكر أبو زيد : ١٠٤ .

والأبدان عن طب القلوب والأذهان . ولذلك أطلت النفس في هذا الباب ، لأنه تشخيص أدواء ، لمعرفة مكامن الخلل في الذات ، وذلك نصف الدواء .

وقد يلحظ القارئ المتتبع لهذا العلل أنها ظلمات حالكة عن واقع المعرفة الإسلامية ، بعضها فوق بعض ، إذا تلمس فيها بارقة أمل في هذه الأمة لم يكد يراها ، وليس الأمر كذلك . فالأمة لا تخلو من خير مدخر للمتقدم والمتأخر .

وإنما هي نفثة مصدور ، ورمية معذور ، لما يلاحظ ويرى من غلفة عن واجب الحال ، وكف ما ظهر في شعب المعرفة من غوائل غائلة ، أخطرها غفلة الناظرين في التراث عن سنن النقد والتمحيص ، وإمعان أهل البدع والأهواء في التحريف والدس في هذا التراث ، مع استئساد البغاث ، وتشبه السفهاء بالعلماء ، حيث أفسدوا على الأمة هذا المعين ، وأوضعوا خلال فكرها الغث والمهين ، وزاحموا به علوم الراسخين .

معالم المنهج الإسلامي في قراءة التراث :

المعالم في اللغة الحدود والعلامات التي يهتدي بها الناس في الطريق ، قال تعالى : ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل:١٦] ، قال ابن عباس «العلامات معالم الطرق بالنهار ، أي جعل للطرق علامات يقع الاهتداء بها» [(١)] . وقال الطبري : «حدود الله معالم فصول حلاله وحرامه ، وطاعته ومعصيته» [(٢)] . وتطلق المعالم ويراد بها الرسوم والأطلال الباقية التي تشهد على آثار حضارة أو بنيان ، كما قال الكلابي :

درست معالم دمنة بكباب وخلت من الأهلين والجناب [(٣)]

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ١٠/ ٩١ .

(٢) تفسير الطبري : ٢/ ٤٧٩ .

(٣) معجم البلدان لياقوت الحموي : ٤/ ٤٣٣ .

ويقصد بمعالم منهج قراءة التراث : «قواعد منهجية تعصم الناظر في المعرفة الإسلامية من الزلل في النظر والتلقي ، والتمحيص والنقد ، والقبول والرد في الخلاف ، حتى يسلم التأصيل والبناء في المعرفة الإسلامية» .

وهي قواعد ومعالم مستفادة من كليات القرآن الكريم ، وجوامع السنن ، وصنيع العلماء في الاستدلال وتأصيل العلوم الإسلامية ، ومعرفتها ضرورية للناظر في تراث المتقدمين ، وفكر المتأخرين .

وهي قواعد عامة تشد الفكر ، وتعصم النظر في دراسة التراث ، فيميز بها الضار من النافع ، ولا يسلم بكل ما أثر في مذاهب الماضين مما نسب إلى المعرفة أو أدخل عليها بالتعسف و التمحل .

وقد جمعتها من تتبع الأدلة المنهجية في القرآن والسنة ، وصنيع العلماء النقاد في فروع المعرفة ، لاسيما علماء التفسير والحديث من نقاد المذاهب والآثار ، وأئمة الأصول ، ممن ضربوا بسهم وافر في سداد الفكر وقويم النظر ، فهم خلاصة هذه الأمة وصفوة الخلف العدول الذين اتضح لهم المنهج ، وصفى لهم المشرب ، ولم تكدر معارفهم بدع و لا شبهات .

وأشهر ما يسر الله لي جمعه من ذلك من خلال تتبع آي القرآن ، وجوامع الكلم ، وصنيع الأئمة النقاد في قراءة التراث زهاء عشرين قاعدة ، وهي معالم في أبواب من المنهج لا تحيط بجميع فصوله ، وإنما تركز مجامع العلم ، وتوضح معاقد معرفة الصواب عند نقاد المعارف والآثار ، ويمكن تقسيمها إلى ثلاث شعب في منهج المعرفة الإسلامية ودراسة التراث .

على أن معرفة هذه القواعد لا تغني وحدها في تأصيل المعرفة ونخل التراث ، بل يحتاج ذلك إلى إحاطة بتفاصيل العلوم المنهجية وقواعدها ، ودراسة مواطن القصور والخلل التي تتنزل عليها هذه القواعد في قراءة التراث الإسلامي .

المبحث الأول

معالم وقواعد
في منهج النظر والتلقي

١ ـ تجريد التوحيد سبيل إسلامية المعرفة

٢ ـ الظن والهوى لا يغنيان في الحق شيئا .

٣ ـ كل الناس يؤخذ من كلامه ويرد إلا النبي ﷺ .

٤ ـ لا يصلح القول بصلاح صاحبه ولكن بدلالة الدليل عليه .

٥ ـ إن كنت ناقلا فالصحة ، أو مدعيا فالدليل .

٦ ـ إذا صح النقل شهد العقل .

٧ ـ إذا جاء النص بطل الفص .

٨ ـ العبرة في العلوم بكلام العلماء الراسخين .

٩ ـ لا يؤمر عالم بالتقليد ولا عامي بالاجتهاد .

١ ـ تجريد التوحيد سبيل إسلامية المعرفة

إن العلم في المنهج الإسلامي إدراك لسنن الله ونواميسه في الكون والشرع ، لا يخرج عن النظر في كتاب الله المشهود الذي هو العالم وما يمور فيه من الظواهر والكائنات ، أو النظر في كتابه المقروء ، الذي هو الوحي المنزل ، ومرد الأمرين في الأمر والتنزيل إلى العليم القدير .

ومن ثم تقرر عند الحكماء والعلماء أن المعارف والعلوم مصدرها من الله ، ومردها إليه ، الذي علم الإنسان ما لم يعلم ، كما قال تعالى : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمن:١ـ ٤] .

وبذلك ارتبط العلم بالتوحيد في المنهج الإسلامي ، ونبذ الخصومة التي قامت في نفوس الماديين بين العلم والدين ، حتى يسلم العقل وما يتولد عنه من معارف لله عقيدة ومنهاجا .

وهذا سبيل إسلامية المعرفة ، ورد العلوم إلى خالقها ، وإتيان القراءتين لكتاب الله المقروء ، وكتابه المشهود من أبوابها ، لأن الإنسان بغير تأييد إلهي لا يرقى إلى منزلة أدنى ضيغم ، بل يكون أضل من الأنعام ، كما قال تعالى : ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨] .

كما نبه القرآن إلى شد معاقد العلم إلى أصل التوحيد ، ورد المعارف والعلوم إلى بارئها ، قال تعالى : ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق:١ـ٥] .

ومبدأ ذلك إفراد الله بالوحدانية ، وإفراد النبي ﷺ بالاتباع ، فلا يرشد العلم ،

ولا يستقيم الفكر ، إلا بمطلق الخضوع لمقتضى الألوهية ، والاستنارة بنور الوحي ، ومنهاج النبوة ظاهرا وباطنا .

ومن ثم ضل الفلاسفة لما استغنوا عن نور النبوة ، واستعاضوا بأوهام الفلسفة اليونانية عن الاهتداء بمعالم الوحي وسنن الشريعة ، كما يظهر ذلك جليا في نظريات بارمنيدس ، وأرسطو ، أفلاطون ، في «بدء الخلق» .

قال الإمام الطحاوي : «ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام ، فمن رام علم ما حظر عنه علمه ، ولم يقنع بالتسليم فهمه ، حجبه مرامه عن خالص التوحيد ، وصافي المعرفة ، وصحيح الإيمان ، فيتذبذب بين الكفر والإيمان ، والتصديق والتكذيب ، والإقرار والإنكار ، موسوسا تائها شاكا ، لا مؤمنا مصدقا ، ولا جاحدا مكذبا» [1] .

وقد كشف القرآن الكريم عن حقائق وأسرار علمية من باب الإعجاز ، وإظهار الآيات للناس في الأنفس والآفاق ، بما يؤكد أن استغناء العقل عن نور الوحي ضرب من العبث ، وباب إلى الحيرة والشك .

و عرف هذا الأصل عند السلف بالفقه الأكبر إذ هو أول مراتب العلم وأشرف العلوم ، لأنه العلم بالله ، إذ شرف العلم بشرف المعلوم ، ويراد به تسليم زمام الخلق و الأمر لله ، بارئ المعارف والعلوم . ومفاد قاعدة إسلامية المعرفة توحيد غاية المعارف والعلوم وردها إلى أصول التوحيد ومنها :

توحيد الربوبية : ويراد به تسليم زمام الخلق و الأمر لله ، بارئ المعارف والعلوم ومعلمها للخلق ، منزل الكتاب المقروء ، ومسخر الكتاب المشهود ، ومدبر العوالم والأكوان بسنن وقوانين جارية بحكمته ، مصيرها ومردها إليه .

---

(١) العقيدة الطحاوية ، لأبي جعفر الطحاوي : ١٠ .

وتوحيد الألوهية : بأنه لا معبود بحق إلا الله ، فلا إنابة ولا مرجع في كل ذلك إلا إليه ، وهذه قاعدة جليلة في توحيد المرجعية ، وهدم كل أنواع الوسائط والمراجع التي تعلق بها أهل الأهواء والنحل ، كفلسفة الوجود المليئة بأساطير تحكم آلهة الخير والشر والنور والظلام في ظواهر الكون ، والمعارف والعلوم ، ومراجع الباطنية الذين يعتقدون العصمة في الرجال ، وأنهم يعلمون الغيب ، وما كان وما يكون إلى يوم القيامة .

ثم توحيد الحاكمية : وهو فرع عن توحيد الألوهية ، ويصح بتسليم زمام الأحكام إلى الله إبراما ونقضا في سياسة الدين والدنيا ، وبذلك تُهدر النظريات الأرضية التي استعبدت الخلائق في تاريخ البشرية باسم الدين ، من لدن فراعنة مستبدين ، أحلوا قوانين الأرض في سياسة الدول محل الشريعة .

قال تعالى : ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٤٠] .

فلا محل مع توحيد الحاكمية لسنن حكام الجور عبر العصور ، الذين ظلوا يسوغون جرائمهم في التاريخ ضد الأبرياء بعقيدة الجبر وقولهم : «إنما تجري أفعالنا على مقادير الله» ، وهي كلمة حق أريد بها باطل ، فإنهم لو أجروا أعمالهم على أحكام الله لكانت كذلك جارية على مقادير الله لاتخرج عنها ، لكن في الصلاح والعدل وعمارة الأرض ، لا في الفساد والظلم والاستبداد .

ومن ذلك تلبيس العلمانيين على الناس في كل زمان بأنه لا سياسة في الدين ، وأن التراث الإسلامي لا أثر فيه للفكر السياسي ، وتراهم يرددون مع قساوسة النصارى قولهم : «دع ما لله لله ، وما لقيصر لقيصر» ، ويرون أن الدين لا دخل له في شؤون الحياة العامة التي ينبغي أن تحكمنا فيها قوانين نابليون ، أو شريعة حمورابي ، أو فكر ماركس وإنجلز ، أو أي قانون آخر بشري جاهلي ، إلا شريعة الإسلام فلا

يرون لها محلا في الحكم .

وهذه مواقف جاهلية تعود اليوم لتعلن التمرد على الله من جديد ولا علاقة لها بالعلم أو الحكمة أو مصلحة البشرية كما يزعمون ، بل إنهم يعلمون عظمة هذا الدين ، وعدالة أحكامه ، وأثرها في سعادة الإنسانية لكن الظالمين بآيات الله يجحدون :

ثم توحيد الأسماء والصفات : وهو إثبات ما أثبته الله لنفسه ، وما وصفه به رسوله ﷺ ، من غير تكييف ، ولا تشبيه ، ولا تعطيل دون أن ندخل في شيء من ذلك بعقولنا متأولين ، أو مشبهين ، أو معطلين «فإنه لاشيء مثله ، ولاشيء يعجزه ، ولا إله غيره ، لا تبلغه الأوهام ، ولا تدركه الأفهام ، ولا يشبه الأنام ، حي لا يموت ، قيوم لا ينام وأنه على كل شيء قدير ، وكل شيء إليه فقير ، وكل أمر عليه يسير» [(١)] .

ثم توحيد الاتباع للنبي ﷺ ، لأن الله تعالى جعل العصمة في سنته ، وأناط السلامة باتباع محجته ، فيهدر كل ما عارض سنن الهدى ، من قول فقيه ، أو رأي متكلم ، أو حكمة فيلسوف ، أو نظرية عالم ، أو ذوق متصوف ، أو خيال شاعر ، أو نحو ذلك من نتاج أهل الأهواء ، لئلا يتخبط العقل في مراتع الهوى ، أو يتيه في مسارب الظن والتخمين ، و يجتهد في غير محال الاجتهاد ومراميه .

وبهذا الأصل يمكن أن نقرأ نظريات الفلاسفة والمفكرين التي حبلت بها بطون كتب التراث ، فنستبعد منها الغث الزائغ عن سنن التوحيد ، مما هو محض ظن وجهالة وتخمين ، ونجدد النظر في النافع منها مما يفيد الأمة ، كفلسفة العلوم ، ونظريات الأخلاق التي لا تصادم أحكام الشريعة .

---

(١) العقيدة الطحاوية : ٢٥ .

شبهة الانفصام بين العلم والدين في المعرفة الإسلامية

لقد حدثت خصومة تاريخية بين العلم والدين في الفلسفة اليونانية القديمة ، مع رواد الفلسفة المادية القائلين بقدم العالم ، ثم تجددت هذه الخصومة في أروبا ، إبان حكم الكنيسة ، وسيطرة الفكر الإقطاعي للنبلاء المستبدين ورجال الدين ، إذ كانت أوروبا يومئذ تعيش عصورا من الجهل والظلم ، وعقودا من التخلف تحت سلطة الفكر اللاهوت للكنيسة ، التي خاصمت العلم ، وآمنت بالخرافة وأساطير اللاهوت في تصور الوجود ونشأة الحضارة الإنسانية .

وقد ظل هذا الصراع محتدما بين العلم والدين ، وبين العلماء الكنيسة قرونا طويلة ، حيث ظلت تطارد المفكرين أينما كانوا ، وتطفئ نور العلم حيثما ظهر وانبجس ، وتقتل روح الإبداع في المفكرين والعلماء ، لئلا يتحرر الناس من سلطانها القديم ، مثلما حصل مع العالم الفزيائي الإيطالي «جاليليو» ت ١٦٤٢م مكتشف دوران الأرض حول الشمس .

فقد حاربته الكنيسة الكاثوليكية ، وقررت أن أفكاره تعارض الكتاب المقدس ، وذهب جاليليو إلى روما للدفاع عن نفسه وتمكن من الإفلات من العقاب ، وقد أرغمته الكنيسة على أن يقرر علانية أن الأرض لاتتحرك على الإطلاق وأنها ثابتة كما يقول علماء عصره لكنه لم يهتم بذلك وظل منفيا في منزله حتى وافته المنية عام ١٦٤٢م ، ودفن جثمانه في فلورانسا [١] .

ولم تتخلص أروبا من ظلمات الاستبداد الديني والسياسي الكنسي إلا بعد ظهور فكر «الأنوار» فى القرن السابع عشر والثامن عشر الميلادي على يد أعلام المفكرين

---

(١) دائرة المعارف الحرة : مادة جاليليو .

وفلاسفة الأنوار من «العلماء الموسوعيين» أمثال «جون لوك» و«ديفيد هيوم» و«نيوتن» فى إنجلترا ، و«فولتير» في فرنسا .

وقد قاد هؤلاء حملة لتحرير الحضارة الغربية من سلطة الكنسية والنزعةاللاهوتية وفكر الأساطير ، يرون فيها أن تقدم الإنسانية يقوم على أسس طبيعية تحت سلطان العقل والبحث العلمى المجرد ، ويروجون لعداء تاريخي بين العلم والدين في مواجهة الفكر اللاهوتي للكنسية ، مما أفضى في العصور المتأخرة إلى استقلال العلم عن الدين .

حيث نادى العلماء الموسوعيون بضرورة التخلص من قيود السماء لكي يتقدم العلم ، ودعا «فلاسفة الأنوار» كمونتسكيو ، وجان جاك رسو ، وديدرو رهبان الكنائس إلى التحرر من سلطانها حيث كانوا يقولون : «حطموا الأسوار ، وأطلقوا سراح الله» نكاية في رهبانية الكنيسة التي حاربت العلم وعطلت فقه نواميس الكون ، وحاربت العلماء وسامتهم سوء العذاب .

*****

دعوى تحرر الأمم وتقدم الحضارات بالتخلص من الدين

فقد ارتبط مفهوم التنوير والتقدم في أروبا المسيحية بالإلحاد والتصور المادي للحياة ، وأصبح يمثل تيارا جارفا في أروبا يقدس العقل ، ويعقد زواجا تقليديا وتلازما نشازا بين العبقرية والإلحاد ، واللائكية والعلم . ومع الغزو العسكري والثقافي الاستعماري انتقلت هذه الفكرة إلى البلاد الإسلامية ، وعششت بين المثقفين .

ومن ثم صار التيار العلماني في البلاد الإسلامية يروج لفكرة أن التقدم والرقي الحضاري مرتبط بالتخلص من الدين وقيود السماء ؛ لأن أروبا في زعمهم لم تتقدم إلا حين تخلصت من الدين ، الذي أورثها استبداد الحكام وطغيان الرهبان ، فكانت النهاية ما أثر عن فلاسفة الثورة الفرنسية من قولهم : «اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس» [١] .

وكذلك ما روج له دعاة الحداثة في البلاد الإسلامية كلطفي السيد ولويس عوض ، ومحمد أحمد خلف الله الذي قرر «أن البشرية قد بلغت سن الرشد بما سنته من قوانين في الأرض ، وأنه آن لها أن تتحرر من قيود النبوة ، التي كبلت العقول ، وحجرت على الأفكار كما زعم ، فلم تتحرر البشرية إلا حين انتهى عهد النبوات ، حيث قال «فلقد حرر الإسلام العقل البشري من سلطان النبوة ، من حيث إعلانه إنهاءها كلية ، وتخليص البشرية منها» [٢] .

مع أنه لا سبيل مع الاعتصام بالتوحيد إلى كفر العلوم أو إلحاد العلماء ، كما

---

(١) ممن روج لذلك في البلاد العربية بطرس البستاني وخليل اليازجي مؤسس الجامعة الامركية بلبنان.

(٢) الأسس القرآنية للتقدم ، محمد أحمد خلف الله : ٤٤ .

حصل عند أهل الملل والأهواء الزائغة عن الحق ، حيث تسربت مقاصد الشر ونزعات الإلحاد إلى العلوم الكونية والإنسانية ، فانحرف العلم إلى أمور أهلكت العباد وخربت البلاد إبان الحرب العالمية الأولى والثانية ، وما بعدها .

شقاء الحضارة المادية بفصل الدين عن الحياة

لما غاب ربط العلم بالتوحيد عند العلماء الماديين ، خرجوا في خدمة مصالح الحضارة الغربية إلى أجناس من الزيغ والانحراف في غايات المعرفة ونتائجها ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ [البقرة:٢٠٥] .

ومن ثم تسربت مقاصد الشر ونزعات الإلحاد إلى العلوم الكونية والإنسانية ، فانحرف العلم إلى أمور أهلكت العباد وخربت البلاد إبان الحرب العالمية الأولى والثانية .

ومن ذلك التفنن في اختراع أسلحة الدمار الشامل وخراب العمران ، والقضاء على أجناس المخلوقات ، مما أمر الله بحفظه ، حيث عمدت الدراسات الحديثية في الفيزياء إلى تطوير القنابل النووية ، وصنع الرؤوس المبيدة للشعوب ، والأسلحة الكيماوية الفتاكة المدمرة لعوالم الأرض من النوع الإنساني والحيواني والنباتي على حد سواء .

وقد انقلب ذلك العلو فسادا في الأرض على أصحابه اليوم ، بما ظهر من آثاره المدمرة التي صارت تهدد حياة الملايين من سكان الأرض ، والكارثة النووية التي حدثت من قبل في مفاعل «تشيرنوبل» في روسيا ، وتجدد حدوثها هذه الأيام في المفاعلات النووية باليابان .

مما يقتضي من حكماء العالم مراجعة مقاصد الدين في حفظ النوع البشري ، وتفعيل قوانين تحريم صناعة أسلحة الدمار الشامل في أصقاع المعمور ، بما يحفظ

العالم من هذا الشر المستطير .

كما ظهر نوع من الترف والعبث العلمي في عالم البيولوجيا وكيمياء الأحياء ، مما يعرف اليوم بالعبث البيولوجي ، الذي أصبح نوعا من التفنن في تغيير خلق الله ، وإحداث تشوهات في الأجنة ، عن طريق العبث بالصبغيات في النوع الإنساني والحيواني على وجه الخصوص ، وقد حذر القرآن من ذلك حيث قال تعالى : ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾ [النساء:١١٧ـ ١١٩] .

ومن ذلك ظاهرة الاستنساخ التي صار يتأله بها «الرائيليون» والعابثون من العلماء ، ويتمحلون بها مضاهاة خلق الله ، وهم كما قال الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج:٧٣] .

وكذلك ما وصل إليه علم الإجرام اليوم من استخدام برامج الرسم في الحاسب الآلي وتركيب الصور والأصوات ، وبرامج التجسس والكشف عن عورات الناس ، وتلفيق التهم للأبرياء ، وتركيب المشاهد الشنيعة ، والوقائع المكذوبة وإلصاقها بهم ، نكاية وإمعانا في التشهير بالمخالفين ، كما تفعل ذلك أنظمة السوء مع المعارضين السياسيين .

فهذا كله مما ينافي مقاصد الشريعة الإسلامية في إخضاع العلم لشرع الله ، ويهدر هذه المقاصد التي أمرت بحفظ النوع ، ونهت عن الفساد في الأرض ، وحرمت الظلم بين العباد . وهو سبيل العابثين المفسدين في الأرض من آل صهيون مثيري الفتن في العالم كما وصفهم القرآن : ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ﴾ [المائدة:٦٤] .

إذ حين يضل الإنسان عن أصل التوحيد ، ويتبع الهوى في المعارف والعلوم ، يشقى ويتأله في محاولة التحكم في هذه العلوم ، ويداخله الغرور في العبث بها وتحريفها عن مقاصد السنن الإلهية .

ولو أن المتكلمين والفلاسفة والحكماء جعلوا هذه القاعدة نصب أعينهم ، واستصبحوا بسراجها ، واستناروا بنورها لأراحوا الأمة من كثير من اللغو و اللغط الذي أثقل كاهل دارسي التراث الإسلامي ، وأفسد على الناس صفو عقيدة التوحيد ، في باب الإثبات والنفي ، والتفويض والتأويل ، والقضاء والقدر لكن لم يسعهم ما وسع السلف ، وظنوا أنهم عن عي أمسكوا ، وعن جهل سكتوا ، فتكلموا هُجرا ، ونطقوا كفرا ، زاعمين الدفاع عن العقيدة الإسلامية ، بالحجج والبراهين الكلامية ، فانتهوا إلى الحيرة والشك قبل الموت ، وكان أولى لهم أولاها ، و أن يعطوا القوس باريها .

فالأصل في علوم العلماء ، وحكمة الحكماء ، أن تكون تابعة لهذا الأصل ، حتى تنسجم علوم المفكرين ، ونظريات العلماء مع عقيدة التوحيد ، فتنتفع البشرية بهذا التناغم والانسجام ، وتستريح من وبال العقول المتمردة على الله ، التي أعقبتها بلاء في شتى مناحي الحياة .

*****

٢ـ الظن والهوى لايغنيان في العلم شيئا

لما كان بناء المعرفة الإسلامية على البرهان والاستدلال ، ذم المنهج الإسلامي سبيل أهل الأهواء في اتباع الظنون والأوهام والتخرص في الاستدلال ، كما قال تعالى : ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس:٣٦] .

فإن العقل كلما ابتعد عن هداية الوحي تخبط في ظلمات الظنون والأوهام ، وكان ما يفسد في النظر وخراب الفكر أكثر مما يصلح .

وكان من نتائج ذلك المسلك ما تسرب إلى المعرفة الإسلامية ، من علوم الأوائل ، من نظريات الزيغ والإلحاد ، كالفلسفة الإلهية التي عزلت العالم عن التدبير الإلهي ، وحكمت العقل الفعال في خلقه وتدبيره ، وقضت بحشر الأرواح دون الأجساد .

وهذا مما تبناه فلاسفة الإسلام كالفارابي وابن سينا وأبي حيان ، وغيرهم ، ومن ذلك «نظرية الفيض للفارابي ، ونظرية الحلول للحلاج ، ونظرية وحدة الوجود لابن عربي ، وعقيدة تناسخ الأرواح التي اعتقدها فلاسفة الهند ونسب القول بها إلى عمر الخيام ، وفلسفة إخوان الصفا ، وآراء الفلاسفة في قدم العالم ، وبعث الأرواح دون الأجساد ، و إقرارهم بأن الله لا يعلم الجزئيات» ، وهي مسائل كفر بها الفلاسفة كما قرر ذلك الغزالي في «تهافت الفلاسفة» وكما قال أبو العلاء المعري :

قال الطبيب والمنجم كلاهما ... لا تحشر الأجساد قلت إليكما

إن صح قولكما فما خسرت ... وإن صح قولي فالخسار عليكما

قال الذهبي : «والعلم الذي يحرم تعلمه ونشره علم الأوائل وإلهيَّات الفلاسفة ، وبعض رياضتهم بل أكثره ، وعلم السحر ، والسيمياء ، والكيمياء ، والشعبذة والحيل ، ونشر الأحاديث الموضوعة ، وكثير من القصص الباطلة أو المنكرة ، وسيرة البطَّال المختلقة ، ورسائل إخوان الصفا ، وشعر يعرِّض فيه إلى الجانب

النبوي ، فالعلوم الباطلة كثيرة جدًا فلتحذر ، ومن ابتلي بالنظر فيها للفرجة والمعرفة من الأذكياء ، فليقلل من ذلك ، وليطالعه وحده ، وليستغفر الله تعالى» [(١)] .

وذلك عين مسلك فرعون الذي تأله على الناس ، وأراد أن يتخذ صرحا في السموات لعله يطلع إلى إله موسى ، فكان من الهالكين .

وقارون الذي كان من أعلم علماء بني إسرائيل بالتوراة بعد موسى وهارون فاغتر وظن أنه قد استغنى عن الله ، فلما جحد النعمة وأسند العلم إلى نفسه قصمه الله وخسف به الأرض ، كما قال تعالى : ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ﴾

[القصص:٧٦ـ٧٨]

فالظن والهوى لا محل له في أصول المنهج الإسلامي في المعرفة ، لأن ما بُني على باطل وعلى شفا جرف هار فهو باطل .

قال العماد الأصبهاني : «ومثل العلوم والبرهان كمثل المصباح والأدهان ، الحجة للأحكام ، كالعماد للخيام ، إعصار الظن كدر كعصارة الدن ، الزم اليقين تكن من المتقين ، فشواظ الوهم يشوي حمامة القلب شيا : ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم:٢٨]» [(٢)] .

فالحكم بالظن والهوى مسالك خيالية لا تنضبط برسم عند العقلاء ، ومن ثم كانت أحكام أصحاب الهواجس والخيالات من الفلاسفة والمتصوفة كسراب بقيعة لا شيء فيه ، ومزن خلاب لا ماء فيه .

---

(١) سير أعلام النبلاء : (١٠/ ٦٠٤).

(٢) قواعد التحديث ، للقاسمي : ٣٦٧.

٣ ـ كل الناس يؤخذ من كلامه ويرد إلا النبي ﷺ

اعلم وفقنا الله وإياك أن الله لم يجعل العصمة في كلام أحد الناس إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فقد أيدهم الله بالوحي وعصمهم بتوفيق من عنده ، ولم يجعل ذلك لأحد من الناس بعدهم ، وإن ادعت ذلك الشيعة والصوفية في شيوخها بالتعسف والتمحل .

وقد ذم القرآن الذين اتخذوا كبراءهم وأحبارهم أربابا رفعوهم إلى مقام العصمة وتشرعوا بكلامهم ، كما قال تعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣١] .

ومن ثم فالمنهج الإسلامي لا يُسلم بالعصمة لكلام أحد دون الله ورسوله ، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ، ولذلك أثر عن الإمام مالك ﷺ أنه كان يقول : «ما منا إلا راد ومردود عليه إلا رسول الله ﷺ » [(١)] .

وقد هلك في العلماء طائفتان ، قوم من الغلاة ، وآخرون من الجفاة ، أما الغلاة فأمعنهم ضلالا غلاة الشيعة والمتصوفة الذين اتخذوا أحبارا ورهبانا يتشرعون بكلامهم ، ويعتقدون العصمة فيهم .

وأما الجفاة فقوم من الظاهرية الجدد ودعاة اللامذهبية الذين اطَّرحوا كلام الأئمة جملة وتفصيلا ، وأزروا بأقدارهم ، بدعوى اتباع نصوص الشريعة ، فلم يرو لهم فضيلة سبق يُستأنس بها في فهم الدين ، و الأصل أن العصمة لا تثبت لأحد من

---

(١) وأثر ذلك عن أبي حنيفة و الشافعي ، جامع بيان العلم و فضله : ٢/ ٣٢ .

الناس دون النبي ﷺ، أما العلماء فيستأنس بآرائهم، ويؤخذ من أقوالهم ويُترك.

قال أحمد زروق المالكي ت ٨٩٩ هـ: «العلماء مصدقون فيما ينقلون، لأنه موكول لأمانتهم، مبحوث معهم فيما يقولون، لأنه نتيجة عقولهم، والعصمة غير ثابتة لهم، فلزم البصر طلبا للحق والتحقيق، لا اعتراضا على القائل والناقل، ثم إن أتى المتأخر بما لم يُسبق إليه، فهو على رتبته، ولا يلزمه القدح في المتقدم، ولا إساءة الأدب معه، لأن ما ثبت من عدالة المتقدم قاض برجوعه للحق عند بيانه لو سمعه»[١].

فليس لأحد من المسلمين أن يعتقد العصمة في كلام أحد من الناس، ويرفعه عن مقام النقد والاعتراض، وقد ادعى ذلك بعض غلاة المتصوفة لمشايخهم، فزعموا أنه يثبت للأولياء من الخصائص ما ثبت للأنبياء، وأن الولي مع مريديه كالنبي ﷺ في أصحابه، يجب له من التوقير والتقديس ما وجب للأول، قال ابن قضيب البان عبد القادر الحلبي: «كل ما خُصَّت به الأنبياء خُصَّت به الأولياء»[٢].

و ذهب إلى ذلك بعض شيوخ الوقت ممن لبس مسوح التصوف وتدثر بدثار الحركة الإسلامية بالمغرب، وصار يدعو إلى معرفة الحق بالرجال فزعم أن الإمام الغزالي لما كان عالما صالحا في دينه، عدلا في سيرته، نخل علوم الأولين والآخرين، فوجب أن نسلم بما انتهى إليه، من أنه طلب الحق في مذاهب الماضين، فلم يجد الحق إلا عند الصوفية، وما نحن أمامه إلا كبغاث طير أمام نسور قشاعم[٣].

ومآل ذلك الاعتقاد بأن كل ما قرره الغزالي وحشره في مصنفاته ينبغي المصير إليه، مع ما عُلم من زلاته ومزالقه في إحياء علوم الدين، ومكاشفة القلوب، ومعيار العلم، والمنقذ من الضلال، وغيرها.

---

(١) قواعد التصوف، لأحمد زروق المالكي: ٣١ القاعدة ٣٨.

(٢) التصوف المنشأ والمصادر، إحسان إلهي ظهير ١٦٢.

(٣) راجع الإحسان الرجال: لعبد السلام ياسين: ٥٦ ومابعدها.

وقد حذر الذهبي من اتباع هذا المسلك ، والاغترار بشبه الصالحين حيث قال : «فالحذر الحذر من هذه الكتب ، واهربوا بدينكم من شُبه الأوائل ، وإلا وقعتم في الحيرة ، فمن رام النجاة والفوز ، فليلزم العبودية ، وليدمن الاستعانة بالله ، وليبتهل إلى مولاه في الثبات على الإسلام ، وأن يُتوفى على إيمان الصحابة ، وسادة التابعين» [١] .

كما زعم صاحبنا أن السيوطي بلغ من العلم شأنا عليا ، وادعى بلوغ درجة الاجتهاد المطلق ، وتبحر في سبعة علوم ، فأين منه من يلهو بجدل الرجال من صغار طلبة العلم ، فوجب التسليم لما آل إليه في مصنفاته [٢] .

وقد عُلم أن السيوطي وقعت له زلات ، فقد صنف رسالة في جواز رؤية الأنبياء والملائكة يقظة لا مناما ، وتطور أحوال الأولياء ، ومشروعية لبس الخرقة ، ووجوب اتخاذ شيخ في التصوف ، وجواز الذكر جماعة ، ولم ير بأسا بالرقص حال الوجد عند السماع ، كما لم ير بأسا في الانتساب إلى الطرق الصوفية ، كما فعل في آخر عمره حيث صنف «تأييد الحقيقة العلية بتشييد الطريقة الشاذلية» [٣] .

فوجب في زعم هؤلاء اتباع كل قائل ، والتسليم لكل دعي اشتهر بصلاح ظاهر ، دون نظر أو تحقيق رأي في عقيدة أومذهب ؛ لأن السلامة عندهم في التسليم للرجال ، وترك الاعتراض على المشايخ .

ولو أنصفوا لعلموا أن الحق يُعرف بالأدلة لا بالرجال ، وأن العلماء بشر يخطئون ويصيبون ، وأن لكل عالم كبوة ، والسعيد منهم من عدت غلطاته ، واشتدت سقطاته ، فهي الدنيا لا يكمُل فيها شيء ولا يخلو مُصَنَّف من نشر وطي ، قال ابن

---

(١) «سير أعلام النبلاء» ١٩/ ٣٢٨ – ٣٢٩.

(٢) انظر هذه الدعاوى في كتاب الإحسان، لعبد السلام ياسين .

(٣) قد حشر ذلك في كتابه «الحاوي للفتاوي» الذي جمع فيه عجائب، إلى جانب مسائل أجاد فيها وأفاد ، وعجيب أن يتخذه بعض العوام مصدرا للفتوى والدعوة يلبسون به على الأغمار .

رجب الحنبلي : «أبى الله العصمة لكتاب غير كتابه ، والمنصف من أغتفر قليل خطأ المرء في كثير صوابه» [١] .

وقد تفشى هذا الداء في المتأخرين ، فأنشأ أوجاعا في الفكر والسلوك ، وفرق المسلمين أحزابا وشيعا ، لكثرة الرؤوس الجهال الذين استعبدوا الأتباع والمريدين ، فداروا معهم حيث داروا .

قال الإمام ابن القيم : «تالله إنَّها فتنةٌ عمَّت فأعْمَت ، ورمَت القلوب فأصمَّت ، ربَا عليها الصغير وهرم فيها الكبير ، واتُّخِذ لأجلها القرآنُ مهجورًا ، وكان ذلك بقضاء الله وقدره في الكتاب مسطورًا ، ولما عمَّت بها البليَّة ، وعظمت بسببها الرزيَّة بحيث لا يعرف أكثر الناس سواها ، ولا يعدُّون العلم إلاَّ إياها ، فطالِبُ الحقِّ من مَظانِّه لدَيْهم مفتون ، ومُؤْثِره على ما سواه عندهم مغبون ، نصَبوا لمن خالفهم في طريقتهم الحبائل ، وبَغوا له الغوائل ، ورمَوْه عن قوس الجهل والبغي والعناد ، وقالوا لإخوانهم : إنا نخاف أن يبدِّل دينكم أو أن يُظْهِر في الأرض الفساد!» [٢] .

وهذا التقديس قد بلغ مداه وجاوز حد العمى وعبادة آراء الرجال عند الشيعة المعاصرين ، حتى أعماهم عن إبصار الحق ، فرفعوا كلام أئمة الشيعة كالخميني إلى مقام لم يروا فيه إلا أنه زعيم الثورة الإيرانية ، ومؤسس الجمهورية الإسلامية ، فلا يسأل عما يفعل أو يقول ، ولا عليه أن يشتم الصحابة ، ويتهمهم بتحريف القرآن ، ويُفسد عقيدة المسلمين .

حيث يقول الخميني : «إننا هنا لا شأن لنا بالشيخين وما قاما به من مخالفات للقرآن ، ومن تلاعب بأحكام ، وما حللاه وما حرماه من عندهما وما مارساه من ظلم ضد فاطمة ابنة النبي ﷺ وضد أولاده ، ولكننا نشير إلى جهلهما بأحكام الإله

(١) القواعد الفقهية لابن رجب الحنبلي : ٢ .

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين : ١/ ٨ .

والـدين ، إن مثـل هـؤلاء الأفـراد الجهـال الحمقـى ، الأفـاكون والجـائرون ، غـير جديرين بأن يكونوا في موضع الإمامة ، وأن يكونوا ضمن أولي الأمر» [١] .

وقـد مـلأ هـذا الرجـل الـدنيا ضـجيجا وعجيجـا ، بأنـه جـاء لاستئصال الظلـم والاستبداد ، وأزاح بثورته الإيرانية طاغوتا أمريكيا باسم السياسة ، ثـم قعـد مكانـه ليصنع من نفسه طاغوتا فارسيا باسم الدين .

*****

(١) كشف الأسرار ، للخميني :١٠٧-١٠٨ .

٤ ـ لايصلح القول بصلاح صاحبه ولكن بدلالة الدليل عليه

وهذه قاعدة ذهبية في الحكم على آراء الرجال ، فقد انخدع كثير من الناظرين في أقوال الرجال و مؤلفاتهم بما روي في سيرهم من تقشف وعبادة وزهد وصلاح ، وجعلوا ذلك مناط السداد في أقوالهم ومناهجهم ، وأفعالهم ، فحُجبوا عن رؤية الحق ، كما قال الشافعي :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط المساوئا

والحق أن صلاح العالم شيء ، وصواب أقواله ومنهجه شيء آخر ، إذ لا يتلازمان في الغالب ، فقد وجد من صالحي هذه الأمة وعبادهم من لا يؤخذ عنهم العلم حتى كان ربيعة الرأي يقول : «إن من إخواننا من نرجو بركة دعائه ولو شهد عندنا بشهادته ما قبلناها» [(١)] ، وقد بوب الخطيب لذلك بقوله : «باب ترك الاحتجاج بمن لم يكن من أهل الضبط والدراية وإن عرف بالصلاح والعبادة» [(٢)] .

بل قد يجتمع في المرء صلاح الزهد والعبادة في الظاهر وفساد الفكر والمنهج في الباطن ، فلا يكون أهلا للقدوة والاتباع ، فإذا انضم إلى ذلك سوء النية وفساد المعتقد ، فيا محنة الدين والشريعة !! وكم دخل على الإسلام من البلاء ، من جهة من نسبوا إلى العبادة والصلاح ، مع فساد المنهج كما قال تعالى : ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٣، ١٠٤] .

وكان أولهم الخوارج ، الذين غلب عليهم الزهد والعبادة ، وكان حب الجهاد والموت تحت ظلال السيوف أسمى أمانيهم ، وقد دخل عليهم ابن عباس رضي الله عنه

---

(١) الآداب الشرعية لابن مفلح : ٢/ ٢٣٥.

(٢) الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي : ١/ ١٥٨.

ليناظرهم ، فرآهم قد انتقعت ألوانهم ، وتقرحت جباههم وركبهم دملا من كثرة السجود ، ومع ذلك كانوا أمة من المارقين دخل من جهتهم على الإسلام وتراثه بلاء خطير ، في فتنة التكفير والحكم بالظواهر والرسوم ، وسوء الفهم للنصوص .

وقد صح فيهم حديث شداد بن عبد الله ، قال سمعت أبا أمامة ﷺ وهو واقف على رؤوس الحرورية على باب حمص يقول : «كلاب النار ، كلاب النار ، شر قتلى تحت ظل السماء ، خير قتيل من قتلوه ، ودمعت عيناه ، فقال رجل : أرأيت قولك هؤلاء كلاب النار ، أشيء سمعته من رسول الله ﷺ أو من رأيك ، قال إني إذا لجريء ، لو لم أسمعه من رسول الله» [1] .

ولا يخفى ما ألحقوه بالأمة من البلاء ، من استشراء الغلو في الدين ، بتكفير الصحابة ، واستحلال دماء المسلمين وأموالهم ، ونسائهم وذراريهم ، وقد ظلوا شوكة سوء خلال سنين طويلة من تاريخ الأمة .

ثم عباد المعتزلة الذين عرفوا بالزهد والصلاح ، وكانوا على جانب خطير من البدعة المسيئة لعقيدة الأمة ، ومنهم واصل بن عطاء الغزال ، وعمرو بن عبيد ، الذي كان يدعى راهب المعتزلة ، لكثرة صيامه وقيامه ، ومع ذلك كان ضالا مضلا في العقيدة والمنهج .

قال الذهبي : «عمرو بن عبيد المعتزلي القدري مع زهده وتأهله ، قال ابن حبان : كان من أهل الورع والعبادة ، إلى أن أحدث ، واعتزل مجلس الحسن هو وجماعة معه

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير ٣٠٠٠، وقال حديث حسن، وأحمد في المسند ١٨٩٢٣، ٢١٧٠٥ ، وابن ماجة في المقدمة : ١٧٣ ، وفي رواية لأحمد « ثُمَّ إِنَّهُ بَكَى ثُمَّ انْصَرَفَ عَنْهُمْ فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ يَا أَبَا أُمَامَةَ أَرَأَيْتَ هَذَا الْحَدِيثَ حَيْثُ قُلْتَ كِلَابُ النَّارِ شَيْءٌ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَوْ شَيْءٌ تَقُولُهُ بِرَأْيِكَ قَالَ : سُبْحَانَ اللهِ إِنِّي إِذًا لَجَرِيءٌ لَوْ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ حَتَّى ذَكَرَ سَبْعًا لَخِلْتُ أَنْ لَا أَذْكُرَه» .

فسموا بالمعتزلة ، قال : وكان يشتم الصحابة ويكذب في الحديث وهما لا تعمدا ، وقال الفلاس سمعت يحيى يقول : قلت لعمرو بن عبيد : حديث الحسن عن سمرة في السكتتين فقال ما تصنع بسمرة ؟ قبح الله سمرة »[١] .

وقد طعن في عدالة الصحابة وقال : «لو شهد عندي طلحة والزبير وعثمان على شراك نعل ما أجزت شهادتهم »[٢] .

ثم تلاهم متنسكة الصوفية ممن غلب عليهم العبادة والقشف ، وتفننوا في أجناس بدع الرهبانية في تعذيب النفس والتبتل والسياحة في الأرض مما يراه الناس صلاحا ، ومع ذلك كانوا شرار الخلق في الكذب على النبي ﷺ ، والدس في سنته ، حتى اشتهر بين المحدثين قول أبي عبد الله بن منده : « إذا رأيت في حديث حدثنا فلان الزاهد فاغسل يديك منه »[٣] .

ولذلك قال السيوطي عند ذكر أصناف الوضاعين :

وشرهم صوفية قد وضعوا محتسبين الأجر فيما يدعوا

فقبلت منهم ركونا لهمو حتى أبانها ألوا همم همو[٤]

وقد راجت أكاذيبهم على خلق من العوام ، لما رأوا من صلاحهم وعبادتهم ومن أراد معرفة حال القوم بجلاء فليقرأ سير خلق من الزهاد والصوفية :

كغلام خليل الصوفي الزاهد الذي جمع كل شيء إلا الصدق ، وكان مع زهده يضع الأخبار فعن أبي عبد الله النهاوندي قال : «قلت لغلام خليل : ما هذه الرقائق التي تحدث بها قال : وضعناها لنرقق بها قلوب العامة»[٥] .

---

(١) ميزان الإعتدال للذهبي : ٣/ ٢٧٤.

(٢) ميزان الإعتدال للذهبي : ٣/ ٢٧٥ ، و انظر في بيان ضلالاته كتاب الفرق بين الفرق : ١٢٠.

(٣) شرح علل الترمذي لابن رجب الحنبلي : ٨٧.

(٤) ألفية الحديث ، للسيوطي : ٦٤.

(٥) ميزان الاعتدال : ١/ ١٤١.

وكان يقول «رأيت الناس اشتغلوا بفقه أبي حنيفة ومغازي ابن إسحاق فوضعت هذه الأحاديث لأرقق بها قلوب الناس» [١] . وقد رماه أبو داود بالكذب وقال : «أخشى أن يكون دجال بغداد» [٢] .

وعبد الله بن محرر العامري الزاهد ، من أهل الرقة كان مع زهده وصلاحه يكذب في الحديث ، فكان ابن المبارك يقول : «لو خُيرت بين أن أدخل الجنة ، وبين أن ألقى عبد الله بن محرر ، لاخترت أن ألقاه ثم أدخل الجنة فلما رأيته كانت بعرة أحب إلي منه» [٣] .

ثم ميسرة بن عبد ربه الزاهد ، واضع أحاديث قزوين ، قال السيوطي : «الخطبة الأخيرة عن أبي هريرة وابن عباس بطولها موضوعة اتهم بوضعها ميسرة بن عبد ربه لا بورك فيه من ثم ربه» [٤] .

ومنهم صالح المري البصري الزاهد ت ١٧٣ هـ ، كان أحد العباد الزهاد قال عفان بن مسلم : « كنا نأتي مجلس صالح المري نحضره وهو يقص ، وكان إذا أخذ في قصصه كأنه رجل مذعور يفزعك أمره من حزنه وكثرة بكائه كأنه ثكلى» [٥] . ومع ذلك فهو متروك الحديث ، تركه ابن معين والدارقطني ، وقال البخاري : منكر الحديث [٦] .

وخلائق آخرين من أمثال سلمة بن وهرام ، وكثير بن عبد الله المزني ، وأبان بن

---

(١) مقدمة ابن الصلاح : ١٩ .

(٢) لسان الميزان : ١/ ٢٧٢.

(٣) مقدمة صحيح مسلم :١/ ٢٦ ، ميزان الاعتدال :٢/ ٥٠٠.

(٤) كشف الخفاء ومزيل الألباس للعجلوني : ٢/ ٥٥٢.

(٥) وفيات الأعيان لابن خلكان : ٢/ ٤٩٥ .

(٦) انظر تاريخ بغداد ٩/ ٣٠٥ وميزان الاعتدال ٢ / ٢٨٩.

تغلب ، وذي النون المصري ، والحارث بن أسد المحاسبي [١] فأكثر هؤلاء كانوا زهادا صالحين ، ومن جهتهم دخل شر كثير على السنة والعقيدة ، قال ابن رجب «ذكر الترمذي أنه رب رجل صالح مجتهد في العبادة ، ولا يقيم الشهادة ولا يحفظها ، وكذلك الحديث لسوء حفظه ، وكثرة غفلته» [٢] .

وقد سئل يحيى بن سعيد الأنصاري عن مالك بن دينار ، ومحمد بن واسع ، وحسان بن أبي سنان ، فقال : «ما رأيت الصالحين في شيء أكذب منهم في الحديث ، لأنهم يكتبون عن كل من يلقون ، لا تمييز لهم فيه » [٣] .

وشبيه بالمغترين بحال هؤلاء قوم من المعاصرين ، ممن انخدعوا ببعض أصحاب الزعامات الفكرية والسياسية في العالم الإسلامي ، فتراهم يرفعونهم في الأخذ والتلقي إلى أعلى عليين ، ويتخذونهم وسائط في معرفة الحق ، لمجرد انتسابهم إلى صف الدعاة والقائمين على ترشيد الصحوة ، أو لإحرازهم نصيبا من العلم ، أو حظا من العبادة والصلاح سواء كانوا على سنة أو بدعة ، أو لجرأة في موقف ضد الحكام ، جر على صاحبه محنة وبلاء ، مما يشترك فيه أهل الحق وأهل الباطل ، ولا يبنى عليه اعتقاد صلاح أو سلامة عقيدة .

فيتخذ الأتباع هذه الصفات والأحوال دليلا في معرفة الحق واتباع الرجال . والأصل أن كل ذلك في واد ، والصواب في واد آخر .

فإن الحق يعرف بالأدلة لا بالرجال ، والصلاح والزعامات ، والمحن ، والسجون ، والبلايا ، كل ذلك لا عبرة به في مدارك الصواب .

قال أبو حامد الغزالي : «فاعلم أن من عرف الحق بالرجال حار في متاهات

---

(١) راجع تراجع هؤلاء في ميزان الاعتدال ، وسير أعلام النبلاء للذهبي.

(٢) شرح علل الترمذي : ٨٦.

(٣) شرح علل الترمذي : ٨٧.

الضلال ، فاعرف الحق تعرف أهله إن كنت سالكاً طريق الحق ، وإن قنعت بالتقليد والنظر إلى ما اشتهر من درجات الفضل بين الناس فلا تغفل عن الصحابة وعلو منصبهم ، فقد أجمع الذين عرضت بذكرهم على تقدمهم وأنهم لا يدرك في الدين شأوهم ولا يشق غبارهم» [(١)] .

وقد جر هذا الخبط على المعرفة الإسلامية قديما وحديثا بلايا ورزايا ، في المنهج والفكر والعقيدة ، رزح الفكر الإسلامي بسببها تحت تأثير آراء الرجال ، ووسائط الزعامات الفكرية والروحية والسياسية في العالم الإسلامي ، وتقلص بإزائه ظل الاتباع لأدلة الشريعة .

فلئن جئت المريد المقلد لشيخ أو مفكر أو زعيم أو حركة ، بكل آية وحديث ، أو دليل من المعقول والأصول على فساد رأي يعتقده ، أو صواب قول ينكره ، ما تبع قبلتك ؛ لأن قبلته الشيخ والمؤلف والجماعة ،

فلو قلت إن المفكر فلانا أو الزعيم علانا ذكر ذلك في كتاب طار بذلك فرحا ، واعتبره الرأي القويم الذي لا يرام والحق الذي لا يضام ، وذلك منتهى العمى والتعصب ، يمنعهم من الرجوع إلى الحق الاعتقاد في المذاهب والرجال ، واتباع الأهواء وأصحاب المقالات .

وقد أوجب غياب هذا الأصل كثرة التشرذم والتفرق في الأمة ، بسبب أهواء وعصبيات باردة ، لا تحب الإذعان للحق ، ويعز عليها ذهاب حظوظ النفس في التكاثر والاستعلاء .

قال ابن قتيبة ~ : «والناس أسراب طير يتبع بعضها بعضا ، ولو ظهر لهم من يدعي النبوة مع معرفتهم بأن رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء ، أو من يدعي الربوبية ،

---

(١) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي : ١/ ٢٣ .

لوجد على ذلك أتباعا وأشياعا »[١] .

وهذا الذي أورث المسلمين التخلف والتقهقر وذل التبعية للعباد ، وأنشأ فيهم أمة غوغائية يجمعها الطبل ، وتفرقها العصا ، لا تقدر على شيء ، بل ترضى بالتسليم لكل دعي ، وتسلس زمام التقليد لكل ناعق ، كما قال منذر بن سعيد البلوطي :

انعق بما شئت تجد أنصارا وارم أسفارا تجد حمارا

والمتشبع بما ليس عنده شقي فقير ، وداء العصبية للرجال مرض وبيل ، هو أخو الجهل وقرينه ، وتابعه وخديمه ، فحيثما لمحت تعصبافاعلم أن الجهل من ورائه قد توطن الرباع ، وبلغ من المقلدة مكامن النخاع .

*****

(١) تأويل مختلف الحديث، لابن قتيبة : ١/ ١٤ .

٥ ـ إن كنت ناقلا فالصحة أومدعيا فالدليل

إن المنهج الإسلامي في تأصيل المعرفة منهج دليل وبرهان ، ينبني على صحيح الأثر ، أو قوي النظر ، ولايعتد بما سوى ذلك من الظنون والأوهام ، كما قرر ذلك القرآن والسنة ، حيث قال سبحانه : ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة:١١١] ، كما حذر الشرع من اتباع الظن ، فعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قَالَ : «**إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ**» (١) .

ومن المعلوم أن ما دخل على المعرفة الإسلامية من التحريف كان من جهة الكذب والوضع في الأثر ، أوالشبه والأهواء في الرأي والنظر ؛ ولا سبيل إلى نخل التراث الإسلامي إلا باشتراط صحة النقل في رواية الأثر ، وقوة الدليل والبرهان في الرأي والنظر .

فإن علوم الإسلام علوم حجة وبرهان ، ولو يُعطى الناس بما يدعون لادعى الخليُّ حُرقة الشجِيِّ ، ولو قبلنا كل شيء دون اشتراط صحة إسناد ، أو قوة برهان ، لفشت في هذه الأمة آثار الكذابين ، وأساطير الأولين ، ولعلت رؤوس أهل الأهواء ، واستشرى ضلالهم في كل ناد . قال ابن المبارك «الإسناد من الدين ، ولولا الإسناد لقال من شاء » (٢) ، وقد عاش لهذا الأمر علماء الحديث والأصول ، الذين نخلوا المعرفة الإسلامية بمختلف شعبها من الغث ، في الفهوم والآثار ، كالتوحيد والتفسير والحديث ، والفقه والتاريخ والسير .

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ ، (١٦١٦) ، وأحمد في المسند (٧٨٤٥) ، والبخارى (٤٨٤٩) ، ومسلم (٢٥٦٣) ، وأبو داود (٤٩١٧) ، والترمذى (١٩٨٨) ، والبيهقى في السنن (١٣٨١٣) .

(٢) مقدمة صحيح مسلم : ١٦ .

وكان الزهري أول من فتش عن الأسانيد بالشام ، وكان يعتبر إغفال الإسناد جرأة على الله ، فعن عتبة بن أبي حكيم «أن إسحاق بن أبي فروة وعنده الزهري ، فجعل ابن أبي فروة يقول : قال رسول الله ﷺ ، فقال له الزهري : قاتلك الله يابن أبي فروة ما أجراك على الله ، ألا تسند حديثك ؟ تحدثنا بأحاديث ليس لها خُطُمٌ ولاَ أَزِمّة»[١] .

وذكر الوليد بن مسلم : «أن الزهري قال : ياأهل الشام مالي أرى أحاديثكم ليس لها أزمة ولا خطم ، قال : فتمسك أصحابنا بالأسانيد من يومئذ» [٢] .

قال الشافعي «لولا أهل المحابر لخطبت الزنادقة على المنابر» [٣] ، وحين قل أهل المحابر ، كثر الناعقون بالأخبار الموضوعة ، وشبه الفكر الواهية ، التي وجدت رواجا عند الأغفال ، وهوام العوام .

وقد وجد في عصرنا من يرى خدمة تفسير كتاب الله بالأحاديث الضعيفة والموضوعة ؛ لأنها كذب لرسول الله وليست كذبا عليه ، وهو المفسر المتحذلق الصوفي الشيخ إسماعيل حقي ١١٣٧ هـ صاحب «روح البيان في تفسير القرآن» .

قال الكوثري : «للوعاظ شغف عظيم بتفسيره لما فيه من الحكايات المرققة للقلوب ، وفيه نقول كثيرة عن كتب فارسية ، وفيه كثير من إشارات الصوفية ، بل يكثر النقل فيه من التأويلات النجمية لصاحب «منارات السائرين» وفيه أيضا من البيان ما تستلذه الأسماع ، إلا أنه لا يتحاشى عن النقل من كل من هب ودب» [٤] .

حيث يقول في جرأة لا يحسد عليها في تفسيره لأواخر سورة التوبة : «واعلم أن

---

(١) معرفة علوم الحديث للحاكم النيسابوري ، ٦ .

(٢) السنة ومكانتها في التشريع، مصطفى السباعي : ٣٩٣ .

(٣) سير أعلام النبلاء : ١٠/ ٧٠ .

(٤) من تعليقات الكوثري على الأجوبة الفاضلة للكنوي :١٣٢ .

الأحاديث التي ذكرها صاحب الكشاف في أواخر هذه السورة وتبعه القاضي البيضاوي والمولى أبو السعود رحمهم الله من جلة المفسرين ، قد أكثر العلماء القول فيها ، فمن مثبت ، ومن ناف ، بناء على زعم واصفها كالإمام الصنعاني وغيره .

واللائح لهذا العبد الفقير سامحه الله القدير ، أن تلك الأحاديث لا تخلو إما أن تكون صحيحة قوية ، أو سقيمة ضعيفة ، أو مكذوبة موضوعة ، فإن كانت صحيحة قوية فلا كلام فيها ، وإن كانت ضعيفة الأسانيد فقد اتفق المحدثون على أن الحديث الضعيف يجوز العمل به في الترغيب والترهيب فقط ، كما في الأذكار للنووي ، وإنسان العيون لعلي بن برهان الدين الحلبي ، والأسرار المحمدية لابن فخر الرومي وغيرها ، وإن كانت موضوعة فقد ذكر الحاكم وغيره أن رجلا من الزهاد انتدب في وضع الأحاديث في فضل القرآن وسوره ، فقيل له لم فعلت هذا ، فقال : رأيت الناس زهدوا في القرآن فأحببت أن أرغبهم فيه ، فقيل له إن النبي ﷺ قال : «**من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار** » **فقال : «أنا ما كذبت عليه ، وإنما كذبت له»** أراد أن الكذب عليه يؤدي إلى هدم قواعد الإسلام ، وإفساد الشريعة والأحكام ، وليس كذلك الكذب له ، فإنه للحث على اتباع شريعته واقتفاء أثر طريقته» [(١)] .

فانظر رعاك الله إلى هذا الفهم السخيف والتلاعب بالنصوص ، الذي جعل الكذب على رسول الله ﷺ شريعة عند هؤلاء المتعالمين يدينون بها الله ، ويتمحلون لها تلاعبا بحروف الجر ، فيستبدلون الكذب عليه بالكذب له ، ليقولوا للمسلمين

---

(١) تفسير روح البيان ،لإسماعيل حقي البروسوي : ١/ ٩٧٧ ، قال أبو غدة هذا غلط جسيم جدا ، واستدلال باطل نعوذ بالله منه ،وما أدري كيف صدر من الشيخ حقي ،وهو ممن قيل فيه الفقيه الأصولي ولعل نزعته الغالية في التصوف هي التي هونت عليه مثل هذا القول ،فنسأل الله السلامة والصون ، والقرآن الكريم غني كل الغنى عن الكذب في فضله وفضل تلاوته (التعليقات الحافلة :٣٤)

قد جئنا لنتمم لكم دينكم ، وكأنهم يستدركون على الله ، ويمنون على رسوله ﷺ .

ثم عجبا لهذا المفسر الألمعي ، كيف حشر نفسه في زمرة المفسرين لكلام الله ، وهو يجهل أبجديات علوم الحديث ، في حرمة الاستدلال بالموضوعات والمناكير ، فأنى له التفسير؟ لكنها الجرأة وصفاقة الوجه .

كما ركب أصناف المتكلمين ، ومُتعصبة المذاهب مطايا الهوى في الدفاع عن النحل والمقالات ، والحكم بالظنون والأوهام ، مع أن ذلك لا يغني في ميزان الحق شيئا ، كما قال أبو بكر الجصاص «وأما الحكم بالظن والهوى ، فإن المجتهد لا يجوز له الحكم بالظن والهوى ، وإنما عليه اتباع الأمارات والشواهد ، والأشباه التي نصبها الله تعالى في الأموال ، وجعلها أمارات لأحكام الحوادث» [١] .

ومن ثم أوجب العلماء النظار تقييد المعرفة الإسلامية بصحة النقل في الآثار وقوة البراهين في الرأي والنظر ، لسد الطريق على الكذابين ، وصيانة المعرفة من تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، حتى يتميز الحق من الباطل ، في هذا الركام الفكري ، الذي زخر به التراث الإسلامي ، في ثنايا الكتب واختلاف الفرق والمذاهب ، وتشعب العلوم والمعارف .

قال العماد الأصبهاني «الحق يتضح بالأدلة ، والشهور تشتهر بالأهلة ، وشفاء الصدور يحصل بالبله ، طالب الحق ضيف الله ، والدليل القاطع سيف الله ، به يفك العلم وينشر ، وبه ينقر الحق ويقشر ، ومثل العلوم والبرهان كمثل المصباح والأدهان ، الحجة للأحكام ، كالعماد للخيام ، إعصار الظن كدر كعصارة الدن ، الزم اليقين تكن من المتقين ، فشواظ الوهم يشوي حمامة القلب شيا «إن الظن لا يغني من الحق شيئا» [٢] .

---

(١) الفصول في الأصول لأبي بكر الجصاص ٣ / ١٥٤ .

(٢) قواعد التحديث ، للقاسمي : ٣٦٧ .

فقد عُلم أن الظن والهوى أصل الزيغ والضلال ، وما نشأ من اختلاف أرباب الأهواء والمقالات كان سببه ركوب مطايا الظنون والأهواء ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [يونس:٣٦] .

وقال أبو عثمان النيسابوري : « من أمَّر السنة على نفسه قولا وفعلاً نطق بالحكمة ، ومن أمَّر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة »[١] .

*****

(١) رواه البيهقي في الزهد الكبير : حديث رقم : ٣٢٩ .

٦ ـ إذا صح النقل شهد العقل

ومفاد القاعدة « أن صحيح المنقول ، لا يخالف صريح المعقول » كما قال ابن تيمية ، لأن المعرفة الإسلامية تنبني على أمرين أساسيين : هما صحيح الأثر ، وقوي النظر ، وهما لا يتعارضان عند ذوي الأفهام الصحيحة ، فقد نزه الله أحكام الملة عن التناقض والاضطراب ، الذي ادعاه أرباب المقالات ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢] .

قال ابن تيمية : « ماعُلِمَ بصريح العقل لا يُتصور أن يُعارض الشرعَ البتة بل المنقول الصحيح لا يعارضه معقول صريح ، وقد تأملت ذلك في عامة ما تنازع الناس فيه ، فوجدت ما خالف النصوص الصحيحة الصريحة شبهات فاسدة يُعلم بالعقل بطلانها . . ووجدت ما يُعلم بصريح العقل لم يخالفه سمع قط ، بل السمع الذي يقال : إنه يخالفه إما حديث موضوع ، أو دلالة ضعيفة ، فلا يصلح أن يكون دليلًا لو تجرّد عن معارضة العقل الصريح ، فكيف إذا خالفه صريح المعقول؟ ونحن نعلم أن الرسل لا يخبرون بمُحالات العقول بل بمُجارات العقول ، فلا يخبرون بما يعلم العقل انتفاءه ، بل يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته» [(١)] .

وبمقتضى ذلك وجب التسليم بما صح من السنن وإن ادعى الجهلة مخالفتها لظاهر العقل ، ومن ذلك أحاديث المعجزات ودلائل النبوة ، كانشقاق القمر ، وحنين الجذع ، وحديث الذباب ، وحديث تكليم السباع للإنس في آخر الزمان ، وحديث خروج نار من المدينة تضيء أعناق الإبل ببصرى بالشام .

فهذه السنن كلها قد صح النقل بها عند أهل الحديث ، ونازع فيها شذوذ من المعتزلة والفلاسفة والملاحدة ، والعقل الصريح يشهد لها ، ولا يملك إلا التسليم بما

---

(١) موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول لابن تيمية : ١/ ٨٦ . تحقيق محمد حامد الفقي.

جاء عن النبي ﷺ، ولا غضاضة عند أهل العقول السليمة في ذلك، لأن للعقل مجالا مع الشرع لا يمكن أن يتعداه، وإلا ضل في مسارب الهوى بالشغب والاعتراض عما لا يستقل العقل بإدراكه.

بخلاف ما روجه الوضاعون من آثار باطلة مخالفة لصريح المعقول، فلا يجوز الاحتجاج بها على مخالفة السنن لمقتضى العقول لأنها من الكذب السمج الذي يُعلم بطلانه ومعارضته لصريح المعقول.

ومنه حديث «حديث عرق الخيل» الذي وضعه محمد بن شجاع الثلجي، ورمى به بعض أهل الحديث، حتى يقال: إنهم يَرْوُونَ مثل هذا السخف، وهو مروي عن أبي هريرة: «قيل يا رسول الله: مم ربنا؟ قال: من ماء مرور، لا من أرض، ولا من سماء، خلق خيلاً فأجراها فعرقت، فخلق نفسه من ذلك العرق»[1]، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

قال ابن الجوزي: «هذا حديث لا يشك في وضعه، وما وضع مثل هذا مسلم، وإنه لمن أركِّ الموضوعات وأدبرها، إذ هو مستحيل، لأن الخالق لا يخلق نفسه»[2].

و مثله حديث نزوله عشية عرفة على جمل أورق، ومصافحته للركبان والمشاة، وهو مروي عن أَسْمَاء مرفوعا: «رَأَيْتُ رَبِّي يَوْمَ عَرَفَةَ بِعَرَفَاتٍ عَلَى جَمَلٍ عَلَيْهِ إِزَارَانِ، وَهُوَ يَقُولُ: قَدْ سَمَحْتُ، قَدْ غَفَرْتُ إِلا الْمُظَالِمَ، فَإِذَا كَانَتْ لَيْلَةُ الْمُزْدَلِفَةِ لَمْ يَصْعَدْ إِلَى السَّمَاءِ، حَتَّى إِذَا وَقَفُوا عِنْدَ الْمَشْعَرِ، قَالَ: حَتَّى الْمَظَالِمُ. ثُمَّ يَصْعَدُ إِلَى

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره ١١/ ١٢٨، وابن الجوزي في الموضوعات ١/ ١٠٥، والسيوطي في اللآلئ المصنوعة: ١ / ١١. كلاهما من طريق الحاكم. وابن عراق في تنزيه الشريعة المرفوعة: ١/ ١٣٤.

(٢) الموضوعات الكبرى لابن الجوزي: ١/ ١٠٥.

السَّمَاءِ»[١] .

وهذا الكذب السمج المخالف لصريح المعقول لا يُقره شرع ولا عقل ، وإنما وقع الإنكار على رد المتكليمن وأهل الأهواء لما لا يخالف المعقول من السنن والآثار التي صح بها النقل عن صاحب الشريعة وتلقاها حكماء الأمة بمقتضى القبول والتسليم كأحاديث المعجزات ودلائل النبوة ، والإخبار بالمغيبات التي لايدركها العقل المجرد .

وقد أنِس قومٌ من المتكلمين والفلاسفة ببديهة العقل ورفعوه فوق كل دليل ، واعتبروه سلطانا حاكما على الشرع ، إذ انطفأ نور النبوة في قلوبهم المظلمة بالأهواء والخيالات والأوهام ، وتعارضت عندهم أدلة الشرع مع أوهام عقولهم الكاسدة ، فنبذوا النصوص ، أو لووا أعناقها بالتأويل في أحسن الأحوال ، وبذلك ضل أساطين المعتزلة والفلاسفة كالنظام ، والزمخشري ، والفارابي ، وابن سينا ، وابن العلقمي ، وإخوان الصفا ، وأبي حيان التوحيدي .

فقد اعتبر جار الله الزمخشري العقل سلطانا في معرفة الشرائع ، تبعا لأسلافه من المعتزلة الذين قدموا العقل وجعلوه إماما حاكما على الشرع حيث قال : «امش في دينك تحت راية السلطان ، ولا تقنع بالرواية عن فلان و فلان ، فما الأسد المحتجب في عرينه ، بأعز من الرجل المحتج على قرينه ، وما العنز الجرباء تحت الشمأل البليل ، بأذل من المقلد عند صاحب الدليل »[٢] .

وممن تأثر بهذه النزعة من المعاصرين الشيخ محمد الغزالي ~ ، الذي ملأ بعض مصنفاته بآثار هذه النزعة ، وانتهى إلى تقرير أصل خطير هو «رد الحديث إذا خالف العقل ، مهما كان إسناده ، ومهما كان من صححوه ووثقوه من علماء الإسلام »[٣] .

---

(١) انظر تنزيه الشريعة المرفوعة : ١/ ١٣٩ . واللآلئ المصنوعة فِي الأحاديث الموضوعة : ١/ ٢٧ .

(٢) أطواق الذهب في المواعظ و الخطب للزمخشري : ١٠٨ .

(٣) أزمة الحوار الديني ،جمال سلطان : ٦٤.

وذهب إلى أن مناط قبول النصوص وتفسيرها هو العقل المستنير بمبادئ الإنسانية ، حيث يقول : «ألا فلنعلم أن ما حكم العقل ببطلانه يستحيل أن يكون دينا ، الدين الحق هو الإنسانية الصحيحة ، والإنسانية الصحيحة هي العقل الضابط للحقيقة المستنير بالعلم ، الضائق بالخرافة ، النافر من الأوهام ولا نزال نؤكد أنه حكم يرفضه العقل ، وكل مسلك يأباه امرؤ سوي ، وتقاومه الفطرة المستقيمة يستحيل أن يكون دينا »[1] .

وقد أخطأ الشيخ محمد الغزالي ~ في ركوب سنن هذا المنهج ، وانخداعه ببريق هذه النزعة الاعتزالية ، وهو الفقيه الأزهري ، والمفكر الألمعي ، الذي أبلى بلاء حسنا في الدفاع عن معاقل الإسلام ضد خصومه من العلمانيين والقوميين ، وكان أسدا رئبالا في ذلك لا يرام حماه .

وكان الحامل له على ذلك ما رآه من جمود وكودنة خلق من الطائشين ، وما عاناه من صلفهم وتجاسرهم على السنة بفقه مختل شغبوا به على العوام ، وقدموا به صورة مشوهة عن الإسلام ، وقد ذكر جوانب من معاناته في كتبه « هموم داعية» ، و«مشكلات على طريق الحياة الإسلامية» ، و«تراثنا الفكري في ميزان العقل والشرع» ، وإن كان قد جنح في بعض ذلك ورمى في غير مرمى ، حيث أنكر أحاديث صحيحة ، واستشكل آثارا ظاهرة في السنة ، كحديث ملك الموت مع موسى ، وحديث إن الميت ليعذب ببكاء أهله ، وحديث يقطع الصلاة ثلاث ، وغيرها من الآثار الثابتة .

وهي زلة معذور ، ومفكر غيور على أمته ، لكن درء الباطل الذي ركبه هؤلاء لا يسوغ إنكاره برد صحاح الآثار المخالفة للعقل ظاهرا ، وتأويل السنن بالرأي المحض على غير ما تأوله السلف الأعلام .

---

(١) مجلة الدوحة القطرية : عدد ١٠١ رجب ١٤٠٤هـ.

وقد صنف ابن تيمية ~ : «درء تعارض العقل والنقل» وأثبت فيه بالأدلة المستفيضة موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ، وكشف زيف ادعاءات الفلاسفة والمتكلمين ، وشبههم في تعارض العقل والنقل ، وبين أن معارضة الشرع بظاهر العقل إنما نشأت في حسهم وأوهامهم ، لما أحدثوه من أهواء تلقفوها من فلاسفة اليونان ، وهي ظنون وتخرصات لا يمكن أن توافق الشرع بحال ، فلا سبيل إلى التوفيق بين خيالات الفلاسفة ودلائل الشريعة . قال ابن تيمية : «والداعون إلى تمجيد العقل إنما هم في الحقيقة يدعون إلى تمجيد صنم سموه عقلاً ، وما كان العقل وحده كافياً في الهداية والإرشاد ، وإلا لما أرسل الله الرسل» [(١)] .

وما رامه ابن رشد من ذلك في «فصل المقال» إنما يجري في القطعيات التي هي من مسلمات العقول ، قال ابن رشد : «وإذا كانت هذه الشريعة ، حقاً وداعية إلى النظر المؤدي إلى معرفة الحق فإنّا ، معشر المسلمين نعلم على القطع أنه لا يؤدي النظر البرهاني إلى مخالفة ما ورد به الشرع ، فإن الحق لا يضاد الحق ، بل يوافقه ويشهد له » [(٢)] .

أما ما سوى ذلك من الجمع بين أوهام اليونان ودلائل الشريعة فتعب ليس وراءه أرب ، إذ كيف نجمع بين خيالات أرسطو وأفلاطون وابن سينا في الإلهيات وأصول عقيدة السلف . قال شيخ الإسلام ابن تيمية «والقول كلما كان أفسد في الشرع ، كان أفسد في العقل فإن الحق لايتناقض ، والرسل إنما أخبرت بحق» [(٣)] .

ومن المعلوم أن نتاج العقل السليم المستنير بالوحي لا يناقض الشرع بحال ، وهذا لا ينطبق على ترهات فلاسفة الإسلام ، بله هذيان حكماء اليونان ، الذي هو

---

(١) موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ١/ ٢١.

(٢) فصل المقال في ما بين الحكمة والشريعة من اتصال : ٣١.

(٣) منهاج السنة النبوية لابن تيمية : ١/ ٨٢ .

شبكات ومغالق لبسوا بها على العوام .

قال أبو سعيد السيرافي للفيلسوف «متَى النصراني» حين ناظره في مجلس ابن الفرات : « وإنما بودكم أن تشغلوا جاهلا وتهولوا بالجنس ، والنوع والخاصة ، والفصل ، والعرض ، والشخص وتقولوا الهلية ، والأينية ، والكيفية ، والكمية ، والذاتية والعرفية ، والهيولية ، والصورية ، والأيسية ، والليسية ، ثم تتطاولون ، و تقولون جئنا بالسحر ، وهذه كلها خرافات ، ومغالق وشبكات ، وما أعرف لاستطالتكم بالمنطق وجها» [١] .

وحاصل الأمر أن العقل الصريح أصل في فهم أدلة الشريعة فلا يعارضها بحال ، وإن حصل شيء من ذلك ، فمن نفس الناظر في الأدلة ، فليعتبر فإن العقل تبع للشرع ، وهو بغير نور النبوة إلى تيه وضلال ، ولذلك قال الشافعي : « كل ما قلته لكم ولم تشهد عليه عقولكم أو تراه حقا ، فلا تقبلوه ، فإن العقل مضطر لقبول الحق» [٢] .

وقال ابن تيمية : «العقل شرط في معرفة العلوم ، وكمال وصلاح الأعمال وبه يكمل العلم والعمل ، ولكنه ليس مستقلا بذلك لكونه غريزة في النفس وقوة فيها ، فهو بمنزلة قوة البصر التي في العين ، فإن اتصل به نور الإيمان والقرآن كان كنور العين إذا اتصل به نور الشمس والنار ، وإن انفرد بنفسه لم يبصر الأمور التي يعجز وحده عن دركها والرسل جاءت بما يعجز العقل عن دركه ، ولم تأت بما يعلم بالعقل امتناعه ، لكن المسرفين فيه قضوا بوجوب أشياء وجوازها وامتناعها لحجج عقلية بزعمهم اعتقدوها حقا ، وهي باطل وعارضوا بها النبوات» [٣] ، فركوب

---

(١) الإمتاع و المؤانسة ،لأبي حيان التوحيدي : ١٠٤.

(٢) مناقب الشافعي ، للبيهقي : ١/ ١٨٦.

(٣) مجموع فتاوي ابن تيمية : ٣/ ٣٣٨.

هوى العقل بمعزل عن الوحي مرتع وخيم ، لا مخلص منه إلا الاهتداء بنور الشريعة ، فذلك كمال العلم ، ولله در القائل :

علمُ العليم وعقلُ العاقلِ اختلفا ... من ذا الذي منهما أحرز الشرفا
فالعلمُ قال أنا أحرزت غايته ... والعقلُ قال أنا الرحمنُ بي عُرفا
فأفصَح العلمُ إفصاحا وقال له ... بأينا الله في قرآنه اتصفَا
فأيقن العقلُ أن العلمَ سيدهُ ... فقبلَ العقلُ رأسَ العلمِ وانصرفا

ولو أن أئمة النظر رعوا هذه القاعدة حق رعايتها ، ما تولج ميدان التنظير للفكر الإسلامي الأدعياء المتطفلون ، الذين لبسوا على العوام ، واستهووا عقولهم بخيالات ، يزعمونها عقلية ، وما لها أثارة من دليل .

*****

جرأة العقلانيين الجدد في تحريف النصوص

نبتت في عصرنا أمة من «المعتزلة الجدد» ، ممن غالوا في تقديس العقل وجنحوا في تحكيم سلطانه على النصوص والآثار ، ففتنوا الناس بمسالكهم في التأويل البعيد لنصوص الشريعة ، مع أنهم ضعيفي الحظ والبضاعة ، وليسوا من أحلاس هذه الصناعة .

وكان ممن غالى في هذه النحلة من المعاصرين جمال البنا ، والدكتور حسن الترابي ، وفهمي هويدي ، والدكتور مصطفى محمود ، ممن يرون أن العقل مصدر مقدم في معرفة الأحكام ، قد فرط فيه المسلمون ، فينبغي بعث العقلانية من جديد في الفكر الإسلامي ، لتجاوز الفكر البالى ، المتمثل في المنهج النقلي عند المحدثين ، وأنابيش الفقهاء في الفروع كما يسميها حسن الترابي .

فمن المنتسبين إلى هذه النحلة من يرى أن الوقوف عند النصوص وثنية جديدة ، كفهمي هويدي الكاتب الصحفي الذي كتب مقالا بعنوان «وثنيون هم عبدة النصوص» «زعم فيه أن الوثنية المعاصرة هي عبادة القوالب والنصوص» ، وقال : «محاولة تعطيل العقول أمام النصوص وثنية جديدة ، ذلك أن الوثنية ليست فقط عبادة الأصنام ، فهذه صيغة الزمن القديم ، ولكن وثنية هذا الزمان صارت تتمثل في عبادة القوالب والرموز وفي عبادة النصوص والطقوس» [(١)] .

وقد عُرف هؤلاء «المعتزلة الجدد» بجرأة عجيبة على النصوص ، سموها اجتهادا في الفكر الإسلامي ، فمنهم من يريد إعادة النظر في البخاري ومسلم وكشط ما يخالف عقولهم من أحاديث الصحيحين ، مع التستر بمجن مخالفة ظاهر القرآن ، مع أنهم من أجهل الناس بدلائله ، وقد فتح السالكون هذا المنحى

---

(١) مجلة العربي : عدد ٢٣٥، كانون الثاني ١٩٧٨ ، ص : ٣٤ .

للمجترئين على السنة النبوية باب معرة وغواية ، فلا يشاء مبتدع اليوم أن يدعى علة في متن حديث يخالف هواه إلا فعل ، وكان شغبهم على السنة مما جرأ القرآنيين الجدد على إنكار النصوص .

ومن هؤلاء الدكتور مصطفى محمود في مقال له بجريدة الأهرام المصرية ، فقد ذهب إلى إنكار أحاديث الشفاعة ، وحكم بخلود العصاة في النار ، حيث قال :« القرآن ينفي إمكانيه خروج من يدخل النار في الكثير والعديد من آياته . . وهذه الثوابت القرآنيه تتناقض تماما مع مرويات الأحاديث النبويه في كتب السيرة عن إخراجه لمن يشاء من أمته من النار ، مما يوكد ان هذه الأحاديث موضوعة ولا أساس لها من الصحة» (١) .

ثم ساق آيات تعسف في تأويلها منها قوله تعالى : ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة:٣٧] .

وقوله تعالى : ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٧، ١٠٨] .

وهي آيات واردة في نفي الشفاعة للكافرين حملها على نفي الشفاعة يوم القيامة ، ثم آل إلى ادعاء التضارب والتناقض بين آي القرآن والسنة ، وفسر الشفاعة بأنها «الوساطة » و«المحسوبية » ، و«والاتكالية » ، وهو تفسير بحض الهوى لا تسعفه دلائل القرآن ولا السنة ولا لغة العرب .

ومعلوم أن معارضة السنة بالقرآن مذهب رديء تبناه طائفة من الزنادقة ، وأهل الأهواء من المعتزلة ، وإنكار الشفاعة مذهب قديم للمعتزلة ، في باب الوعد والوعيد ، وقد سلكه مصطفى محمود ، مبينا عن جهله الشنيع بسنن رسول الله ﷺ ،

(١) انظر مقال «وما هم بخارجين من النار» د. مصطفي محمود – منتدى www.karicom.com .

التي ادعى فيها أن أحاديث الشفاعة موضوعة ، لأنه ليس من أهل هذه لصناعة .

وهي جرأة عجيبة ، تنم عن جهل بالنصوص ، وتخليط في أصول التفسير وقواعد الاستدلال ، فأحاديث الشفاعة وردت في الصحاح والسنن ، وبلغت مبلغ التواتر المعنوي ، ومنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : **«لكل نبي دعوة مستجابة ، فتعجَّل كل نبي دعوته ، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة ، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً»** [(١)] .

وقد كان الأولى بالدكتور مصطفى محمود الإمساك عما لم يتأهل له من الخوض في تفسير القرآن والسنة بغير علم ، والانصراف إلى ما يُحسن من الكلام في عالم الطب والنظريات العلمية ، إذن لنفع الله به العباد ، وسلم من جرائر الشغب على السنة باسم الدفاع عن الشريعة ، ولكن لله في خلقه شؤون !!

كما رد الترابي الحديث المتواتر في نزول المسيح عليه السلام ؛ لأنه في نظره يتعارض مع العقل ، وقال في حوار له مع الشيخ محمد سرور : « أنا لا أناقش الحديث من حيث سنده ، ولكن أراه يتعارض مع العقل ، ويُقدم العقل على النقل عند التعارض» [(٢)] .

وأحاديث نزول المسيح بلغت مبلغ التواتر ، ومنها حديث حذيفة بن أسيد الغفاري : «اطلع علينا النبي ﷺ ونحن نتذاكر فقال النبي ﷺ : ما تذاكرون؟ فقالوا : نذكر الساعة فقال : إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر ، الدخان ، والدجال ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى بن مريم ، ويأجوج ومأجوج ، وثلاثة خسوف ، خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم» [(٣)] .

---

(١) أخرجه البخاري، : ٥٨٢٩، ومسلم ٢٩٦، و أحمد في المسند : ٩١٤٠، والترمذي ٣٥٢٦.

(٢) انظر : تجديد الفكر الإسلامي للترابي :٢٦ ، و«دراسات في السيرة النبوية» لمحمد سرور ٣٠٨ و انظر تيارات الفكر الإسلامي لمحمد عمارة : ٨٧ .

(٣) رواه مسلم في الفتن(٢٩٠١) ، وأبو داود في الملاحم(٤٣١١) ، والترمذى رقم (٢١٨٤).

وليس في هذه الآيات ما يعارض العقل ؛ لأنها من علامات الساعة ، وهي من أمر الغيب الذي استأثر الله بعلمه ، وحدوثها داخل تحت المشيئة والقدرة الإلهية ، والعقل مضطر للتصديق بذلك ، فإنكارها مجرد جحود ومكابرة!!

وكذلك أنكر «أبو القاسم حاج حمد» في كتابه «منهجية القرآن المعرفية» حد رجم الزاني لأنه لم يرد في القرآن ، ولأنه حسب زعمه من الآصار والأغلال التي كانت عند اليهود في التوراة ونسخها القرآن بآية جلد الزاني [١] .

مع أن أحاديث الرجم واردة في الصحيحين و السنن ، وثابتة من فعل النبي ﷺ ، والخلفاء الراشدين ، وكل ذلك لا قيمة له عند أهل التشغيب على السنن ، ومنكري النسخ في القرآن من مخانيث الخوارج .

وساق حاج حمد حديث عائشة «نزلت آية الرجم والرضاع فكانتا في صحيفة تحت سريري فلما مات رسول الله ﷺ تشاغلنا بموته ، فدخل داجن فأكلها » [٢] ثم قال : «الذين وضعوا هذا المروي خالفوا ميثاق الله في حفظ القرآن ، وخالفوا شرعة الرحمة والتخفيف التي كانت أهم علامة من علامات النبي الأمي الذي ينسخ شرعة الإصر والأغلال والعقوبات الغليظة ، وعالمية : ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٨٥] ، فكان الجلد مائة في سورة النور ناسخا للرجم في التوراة !!

أما القول بآيات منسوخة ، سواء كانت قد سقطت من التلاوة أو أكلها داجن أو

---

(١) راجع تجديد الفكر الإسلامي بين الآمال والمحاذير، للمؤلف : ١١٥ .

(٢) وابن ماجة في السنن في كتاب النكاح ١٩٣٤ . ٢٦٣٤ ، ورواه مسلم في كتاب الرضاع باب التحريم بخمس رضعات، ومالك في الموطأ ولم يذكر الرجم : عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ «كَانَ فِيمَا أُنْزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ عَشْرُ رَضَعَاتٍ مَعْلُومَاتٍ يُحَرِّمْنَ ثُمَّ نُسِخْنَ بِخَمْسٍ مَعْلُومَاتٍ فَتُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُنَّ فِيمَا يُقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ .

رفعت نهائيا فهذه مرويات أخرى ، إذ ليس في القرآن ناسخ ومنسوخ» [١] .

ومن شقاشق أفكارهم الحديثة في مجال التمدن ومجاراة المواثيق الدولية في الحريات العامة دعوتهم إلى استبدال حد الردة بعقوبة موافقة لحقوق الإنسان ، بدعوى أن الفقهاء لم يجمعوا على حد قتل المرتد!!

وهذا رأي الترابي وجمال البنا ودعاة التحرر من الفقه العتيق ، وتراهم في ذلك مثل الخوارج يستدلون بعمومات القرآن ، ويتعسفون في رد الأحاديث وأقوال الفقهاء بمجرد الهوى وسخف الرأي .

فيقرر جمال البنا في كتابه «حرية الفكر والاعتقاد في الإسلام» وهو الزعيم المبجل عند بعض الإسلاميين فضلا عن العلمانيين : «أن الإيمان والكفر قضية شخصية ، لاتهم إلا صاحبها ، وأنها ليست من قضايا النظام العام ، فلا تدخل ولا إكراه عليها من أي جهة ، وأنه لا يوجد حد دنيوي على الردة» [٢] .

ثم ساق آيات عامة تدل على ضلال المرتدين ولا دليل فيها على عدم وجود حد ، وقال «ونعلم أن الفقهاء والمفسرين قالوا إن هذه الآيات نسخت بآية السيف ، وهذا سخف ، وقول يرفضه من لديه ذرة من عقل ، فإذا كانت قد نسخت فما فائدة الإبقاء عليها في المصحف ، وكيف يتلوها الناس وهي منسوخة؟ إن قضية النسخ كلها قضية ضالة ومضلة ، وقد أثبتنا ذلك في كتابنا «الأصلان العظيمان الكتاب والسنة» الذي خصصنا فيه قرابة سبعين صفحة لتفنيد دعوى النسخ» [٣] .

وكفى بهذا الكلام هزؤا وتسافها على علوم الإسلام ، التي يلاحظ أن هذا الصحفي المغبون لا يميز فيها قبيلا من دبير ، ولو تعلم أبجديات علوم القرآن ، لميز

---

(١) منهجية القرآن المعرفية : ٧٤ وما بعدها ، ط : المعهد العالمي للفكر الإسلامي .

(٢) انظر حرية الفكر والإعتقاد في الإسلام رؤية جديدة، : ص٢٢ . منشورات النبأ ١٩٩٨م .

(٣) انظر حرية الفكر والإعتقاد في الإسلام رؤية جديدة، : ص٢٢.

بين نسخ الحكم وبقاء التلاوة ، وعلم أن السلف يطلقون النسخ على التخصيص أحيانا . فآيات الصبر وكف الأيدي ، والإعراض عن المشركين قد نُسخت بآية السيف ، وبقيت تلاوة ليدرك الناس حكمة التشريع ، قال مقاتل بن سليمان : «صارت آية العفو والصفح منسوخة ، نسختها آية السيف فى براءة ، فلما جاء ذلك الأمر قتلهم الله تعالى وسباهم وأجلاهم»[(١)] .

ومن آخر فواقر جمال البنا البالية ما نشره في «صحيفة القاهرة» ونقلته جريدة «الأحداث المغربية» العلمانية بعنوان «الإسلام دين وأمة وليس دينا ودولة» ، زعم فيه جمال البنا أن «شعار الحاكمية ليس شعارا جديدا على الفكر الإسلامي ، وهو شعار مشؤوم أدى إلى اغتيال علي بن أبي طالب ، وأن دعوة الحركات الإسلامية اليوم إلى إحياء الخلافة إنما هو خيال ووهْم ، فالخلافة الحقيقية لم تدم سوى ثلاثين عاما ، وهي اليوم قد ماتت والله وحده هو الذي يحيي الرميم»[(٢)] .

مع أن عودة خلافة المسلمين أمر محتوم ، لتصريح النصوص بأن المستقبل للإسلام ، وأن العاقبة للمتقين ، وأنه لن تقوم الساعة حتى يكون الظهور والعلو في الأرض للمسلمين ، كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥] .

وعَنْ ثَوْبَانَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ**»[(٣)] .

كما أثر في دلائل النبوة أن فتوحات المسلمين ستتسع في آخر الزمان ، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه «سئل أي المدينتين تفتح أولا القسطنطينية أو رومية ؟

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان : ١/ ٣٨٦.

(٢) جريدة الأحداث المغربية عدد ٢١ أبريل ٢٠٠٢م مقال «الإسلام دين وأمة وليس دينا ودولة.

(٣) أخرجه مسلم (١٩٢٠) ، وغيره .

فدعا عبد الله بصندوق له حلق ، قال : فأخرج منه كتابا قال : فقال عبد الله : بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب ، إذ سئل رسول الله ﷺ : أي المدينتين تفتح أولا أقسطنطينية أو رومية ؟ فقال رسول الله ﷺ مدينة هرقل تفتح أولا ، يعني قسطنطينية» [١] .

وقد فتحت القسطنطينية عام ٨٥٧هـ ، على يد محمد الفاتح بعد حصار دام خمسين يوماً ، وعادت الخلافة الإسلامية العثمانية التي حكمت العالم الإسلامي سنين ، وضعفت في مطلع القرن العشرين ، وسقطت بسبب تشرذم المسلمين في الداخل وكيد الأعداء في الخارج عام ١٩٢٨م .

وقد حاول المؤرخ الإنجليزي «إدوارد شيبرد كريسي» في كتابة «تاريخ العثمانيين الأتراك» أن يشوه صوره الفتح العثماني للقسطنطينية ، ووصف السلطان محمد الفاتح بصفات التسلط والوحشية حقداً وبغضاً للفتح الإسلامي ، وسارت الموسوعة الأمريكية المطبوعة في عام ١٩٨٠م في حمأة الحقد الصليبي ضد الإسلام ، فزعمت أن السلطان محمد قام باسترقاق نصارى القسطنطينية ، وساقهم إلى أسواق النخاسة في مدينة درنة وباعهم هناك .

والحقيقة أن السلطان محمد الفاتح عامل أهل القسطنطينية معاملة إنسانية وأمر جنوده بحسن معاملة الأسرى ، وافتدى عدداً كبيراً منهم بماله الخاص وخاصة أمراء اليونان ، ورجال الدين ، واجتمع مع الأساقفة وهدأ من روعهم ، وأمنهم على دينهم وكنائسهم ، وأذن لهم في تنصيب بطريرك جديد «أجناديوس» واستقبله السلطان محمد الفاتح بحفاوة وأكرم مثواه مما غير رؤية الروم النصارى عن الأتراك العثمانيين وعن المسلمين عامة .

---

(١) رواه أحمد (٢ / ١٧٦) و الدارمي في السنن (١ / ١٢٦) و ابن أبي شيبة في المصنف (٢/ ١٥٣) ، والحاكم في المستدرك٤ / ٥٠٨ و قال الحافظ عبد الغني المقدسي «حديث حسن الإسناد» .

ونحن لا نرتاب في عودة الخلافة الإسلامية في آخر الزمان باستعلاء المسلمين واستعادتهم ما ذهب من ملكهم في الأندلس وغيرها وعلوهم في الأرض ، بما تثبته إحصائيات تكاثر المسلمين ، وتنامي المد الإسلامي ، وما يُنتظر من اندحار قوة الصليبيين ، فإن الأيام دول ، فتكون لهذه الامة السيادة والريادة إذا تحققت فيها أسباب النصر والظهور في الأرض .

والحاصل أن هذا المخلوق المتسافه على دين الإسلام في هذا الزمان لا يقف دون جرأته وصلفه شيء ، لأنه كما زعم لايريد أن يلبس جلباب أخيه ، وقد استغلت وسائل الإعلام صلته بالشيخ البنا ، لترويج أفكاره المائعة في العالم الإسلامي .

*****

٧ ـ إذا جاء النص بطل الفص

فَصُّ الشيءِ حقيقتُه وكُنْهُه ،وفصُّ الأَمرِ مَفْصِلُه ، وفَصُّ العينِ حَدَقَتُها والفُصوصُ المفاصل في العظام ، وقال الليث الفَصُّ السِّنُّ من أَسْنان الثُّوم ، وفَصُّ الخاتم وفِصُّه المُرَكَّبُ فيه [١] .

والفصوص ما يتولد من فهوم الناس للأمور ، ومن ثم سمى ابن عربي كتابه «فصوص الحكم» .

وهذه قاعدة في تجريد المتابعة لنصوص الشريعة كتابا وسنة ، تقتضي التمييز بين دلائل الوحي وبين فهوم العلماء ، لأن الله تعالى جعل العصمة في نصوص الوحي ، وأناط الحق بمعانيها ، ولم يجعل ذلك في فهوم العلماء وآرائهم .

فإذا ورد النص في مسألة من مسائل الخلاف في التراث ، ومحال النزاع مما تضاربت فيه الآراء ، وتنازع فيه أهل الأهواء ، وجب التمسك بالأثر ، وبطل الفص والفهم والنظر ، فضلا عما خالف النص وشذ به المارقون عن إجماع الأمة . قال الشافعي : «أجمع المسلمون أن من استبانت له سنة الله ﷺ ، لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس كائنا من كان » [٢] .

وقد شاعت بين المسلمين نظريات من الفكر الموروث عن الفلاسفة والمتصوفة والمتكلمين ، فيها من المناقضة للنصوص ، والمخالفة للآثار ، ما لا يخفى على ذي بصر بنصوص الشريعة وقواعدها .

ومنها زخارف من القول دخلت على المعرفة بالتعسف والتأويل ، كنظرية الحلول والاتحاد ، ووحدة الوجود ، وتعسفهم في التأويل الباطني للنصوص ،

---

(١) انظر لسان العرب : مادة «فصص» .

(٢) إعلام الموقعين :٢/ ٣٦٤. "إيقاظ همم أولي الأبصار لصالح الفلاني ٥٨.

وادعاء تلقي المعرفة بالذوق والكشف ، وادعاء علم الغيب للأقطاب والأغواث ، وادعاء رؤيتهم الخضر عليه السلام ، ولقياهم النبي ﷺ يقظة لا مناما ، وغيرها من زخارفهم في العقائد والسلوك ، مما ساقه أبو نصر السراج في «لمع الصوفية» ، وابن عربي في «فصوص الحكم» ، وعبد الكريم الجيلي في «الإنسان الكامل» ، مما لا يخفى عواره على ذي بصيرة .

وكذلك هذيان المعتزلة في القول بالصرفة ، والطفرة عند النظام ، وخلق القرآن وإنكار المعجزات ، وردهم أحاديث دلائل النبوة ، ونفيهم رؤية الله بالأبصار يوم القيامة .

وما أثر عن الفلاسفة من القول بقدم العالم ، وإنكارهم بعث الأجساد وادعائهم أن الله لا يعلم الجزئيات ، والقول بفيض العقول العشرة . . . ونحو ذلك من النظريات والدعاوى البالية التي امتلأت بها كتب التراث الصوفي والكلامي والفلسفي ، واتخذها العلمانيون اليوم متكأ للاستهزاء بالإسلام والعبث بتراثه ، وفتنة عوام الناس بهذه الشبه البالية لزلزلتهم عن دينهم .

فكلها فصوص وأوهام صدرت من عقول لم تستنر بنور الوحي ، واتخذت مستندا لها فلسفة أفلاطون ، وخيالات أرسطو ، ورياضات بوذا في تعذيب النفس ، ورهبانية النصارى في الصوامع والأديرة ، فحجبت عن دلائل الوحي ، وضرب بينها وبين أدلة الشريعة بأسداد ، فظهر العوار ، إذ شتان بين كلام الأنبياء وهذيان الأغبياء .

قال ابن خلدون : «ومن هؤلاء المتصوفة : ابن عربي ، وابن سبعين ، وابن برّجان ، وأتباعهم ، ممن سلك سبيلهم ودان بنحلتهم ، ولهم تواليف كثيرة يتداولونها ، مشحونة من صريح الكفر ، ومستهجن البدع ، وتأويل الظواهر لذلك على أبعد الوجوه وأقبحها ، مما يستغرب الناظر فيها من نسبتها إلى الملّة أو عدّها في الشريعة ،

وليس ثناء أحد على هؤلاء حجة ولو بلغ المثني عسى ما يبلغ من الفضل لأن الكتاب والسنة أبلغ فضلاً أو شهادة من كل أحد ، وأما حكم هذه الكتب المتضمنة لتلك العقائد المضلة وما يوجد من نسخها في أيدي الناس مثل الفصوص والفتوحات المكية لابن عربي . . فالحكم في هذه الكتب وأمثالها إذهاب أعيانها إذا جدت بالتحريق بالنار والغسل بالماء حتى ينمحي أثر الكتاب» [١] .

لكن لما صار التعالم صناعة المتطفلين ، وأضحى النظر والتفكير كلأ مباحا لكل راتع ، فدونك ما تشاء من فصوص الفكر الناشز ، ونقيق غربانه الوافدة ، فهذا زمان الاجتهاد والاغتراف !! والله يهدي من يشاء إلى سراط مستقيم .

فصوص دخيلة على المعرفة الإسلامية :

وهي سخافات تسربت إلى تراثنا الإسلامي من لدن أدعياء الحكمة والفلسفة ، وأرباب الأسرار باسم الزهد والتصوف ، وجلها كُفرات صُلع ، لا يطمع الأعداء أن يدسوا في فكرنا أشد ضلالا منها .

منها ما نسب زورا وبهتانا لأعلام أئمة وأُلصق بهم حتى يروج على العوام ، ومنها ما صدر عن دعاة الفكر ناشز الدخيل على ملة الإسلام من أفكار فلاسفة والمتصوفة والباطنية ، وغيرهم .

ومن ذلك ما نُسب إلى الإمام عبد القادر الجيلاني باعتباره الغوث الأعظم ، المستوحش من غير الله ، المستأنس بالله ، ولا يصح عنه ذلك .

قال اللهُ تعالى : ياغوثَ الأعظم . قلتُ : لبيك يا رَبَّ الغوث . قال :كُلُّ طَوْرٍ بين الناسوت والملكوت فهو شريعةٌ ، وكُلُّ طَوْرٍ بين الملكوت والجبروت فهو طريقةٌ،وكُلُّ طَوْرٍ بين الجبروت واللاهوت فهو حقيقةٌ،يا غوث الأعظم ، ما ظهرتُ فى شيءٍ كظهورى فى الإنسان . يا غوث الأعظم ، مَنْ قصَّر عن سفرى فى الباطن ،

---

(١) مصرع التصوف لنصير الدين البقاعي : ١٥٠ .

ابتُلى بسفر الظاهر ولم يزدد منى إلا بُعداً . . ومَنْ أراد العبارة بعد الوصول ، فقد أشرك ، ومَنْ رآنى استغنى عن السؤال فى كل حال ، ومَنْ لم يرنى لم ينفعه السؤال ، لأنه محجوب بالمقال» (١) .

ومعلوم أن مثل هذا الهذيان لا يشهد له نقل صحيح ، ولا يقره عقل صريح ، لأنه من اختراع الباطنية الروافض الذين انمحت دولتهم العبيدية على يد صلاح الدين الأيوبي ، فدسوا هذا المجون في كتب التراث ، و نسبوه إلى الأئمة الصالحين ، ليروج على العوام ، ويزلزلوا ثقتهم بنصوص الشريعة .

ومنها عقيدة التثليت في فصوص ابن عربي . حيث يقول : «إن الأصل الساري في بروز أعيان الممكنات هو التثليث ، والأحد لا يكون عنه شيء البتة ، وأول الأعداد الإثنان ، ولا يكون عن الإثنين شيء أصلا ، مالم يكن ثالث يربط بعضهما ببعض ، فحينئذ يتكون عنها ما يتكون» (٢) .

ولا يُعرف في تراث الإسلام أضل من هذا السخف الذي هو تسويغ ممجوج لعقيدة التثليث النصرانية ، مع تظافر الأدلة القطعية في القرآن والسنة على عقيدة التوحيد ، ونفي عقائد المجوس الثنوية ، وعقيدة التثليث النصرانية ، كما قال تعالى : ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة:٧٣] .

وقد بالغ وأمعن في هذا الضلال حيث قال : «إن الله سمى القائل بالتثليث كافرا ، أي ساترا بيان حقيقة الأمر فقال : ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ فالقائل بالتثليث ستر ما ينبغي أن يكشف صورته ، ولو بين لقال هذا الذي قلناه » (٣) .

---

(١) مقال فصوص النصوص الصوفية الغَوْثيةُ د.يوسف زيدان- جريدة المصري اليوم ٦ يناير ٢٠١٠م.

(٢) الفتوحات المكية لابن عربي : الباب ٣٣٣ .

(٣) الفتوحات المكية لابن عربي : الباب٣٣٣ و هذا التلاعب بالنصوص و اللغة ، فأين هو تمام الآية : ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ، الذي يقطع لسان كل متخرص .

وابن عربي الحاتمي كان من عصابات الباطنية الحشاشين أتباع عمرو بن الصباح الذين بذرتهم الصليبية في جبل لبنان ليكونوا طلائع وعيونا لغزوها الخسيس لأمصار المسلمين في بلاد الشام [١] .

وقد كشف العلماء عن دعوته الى وحدة الوجود ، ووحدة الأديان كنصير الدين البقاعي في «مصرع التصوف » ، وعماد الدين ابن شيخ الحزامين في «باشورة النصوص في هتك أستار الفصوص» .

وقد أطبقت أقوال العلماء على ذم ابن عربي وكشف حقيقة فصوصه ، قال العز بن عبد السلام : «هو شيخ سوء كذاب ، يقول بقدم العالم ولا يحرم فرجا» [٢] .

وقال الإمام الذهبي : «ومن أردأ تواليفه كتاب الفصوص فإن كان لا كفر فيه فما في الدنيا كفر» [٣] .

وقال تقي الدين السبكي : «ومن كان من هؤلاء الصوفية المتأخرين كابن عربي وغيره فهم ضلال جهال خارجون عن طريقة الإسلام» [٤] .

وقد احتفت دوائر المستشرقين والصليبيين بهذا الكتاب لما فيه من خدمة مأجورة لأعداء الإسلام ، يقول الشيخ محمد الغزالي : «لقد اطلعت على مقتضبات من الفتوحات المكية لابن عربي ، فقلت كان ينبغي أن تسمى الفتوحات الرومانية ، فإن الفاتيكان لا يطمع أن يدس بيننا أكثر شرا من هذا اللغو» [٥] .

ومن المكر بالمعرفة الإسلامية أن جامعة السوربون اتفقت مع إحدى العواصم

---

(١) تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل لمحمد الغزالي :٦١.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ٤٨.

(٣) سير أعلام النبلاء : ٢٣ / ٤٨ .

(٤) مغني المحتاج للخطيب الشربيني ٣/ ٦١.

(٥) تراثنا الفكري في ميزان الشرع و العقل : ٦٠ .

العربية على طبع كتاب الفتوحات المكية في ثلاثين مجلدا ، وأصدرت منه ثمانية أجزاء . ويدرس هذا الخبث اليوم لطلاب العلم في بعض الجامعات باسم التصوف الإسلامي .

ومنها فصوص خرافية تسربت إلى علم التوحيد ومن أغربها عجائب الباجوري الأشعري ، في تفسيره لعرش الله ، حيث قال : «هو جسم نوراني علوي عظيم ، قيل من نور ، وقيل من زبرجد ، وقيل من ياقوتة حمراء ، هو قبة فوق العالم ، ذات أعمدة أربعة ، تحمله أربعة من الملائكة في الدنيا ، وثمانية في الآخرة ، لزيادة الجلال والعظمة ، رؤوسهم عند العرش في السماء السابعة ، وأقدامهم في الأرض السفلى ، وقرونهم كقرون الوعل ، ما بين أول قرن ومنتهاه مسيرة خمسمائة عام» [١] .

وهذا كذب ممجوج مستنده الظن والتخرص ، واختلاق التوهمات التي لم ترد في كتاب ولا سنة . ثم أعجب منه حديثه عن أعمال العباد ،وكيف تتلقاها الملائكة ، ويلقي المباح منها في عرض البحار ! حيث يقول «يكتب الرقيب والعتيد أعمال الإنسان وأقواله ، من خير وشر ، ومن مباح أما المباح فيلقى به في عرض البحر ، في يوم الإثنين والخميس من كل أسبوع ، فتلتهمه حيتان البحر فتموت منه لنتنه ، فيخرج منه دود يأكل الزرع» [٢] .

وهي ظنون وأوهام ، جناها على قوم العصبية والتقليد ، وهو عريق في الآدميين وسليل ، لعقيدة جامدة في قوالب الأراجيز والمتون يتلقفها اللاحق عن السابق ، دون أن يفطن أن في جوانحها السم الزعاف . و الباجوري هذا هو شيخ المصنفين في علم التوحيد في عصور الانحطاط ، ما من متوني حشوي إلا وهو يحفظ جوهرته في العقيدة .

---

(١) تحفة المريد حاشية جوهرة التوحيد لإبراهيم اللقاني : ١٥٧ .

(٢) تحفة المريد ١٥٧ ،عن أحمد صبحي في علم الكلام :٣٨٣.

ومن فصوص خلق من العلمانيين المعاصرين لي أعناق نصوص «الفقه السياسي» أو إنكارها واستبعادها ، لتوافق أهواء النظام العالمي الجديد ، وتساير المواثيق الدولية والثقافة الكونية الحديثة .

ومن ذلك إنكارهم لحديث : « إن هذا الأمر في قريش ، لا يعاديهم أحد إلا كبه الله في النار على وجهه ، ما أقاموا الدين» (١) .

فقد زعموا أن البخاري ومن رووا هذا الحديث قد عملوا على إعدام مبادئ الديمقراطية والشورى والتنوير التي نصت عليها السنة والكتاب ، لأنه حديث جعل الخلافة محصورة في قريش ، وهذا يتنافى مع مبادئ الديمقراطية والأنظمة السياسية الحديثة !!

وهو حديث ثابت عن النبي ﷺ لادخل فيه لاجتهاد الرواة أو الفقهاء ، قد تلقته الأمة بالقبول وسلم به الصحابة ، فجعلوا الخلافة في قريش ولم يروها لغيرهم ، وظلت فيهم لا ينازعهم فيها أحد ولا يدعيها ، حتى ظهر أوباش العبيديين ، وتستروا بالنسب الفاطمي وأعملوا السيف في رقاب أهل السنة ، وتألهوا على العباد ، وادعوا الخلافة لأنفسهم .

قال الإمام الجويني فالشرط أن يكون الإمام قرشيا ، ولم يخالف في اشتراط النسب غير ضرار بن عمرو ، وليس ممن يعتبر خلافه ووفاقه ، وقد نقل الرواة عن النبي ﷺ أنه قال : «**الأئمة من قريش**» وذكر بعض الأئمة أن هذا الحديث في حكم المستفيض المقطوع بثبوته ، من حيث إن الأمة تلقته بالقبول» (٢) .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الأحكام، باب الأمراء في قريش : ٦/ ٢٦١١ ومسلم في الصحيح ٣/ ١٤٥٢ والإمام أحمد في المسند حديث ٦١٢١ ، وابن حبان في صحيحه : ١٤/ ١٦٢ ، والدارمي في السنن : ٢/ ٣١٥ والبيهقي في السنن الكبرى : ٨/ ١٤٣. وخلائق لايحصون كثرة .

(٢) غياث الأمم في التياث الظلم للجويني : ٤٤ .

وذكر الجويني : «أن الماضين مازالوا بايحين باختصاص هذا المنصب بقريش ، ولم يتشوف قط أحد من غير قريش إلى الإمامة ، على تمادي الآماد وتطاول الأزمان ، مع العلم بأن ذلك لو كان ممكنا لطلبه ذوو النجدة والبأس ، وتشمر في ابتغائه عن ساق الجد أصحاب العدد والعُدد فلو كان إلى ادعاء الإمامة مسلك ، أو له مدرك ، لزاوله محقون أو مبطلون من غير قريش» [١] .

فلم يخالف في اشتراط القرشية في تنصيب الخليفة سوى ضرار بن عمرو من الخوارج ، والعلمانيون من أهل زماننا ، وتبعهم على ذلك بعض دعاة التنوير من حشو الإسلاميين ، ولا بأس ، فلكل أمة حشو ، ولسنا بحاجة إلى مظاهرتهم حتى نصدق حديث رسول الله ﷺ ، فما نعيقهم عندنا إلا كصرير باب ، أو طنين ذباب ، بل لا عبرة بخلاف أهل الأرض جميعا إذا صح الحديث عن نبي الأمة بخلاف رأيهم . فإنما غرض هؤلاء العلمانيين الاستخفاف بمقام النبوة والرد والاستدراك على الشريعة ، وما ذا يبقى من الدين بعد ذلك ؟!

ثم أي ديمقراطية كانت في زمان السلف حاربها أهل الحديث؟ أهي ديمقراطية الحزب الواحد ، وتزوير الانتخابات ، وشراء الضمائر ، والضحك على أذقان العباد ، والعبث بمصالح الناس ، وسرقة أموال الأمة بالجملة ؟ ، ثم ظهور الذئاب بعد ذلك في الحملات الانتخابية بمظاهر النزاهة ، وروح الوطنية ، وخدمة الصالح العام .

فكيف يتشدق هؤلاء بعد ذلك بالطعن في الفقه السياسي الإسلامي الذي لم تعرف سموه وعدالة أحكامه نظمهم الخسيسة التي التقطوها من قمامات الأنظمة اليسارية واللبرالية النتنة البالية في بلاد الغرب ، التي نقلوا منها معارفهم وسياستهم البائدة .

إن الإسلام لا يعرف نظاما سياسيا بهذه الخسة والدناءة ولو سماه الناس

---

(١) غياث الأمم للجويني : ٤٤ .

ديمقراطية ونزاهة ، وعبثوا بها كيف شاءوا ، بل يعرف الشورى التي تنضبط بسياسة الشريعة ، ولا تسوي بين صوت العالم وصوت الجاهل ، ولا تضع مصالح المسلمين عرضة لنهب الجياع والجهلة العاجزين ، بل تحفظ للأمة كرامتها باختيار الأكفاء الأمناء ممن يقال في أمثالهم : ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ [القصص:٢٦] .

وشتان بين نظام يقدم من ترشحه الأمة ، ونظام يقدم المتاجرين بالضمائر والذمم ، يشترونها بأموال الأمة ، ثم يبيعونها بثمن بخس في سوق العبث بالمصالح العامة ، ونهب خزائن الشعوب .

*****

٨ ـ العبرة في العلوم بكلام العلماء الراسخين

من قواعد التلقي في المعرفة الإسلامية وقراءة التراث مراجعة أهل الرسوخ في الصنائع و العلوم وذوي الخبرة والاختصاص ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [الأنبياء:٧] ، فإن العبرة في تحقيق المعارف والعلوم بأقوال العلماء الراسخين ، لا بدعاوى المتعالمين .

إذ كل العلوم لها أسوار وأبواب ، لا يتسورها أو يلجها إلا من كان من أهل الاختصاص ، وعلوم الإسلام أولى بالرعاية والصيانة من غارة المتطفلين الوراقين ، ممن همتهم الدعاوى والتشبع بكلام العاطلين الأغمار ، لا مراجعة العلماء الكبار ، أو مثافنة الأئمة الأحبار .

وقد حذر الشارع من فتنة الرؤوس الجهال ، كما في حديث ،عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ قال : «**إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**» (١) .

قال الإمام مالك :« إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم ، لقد أدركنا في هذا المسجد سبعين ممن يقول قال فلان قال رسول الله ﷺ وإن أحدهم لو ائتمن على بيت مال لكان أمينا عليه فما أخذت منهم شيئا ، لم يكونوا من أهل هذا الشأن ، ويقدم علينا محمد بن مسلم بن شهاب الزهري وهو شاب فنزدحم على بابه» (٢) .

فعلى طالب العلم الحذر من تعالم الصحفية ، فليس كل من نتش سطرا ، وحمل

---

(١) أخرجه البخاري حديث ٩٨، وأحمد في المسند،٦٢٢٢ والترمذي ٢٥٧٦. وابن ماجه في السنن ٥١.

(٢) الآداب الشرعية ، لابن مفلح : ٢/ ٢٣٣.

قلما وحبرا ، صار حَبراً وبحراً ، يشار إليه بالبنان ولا يُقعقع له بالشنان ، فإن الزمن كشاف ، ومن لم يواثق العلماء بالركب ، لايوثق بعلمه ، فقد اشتهر بين السلف قولُ أبي زرعة :«لا يفتي الناس صحفي ، ولا يُقرئهم مصحفي» [١] .

وكم لزَّ بين العلماء اليوم ممن هذه حاله من الأدعياء ، الذين أسقطوا برقع الحياء ، وصاروا يتولجون كل معرة ، ويحشرون أنوفهم في كل معضلة ، حتى صار العلم يُلتمس في زماننا عند الأصاغر والعميان ، ممن تصدروا للناس قبل الأوان ، فصار تمييز الراسخين من الدخلاء عسيرا مع كلال الأذهان ، وضعف الخبرة بتعالم الصبيان .

لذلك كثر اليوم في سوق البطالين شغب على التراث الإسلامي من لدن العاطلين من العلم ، الذين ملؤوا أندية الجهالة بصحفهم المصحفة المحرفة ، يلتمسون فيها تاريخا ممسوخا من كتاب الأغاني ، وأخبارا موضوعة من بدائع الزهور ، وسيرا ممجوجة من فتوح الشام ، وقصصا مكذوبة من عرائس المجالس ، وأفكارا سخيفة من رسائل إخوان الصفا وفتوحات ابن عربي ، ثم يزخرفون للمسلمين خيالات وأوهاما بناء على ذلك ، ويقولون هذا تراثكم وتاريخكم .

و هو صنيع كثير من العابثين بالتراث كجرجي زيدان ، وفيليب حتى ، وطه حسين ، وحسن حنفي ، وطيب تزيني ، وفاطمة المرنيسي ، ونوال السعداوي ، وغيرهم من الناقلين عن كل من هب ودب ، نكاية بالمسلمين ودسا في المعرفة والتراث ما يضر ولاينفع .

فمقتضى القاعدة ألا يُلتمس تنقيح التراث الإسلامي ولا تفسير التاريخ من غير الراسخين ، فلا تطلب الحكمة عند العميان ، ولا يلتمس الحديث من الصبيان ، ولا التفسير عند الأدباء ، ولا الفقه من الأطباء ، ولا الفصاحة من غير البلغاء . كما

---

(١) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي.

لا يستشار فقيه في دقائق الكيمياء ، ولا نحوي في قواعد الفيزياء ، إلا أن يكونوا ممن جمع شتات الصنائع والعلوم ورسخ فيها .

أما الصحفيون المتنقلون بين حدائق العلوم ، الخائضون بجهل في شبه الفهوم ، فأمة من المشاغبين ، يكثرون الصياح ، ولا يحسنون في ليالي الجهل سوى النباح ، حتى إذا سطع فجر العلم لم يأتوا بخير في الصباح ، كبغاث الطير تراها تقفز من هنا إلى هناك على عجل ، وتبني أعشاشا على وجل ، ثم تلد أفراخا مهازيل ، لا تصلح لصيد ولا قيد .

وترى صقور العلماء أمة من الصامتين ، تنوب عنهم صنائعهم وتصانيفهم القليلة في النطق والكلام ، لا يعرفهم سوى صفوة الأمة ، فالحذر الحذر من الأحداث ، فإن الغالب منهم الإحداث .

بُغاث الطير أكثرها فراخا وأم الصقر مُقلاتٌ نزورُ

ومن عجائب حال الناس في هذا الزمان ، أنهم انخدعوا بزعماء أصحاب رسوم وطيلسان ، ليس لهم من مسمى الإمامة سوى العمامة ، قد طارت شهرتهم بين العوام ، وإن لم يكن لهم حظ في صنائع الإسلام ، تراهم قد سلموا إليهم الزمام في كل رياسة ، وتقلدوا نحلهم في الفكر والسياسية ، ولاذوا بهم في كل معضلة ، وصاروا يتغنون بكلامهم كأنه قرآن ، ولا بأس فالأعمش في بلاد العمي سلطان .

فإذا بالمتبوع الجاهل المقدم عند هؤلاء يصبح عالما بالفتاوى والأحكام ، والسنن والقرآن ، والمقاصد التعليل ، والتاريخ والتفسير ، وفقه الواقع والسياسة وطرائف الحكمة والكياسة .

ولا عجب فنحن في زمان التخلف ، حيث صار إصلاح أحوال الأمم يختزل في فكر الرجل الواحد ، الذي يرى نفسه «صاحب مشروع أمة» ، وحامل عصا موسى في كل معضلة ، يتلقف بها ما يافك الروس والأمريكان ، ويواجه حضارة الصين

واليابان ، وما تحدث للناس من أقضية أو تنزل بهم من نوازل إلا عنده حلها ، في مختلف قضايا الفكر والتعليم والاقتصاد والسياسة ، فلا تسأل بعد هذه الدعاوى الكاذبة عن تضليل الأتباع ومحنة المخدوعين بهذا الخبال .

قال الحجوي الثعالبي «وليست الفتوى بطول الأردان ، وإرخاء الذوائب كذنب الأتان ، والهذر باللسان إذا خلا الميدان فهذا من الضرب الذين يستفتون بالشكل لابالفضل ، ويأكلون بالعمائم والأكمام ، لا بالعلوم والأحكام ، تعج منهم الحقوق إلى الله عجيجا وتضج الأحكام من أقلامهم ضجيجا» [(١)] .

غوائل التعالم والأخذ عن غير المختصين :

قد تقرر أن لكل علم رجالا وأعلاما انقطعوا إليه وعرفوا به ، إذ لا ينبل في العلم إلا من انقطع له وعكف عليه زمنا ، وأما الأحداث المتنطعون فلم يأت منهم خير يرجى للعلم والمعرفة . وقديما قيل :

تصدر للتدريس كل مهوس ... بليد تسمى بالفقيه المدرس
فحق لأهل العلم أن يتمثلوا ... ببيت قديم شاع في كل مجلس
لقد هزلت حتى بدا من هزالها ... كلاها وحتى سامها كل مفلس

قال الذهبي : «ولا سبيل إلى أن يصير العارف الذي يزكي نقله الأخبار ، ويجرحهم جهبذا إلا بإدمان الطلب ، والفحص عن هذا الشأن ، وكثرة المذاكرة ، والسهر ، والتيقظ ، والفهم ، مع التقوى ، والدين المتين ، والإنصاف والتردد إلى مجالس العلماء وإلا تفعل .

فدع عنك الكتابة لست منها ... ولو سودت وجهك المداد

فإن آنست يا هذا من نفسك فهما وصدقا ودينا وورعا وإلا فلا تتعن ، وإن غلب عليك الهوى والعصبية لرأي ولمذهب فبالله لا تتعب! وإن عرفت أنك مخلط مخبط ،

---

(١) الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي : ٢/ ٤٣١ .

مهمل لحدود الله ، فأرحنا منك ، فبعد قليل ينكشف البهرج ، وينكب الزغل ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله» [١] .

ومن آثار أخذ المعارف عن غيرها أهلها ، ما ظهر اليوم من العبث بالفتاوى والأحكام ، باسم التجديد والاجتهاد ، من لدن أقوام يحشرون أنفسهم في مضايق من العلم ، لم يتأهلوا لها ، مع أن التجديد لا يكون إلا بعد قتل الماضي بحثا ، والرسوخ في قواعد العلوم .

فترى بعض المستعجلين ، ممن أخذوا نفتا من الشرع وخلطوها بأمشاج من فقه الجرائد والصحف ، وشيء من الفلسفة والقانون ، يحللون ويحرمون ويصححون ويضعفون ، مع أنهم لم يشموا لصناعة الفقه والحديث رائحة ، كما تجد لمؤلفات هؤلاء عند أنصاف المثقفين الطيران الحثيث ، فبضائعهم نافقة ، وصنائع العلماء بإزاء جهالاتهم عند العوام كاسدة ، وذلك من آثر داء التعالم .

ومنهم قوم ممن يتقفرون العلم ركبوا مطايا الخير للشر وتجرؤوا اليوم على مراجعة السنة ، بمقاييس أغفلها المحدثون بزعمهم ، لأنهم قرأوا فتاوى فلاسفة ومفكرين يحملون علما مغشوشا عن الإسلام .

كمحمد عابد الجابري الذي ظل يدعو إلى مراجعة السنة وفق مقاييس العصر في إطار تدوين جديد للتراث ، ويرى إن للمحدثين أن يصححوا ويضعفوا على شروطهم ، وأن لنا أن نعيد النظر اليوم في تلك الأحاديث على شروطنا ، ويرى أنه في ذلك مجتهد إن أصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر واحد [٢] .

وآخرون من دعاة المدرسة العقلانية أصحاب دعاوى عريضة في التجديد والاجتهاد ، يرون ضرورة إسقاط حدود الله لتغير الزمان ، احتراما للشرعية الدولية

---

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي : ١/ ٣.

(٢) عن محاضرة للدكتور محمد عابد الجابري : بجامعة محمد الخامس : ١٩٨٧م .

في حقوق الإنسان وحرية الأديان ، بدعوى أن النصوص ظنية في هذا الباب ، وأن المصلحة تقتضي الرفق بالمتمردين ، حتى لا يُتهم الإسلام بالعنف والإرهاب ، وينفر الناس من هذا الدين .

كما تجد اليوم سخافات بالية تدرس في فقهنا الإسلامي من لدن وعاظ أغفال لاخبرة عندهم بأصول النظر ، ومراعاة الواقع والمآل ، تراهم يشلون حركة الإسلام ، ويسيئون إليه من حيث يظنون أنهم يحسنون ، وأكثرهم يصلح أن يكون راعيا خلف البقر ، لا أن يقود أمة من البشر .

منهم رجل واعظ متحذلق مغرم بكل عجيبة ، أفتى الشباب المتغرب في بلاد الغرب باستباحة «زواج المتعة» حالة خوف العنت ، أخذا بمذهب الإمامية ، لأنه من حيث النظر المقاصدي أخف ضررا من الزنا ، ولأن مذهب الإمامية مذهب إسلامي يجوز الاختيار منه !!

مع أن زواج المتعة هو الزنا بعينه ، فأي نظر مقاصدي هذا الذي يجعله أخف ضررا من الزنا . والشريعة لا تفرق بين المتماثلين ، ولا تجمع بين المتناقضين .

وهو رأي سخيف أفتى به الشيخ أحمد حسن الباقوري ، الذي كان من الإخوان المسلمين ، ثم لحقه الخذلان بعد توليه وزارة الأوقاف في عهد جمال عبد الناصر ، واتبع معرة الشيطان ، و تبعه عليه بعض الدعاة في الغرب ! وقد بنى رأيه على أن زواج المتعة ، كان حكما اقتضاه واقع الحال زمن النبوة ، وهو يقتضيه الحال في واقع حال شباب المسلمين ، أمام فتنة النساء الغربيات في دار الغربة [١] .

بناء على رأي شاذ لمن يرى «أنه يمكن الرجوع إلى الحكم المنسوخ ، إذا عادت نفس أسباب تشريعه» [٢] . وهو نظر سقيم لا تسعفه الأدلة ، ولن يبقى معه حكم

---

(١) انظر «مع القرآن» لمحمد الباقوري : ١٦٧.

(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور : ٥/ ١١.

منسوخ في الشريعة أبدا !!

كما احتج بفتاوى العلماء في الزواج بنية الطلاق كما قال الباجي الأندلسي من فقهاء المالكية «من تزوج امرأةً لا يريد إمساكها ، إلا إنه يريد أن يستمتع بها مدةً ثم يفارقها ، فقد روى محمد عن مالك أن ذلك جائز »[١] . وقد قال مالك : « ليس هذا من أخلاق الناس»[٢] .

وهذا خلط عجيب ، فإنه لا وجه للمقارنة بين زواج المتعة الذي يُصرح فيه بالتوقيت الذي يُبطل العقد ، وبين الزواج بنية الطلاق الذي يُضمر فيه الزوج نية الطلاق دون أن يصرح بها في العقد .

ومنهم زعيم حركة إسلامية كثيرة الصياح ، يقول : « إن الإسلام يقوم على الحرب الهجومية ، ويعتمد على التوسع العسكري ، ويجعل السيف أساس علاقاته بالآخرين »[٣] .

ويستدل على هذا الفقه الكاسد بأن النبي ﷺ خرج من المدينة مغيرا على قافلة قريش ، وكان يقيم بها آمنا . وهو كلام في غاية الغثاثة والاختلال ، فإنما خرج النبي ﷺ بأمره تعالى : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج:٣٩، ٤٠] .

فكانت غارة المسلمين من باب رد العدوان والمعاملة بالمثل ، إذ أخرجوا من ديارهم بمكة ، وصودرت عقائدهم وأموالهم ، واستبيحت ذرياتهم ، فأذن الله لهم في الثأر لأنفسهم ممن ظلموهم .

وتجد من ينحو هذا المنحى ويتمسك بفهم سيء لقول النبي ﷺ : «**بُعثت بالسيف**

---

(١) المنتقى بشرح موطأ الإمام مالك : ٣/ ٣٥٥ ، مع القرآن للباقوري : ١٧٦ ، ط مصر ١٩٧٠ م .

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي : ٩/ ١٨٢ .

(٣) تراثنا الفكري في ميزان الشرع و العقل :٦٢ .

بين يدي الساعة ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذل والصغار على من خالف أمري» [١] . فيزعم أن الإسلام دين حرب وعدوان على المخالفين إلى قيام الساعة . ويقدم بذلك صورة مشوهة للفقه الحضاري الذي دبجه يراع السلف .

وإبان بدايات الصحوة الإسلامية في الجزائر خرجت المناضلات الشيوعيات يتصايحن في مظاهرة ضد أقوال نشار وآراء بالية صرح بها بعض خطباء الإسلاميين ، بثت الرعب في نفوس الناشزات ، وكذلك المستقيمات منهن ، إذ قال أحدهم : «الإسلام يرى أن المرأة إنما خلقت لتلد الرجال» ، وقال آخر : «مقارُّ النساء البيوت ، ما يخرجن منها إلا لزوج أو لقبر» . وقال ثالث : «ينبغي أن تظل الفتاة أمية لا تكتب ولا تحسب» و أرتفق رابعهم فقال : «حسب الفتاة إتمام المرحلة الابتدائية في التعليم ، وما وراء ذلك لا داعي له» . حتى إن طالبة ساذجة في بعض المعاهد قالت : «أما يوجد دين آخر أرفق بنا من الإسلام؟» [٢] .

وقد استغل الشيوعيون هوس هؤلاء الجهال وشغبوا به على الإسلام في وسائل الإعلام ، فلم يجن المسلمون من ذلك سوى الفتن والمعارك الخاسرة التي خرجوا منها بخفي حنين .

ومن غرائب الفهم السيء للدين أن طالبات في جامعة الأمير عبد القادر بالجزائر كن يُهددن من طرف غلمان انتسبوا إلى الصحوة وكانوا عبئا عليها بأن لا يسألن الأستاذ بعد المحاضرة ، «لأن صوت المرأة عورة» فكن يحجمن عن الكلام خجولات خائفات من أذى هؤلاء الطائشين المراهقين في فهم الإسلام .

فهذه قوارع تفت في عضد العلم والمعرفة الإسلامية التي تشكو إلى الله هذا

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٥١١٤، وابن أبي شيبة في المصنف : ٦/ ٤٧٠، وأعله أبو حاتم بسعيد بن جبلة الشامي علل ابن أبي حاتم١/ ٣١٩ ، وقال الذهبي في السير : ١٥/ ٥٠٩ : إسناده صالح .

(٢) تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل للغزالي : ٤٨ بتصرف .

الخبال الذي ابتليت به من غير أهلها ، ومن كل من هب ودب ، من مخلص جاهل ، أو متعالم كذاب .

لو كان سهم واحد لاتقيته ولكنه سهم وثان وثالث

ولو اهتدى الناظرون في التراث الإسلامي بكلام الراسخين ، وتحاشوا سخافات المتعالمين لأراحوا أنفسهم وأراحوا المسلمين من كثير من اللغو واللغط ، الذي ضيع على الأمة أعمارا ، وأفنى جهودا ، وأعقبها محنة و خسارا ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

*****

٩ ـ لا يؤمر عالم بالتقليد ولا عامي بالاجتهاد

فالواجب معرفة مراتب الناس في العلم والمعرفة بالأدلة ، والقدرة على النظر في تراث المتقدمين ، فإن ذلك ليس في مكنة كل أحد ، فلا يؤمر عامي جاهل بالاجتهاد ، كما لا يحجر على عالم بلغ مدارك النظر أن يقلد رأيا ، أو أن يلزم مذهبا بعينه لا يعدوه في أصل ولا فرع ، فإن سلامة العالم في اتباع الدليل ، وتحري الحق في مظانه بالتتبع والاجتهاد ، والعامي ليس له إلا التقليد أوالإتباع .

قال الإمام الذهبي : « من بلغ رتبة الاجتهاد وشهد له عدة من الأئمة لم يسغ له أن يقلد ، كما أن الفقيه المبتدئ والعامي الذي حفظ القرآن أو كثيرا منه لا يسوغ له الاجتهاد أبد ، فكيف يجتهد ، وما الذي يقول ، وعلام يبني ، وكيف يطير ولما يريش ».

والقسم الثالث ، الفقيه المنتهي اليقظ الفهم المحدث الذي حفظ مختصرا في الفروع ، وكتابا في قواعد الأصول ، وقرأ النحو ، وشارك في الفضائل ، مع حفظه لكتاب الله وتشاغله بتفسيره ، وقوة مناظرته ، فهذه رتبه من بلغ الاجتهاد المقيد ، وتأهل للنظر في دلائل الأئمة الأعلام ، فليتبع فيها الحق ، ولا يسلك الرخص ، وليتورع ، ولا يسعه فيها بعد قيام الحجة عليه تقليد ، فإن خاف ممن يشغب عليه من الفقهاء فليتكلم بها ولا يتراءى بفعلها »[1] .

فالعوام الذين لم يبلغوا مدارك النظر والاجتهاد ليس لهم إلا التقليد واتباع العلماء الأعلام ممن شهدت لهم الأمة بالفضل والعلم والدين المتين،لأن تكليفهم بتحصيل مدارك النظر والاجتهاد للنظر في مسائل العلم هو تكليف بما لا يطاق ، لم تأت به الشريعة .

---

(١) سير أعلام النبلاء : ١٨/ ١٩١.

قال أبو حامد الغزالي : «الإجماع منعقد على أن العامي مكلف بالأحكام ، وتكليفه طلب رتبة الاجتهاد محال ؛ لأنه يؤدي إلى أن ينقطع الحرث والنسل وتتعطل الحرف والصنائع ويؤدي إلى خراب الدنيا لو اشتغل الناس بجملتهم بطلب العلم ، وذلك يرد العلماء إلى طلب المعايش ويؤدي إلى اندراس العلم بل إلى إهلاك العلماء وخراب العالم ، وإذا استحال هذا لم يبق إلا سؤال العلماء» [١] .

وليس شرطا أنْ يُلزم عوام المسلمين باتباع إمام بعينه ، فإن ذلك لم يوجبه الشرع على أحد من المسلمين ، لأن هذا لا يكون إلا من جهة السمع ، ولا نص في المسألة خلافا لما ادعته الشيعة في أئمتها .

قال العز بن عبد السلام : «الناس لم يزالوا من زمن الصحابة إلى أن ظهرت المذاهب الأربعة يقلدون من اتفق من العلماء من غير نكير من أحد يعتبر إنكاره ، ولو كان ذلك باطلا لأنكروه وكذلك لا يجب تقليد الأفضل وإن كان هو الأولى ، لأنه لو وجب تقليده لما قلد الناس الفاضل والمفضول في زمن الصحابة والتابعين من غير نكير ، بل كانوا مسترسلين في تقليد الفاضل والأفضل ولم يكن الأفضل يدعو الكل إلى تقليد نفسه ، ولا المفضول يمنع من سأله عن وجود الفاضل وهذا مما لا يرتاب فيه عاقل» [٢] .

وقال الإمام محمد عبد العظيم بن ملا فروخ : «اعلم أنه لم يكلف الله تعالى أحدا أن يكون حنفيا ، أو مالكيا ، أو شافعيا ، بل أوجب عليهم العمل بما بعث به محمدا ﷺ والعمل بشريعته مما علم من الدين بالضرورة ، فذلك لا يتوقف فيه على اتباع مجتهد معين ، بل كل مسلم عليه اعتقاد ذلك ، وأما مالا يتوصل إليه إلا بضرب من النظر والاستدلال ، فمن كان قادرا عليه بتوفر آلته وجب عليه فعله كالأئمة

(١) المستصفى من علم الأصول للغزالي : ٢/ ٤٣٥ .

(٢) قواعد الأحكام في مصالح الأنام : ٢/ ٢٧٧.

المجتهدين ، ومن لم يكن له قدرة عليه وجب عليه اتباع من أرشده إلى ما كلف به من أهل النظر والاجتهاد والعدالة» [١] .

وقد ابتلي تاريخ المعرفة الإسلامية بقوم تحجروا واسع فضل الله ، وألزموا الناس بظنونهم وأوهامهم في الرأي والنظر ، فتراهم يضيقون ذرعا بالمفكرين الأحرار ، ويفاصلونهم على مخالفة المذهب ، وينسبونهم إلى مخالفة أصول الملة ، وذلك سبيل أهل الأهواء ، يمنعهم من التسليم لأهل النظر والاجتهاد ، وقبول الرأي المخالف العصبية الباردة وحب المكاثرة بالأتباع ، واعتقاد المريدين بالمقالات .

قال بدر الدين الزركشي : «وقد رام بعض الخلفاء زمن مالك حمل الناس في الآفاق على مذهب مالك فمنعه مالك واحتج بأن الله فرق العلم في البلاد بتفريق العلماء فيها ، فلم ير الحجر على الناس ، وربما نودي : «لا يفتي أحد ومالك بالمدينة» قال ابن المنير : وهو عندي محمول على أن المراد : لا يفتي أحد حتى يشهد له مالك بالأهلية ، وذكر بعض الحنابلة أن هذا مذهب أحمد ، فإنه قال لبعض أصحابه : لا تحمل على مذهبك فيحرجوا ، دعهم يترخصوا بمذاهب الناس . وقد كان السلف يقلدون من شاؤوا قبل ظهور المذاهب الأربعة» [٢] .

والأصل أن يُترك العلماء لاختياراتهم في النظر في المذاهب ، وقراءة التراث ما أسعفتهم الأدلة ، ووسعتهم ملكة النظر والاجتهاد ، ويُصد عن ذلك عوام المقلدين الذين لا يُقبل منهم سوى التقليد والانصياع لآراء أهل العلم ، لتحريم القول على الله بغير علم .

قال الإمام الغزالي «والذي يدل عليه أن تقليد من لا تثبت عصمته ولا يُعلم بالحقيقة إصابته ، بل يجوز خطؤه وتلبيسه حكم شرعي لا يثبت إلا بنص أو قياس

---

(١) قواعد التحديث للقاسمي : ٣٧٨.

(٢) البحر المحيط في الأصول : للزركشي : ٨ / ٢٦١ .

على منصوص ، ولا نص ولا منصوص إلا العامي والمجتهد ، إذ للمجتهد أن يأخذ بنظر نفسه وإن لم يتحقق ، وللعامي أن يأخذ بقوله »[١] .

فالواجب أن يُنزل الناس منازلهم في العلم والمعرفة ، والاجتهاد والتقليد ، فيعرف العالم المجتهد ، والفقيه المقتصد ، من الواعظ المبتدئ والقصاص الذي لا يقيم الفتوى ولا يدري منازل الأحكام ، ويتميز هؤلاء عن الصحفي الوراق ، الذي يحسن نشر أفكار ومعلومات في الصحف ، ولا يحسن الحديث عن تراث الأمة وتاريخها .

ومنهم من لايؤمن على دين الأمة ، كما قال مروان بن محمد الظاهري : «ثلاثة لا يؤتمنون في دين : الصوفي ، والقصاص ، ومبتدع يرد على أهل الأهواء »[٢] .

كما ينزل الرجل ذو الحنكة والتجربة السياسية في مقارعة الخصوم في مقامه ، فلا يكلف تنظير أفكار ، ولا تحبير فتاوى وأحكام ، ولا تصحيحا ولا تضعيفا ، بل لو تورع في أمر الحلال والحرام ، ولم يقتحم مرادي الأهواء ، فهو ذاك . ومن أحصى عدته ، وأدرك زاده ، علم غايته ومرامه ، ولا يكلف الله نفسا إلا ما أتاها .

*****

(١) المستصفى من علم الأصول : ٢/ ٤٢٧ .

(٢) ترتيب المدارك وتقريب المسالك، للقاضي عياض : ١/ ٣٨٥.

المبحث الثاني

معالم المنهج في مراعاة الخلاف

١ـ ليس كل خلاف جاء معتبرا .

٢ـ لا عبرة بخلاف أهل الأهواء في تفسير التراث .

٣ـ زلة العالم لا توجب إهدار محاسنه .

٤ـ نوادر العلماء وزلاتهم ليست حجة على أحد .

٥ـ لا إنكار في مسائل الخلاف المعتبر .

٦ـ ترتيب الأولويات وتقديم المعضلات .

١ ـ ليس كل خلاف جاء معتبرا

جرى طائفة من المقلدين على التعلق بأي جديد ، أو قول غريب ، لمجرد أنه قول قد قيل ، أو أنه خلاف نشأ وظهر ، فإذا كان في المسألة قولان ، تمسك هو بالثالث ، وقال بل فيها ثلاثة أقوال . وتجد الحدث المتعالم من هؤلاء يتندر بتصيد الشواذ والأهواء ، وإشاعتها في الناس ، لمجرد أنها خلاف في الرأي والقاعدة أنه :

ليس كل خلاف جاء معتبرا إلا خلاف له حظ من النظر

فإن الخلاف أنواع «خلاف معتبر ، وخلاف مذموم » والخلاف المعتبر هو «ما اتحد مرامه واختلفت ألفاظه ، أو ما احتمل تعدد الأفهام بدليل» ومنه خلاف التنوع ، الذي يكون « اختلاف زمان ومكان ، لا اختلاف حجة وبرهان» والاختلاف اللفظي ، الذي يقال فيه «لا مشاحة في الاصطلاح » ولاعتبار الخلاف والاعتداد برأي صاحبه شروط منها :

أن يكون المخالف من أصحاب الأصول الصحيحة :

فلا عبرة بخلاف أهل الأهواء ، كغلاة الشيعة القائلين بعصمة الأئمة ، وغيبة الإمام المعصوم ، والمعتزلة المقدمين لقضايا العقل إذا تعارضت مع النص ، ومشايخ الصوفية ، القائلين بالذوق ، والكشف والإلهام ، وفتيا القلب التي مفادها «حدثني قلبي عن ربي» . فما بني على باطل فهو باطل ، والعجب ممن يتعنى بالنظر في اتفاقهم ويعده إجماعا ، مع أن هؤلاء لا يُعتد بخلافهم ، فكيف يُنظر في إجماعهم .

فما شاع من الأصول الباطلة في التراث الإسلامي ، لا عبرة بخلاف أصحابها في الأصول أو الفروع ، ولو كانوا في زهد ابن دينار ، ونسك ابن أدهم صلاحا ، أوكانوا بعدد رمال نجد وتهامة كثرة ؛ لأن قول الأكثرين ليس حجة على أحد من المسلمين إن لم يستند إلى دليل شرعي ، ولو عني الدارسون للتراث باعتبار صحة

أصول النظر والاجتهاد في اعتبار الخلاف والاعتداد به ، لأهدرت كثير من الآراء المتهافتة لأهل الأهواء ، ولقل الخلاف الذي انتفخت به كتب التراث .

أن يكون المخالف من أولي النظر والاجتهاد :

وذلك بأن يكون من أهل العلم الذين بلغوا مدارك النظر والاجتهاد ، وحازوا شرائط العلماء الذين يعتد بخلافهم في الفروع ، كما هو مبسوط عند علماء الأصول .

ومن ذلك العلم بالقرآن والسنة ، ومدارك الاستنباط منهما ، ومعرفة مسائل الإجماع ومواقعه ، ثم القياس ووجوهه ، مع التمكن من لغة العرب ، وفقه الزمان في الحال والمآل ، حتى لا يجتهد في الأغاليط والمُحال ، وعلى قول من يرى تجزأ الاجتهاد ينبغي أن يكون راسخ المعرفة بالعلوم التي تتصل بمحل اجتهاده ونظره [١] .

قال الشاطبي : «إنما تحصل درجة الاجتهاد لمن اتصف بوصفين : أحدهما فهم مقاصد الشريعة على كمالها ، والثاني التمكن من الاستنباط بناء على فهمه فيها » [٢] .

فإن كان من رعاع الناس ، كبعض الأميين الذين يخرجون كل يوم برأي مخالف ، ينأى عن كلام أهل العلم بأنه هذيان ، وجهل مؤيد بوهم أو خرافة ، أو بعض أنصاف المثقفين الذين يجعلون لأنفسهم سلطة الاجتهاد ، فيقولون هذا قولنا ، وذاك رأينا ، وذلكم اجتهادنا ، فلا نعمة عين ، كما قال ابن دقيق العيد :

يقولون هذا عندنا غير جائز ومن أنتم حتى يكون لكم عند

وقد تولج ميادين الخلاف في الفكر الإسلامي اليوم خلق من هذا النوع من الوراقين ، الذين ولعوا بتسويد أعمدة الصحف والجرائد ، بكلام غث يضاهون به قول الراسخين في العلم ، وينصبون له أدلة باردة جوفاء ، جلها ظنون وتخرصات ،

---

(١) انظر : الرسالة للشافعي : ٥٠٨ المستصفى للغزالي : ٢/ ١٠٢ ، الإحكام للآمدي : ٣/ ١٣٩ .

(٢) الموافقات في أصول الشريعة : ٤/ ١٠٥، ١٠٦ .

حتى يقال إني صاحب رأي مخالف فاعرفوني . فتراهم يلزون في معضلات كالجبال الرواسي ، ينشئون بجانبها بقلا غثا في أصول نخل طوال .

وعجيب أن يكون من بين هؤلاء المجترئين على النصوص والفتاوى قوم من أولي السابقة في الإسلام ، وممن يشار إليهم بالبنان .

ولو أنهم اقتصروا على ما يحسنون من دعوة وجهاد لنصرة الدين لسلمت أحوالهم ، وكفوا المسلمين مؤنة ضحد زللهم ، ولولا ما يقع من الاغترار برأيهم بين الأتباع والعوام ، لكان السكوت عن زللهم أولى ، وقد سبق بيان بعض نوادرهم في الفقه والفتوى ، والله يغفر لنا ولهم .

أن يكون مناط حكم المخالف معتبرًا :

وذلك بأن يكون دليلا صريحا معتبرا عند أهل العلم بالشرع ، فإن كان مناط حكمه الذي خالف به ظنا وتخرصا ، أو ذوقا ، أو كشفا ، أو إلهاما مزعوما ، أو رؤيا في المنام ، أو قول شيخ يدعى فيه العصمة ، أو رأي طائفة يرى إجماعهم حجة ، كقول بعضهم : أجمع أهل الحق من أصحابنا ، أو أجمع الفلاسفة ، أو أجمع الأشاعرة أو الماتريدية ، أو المعتزلة ، فكلها دلائل واهية عليها غبار ، بل غبار ليس له اعتبار ، لا يقام لها وزن ، بل تلقى في كل وعر وحزن .

ومن ذلك استدلال الشيخ سعيد حوى ~ على صحة مسالك التربية الصوفية ، كإطالة الصمت ، والجوع ، والسهر ، والعزلة ، والذكر بالاسم المفرد بأقوال مشايخ التصوف ، كالحارث المحاسبي وذي النون المصري ، وغيرهم ، وهي أحكام مناطها عندهم الذوق والتجربة ، مع مخالفة السنن الظاهرة في النهي عن إهانة النفس ، وسلوك مسالك الرهبانية في تعذيب النفس .

وتبعه على ذلك بعض المتعلقين بأذيال التصوف في المغرب ، في الاحتجاج للذكر بالاسم المفرد بإجماع الصوفية ، ولا نعرف للصوفية إجماعا معتبرا عند أهل العلم ،

حيث قال : «ثم إن الذكر بالاسم المفرد أنكره ابن تيمية ~ ، وأجمع الصوفية إجماعا على أن الذكر به من أعظم الذكر ، فلا جدال» [١] .

فابن تيمية أنكر بدليل ، والصوفية أجمعت على محض الهوى والتشهي ، ومتى كان للصوفية إجماع معتبر حتى يُلزمنا به صاحب هوى يدعو الناس إلى هواه؟ ، بل لو اتفق أهل الأهواء قاطبة لم يكن رأيهم مناطا معتبرا في الأحكام .

قال الشعبي : «ماحدثك هؤلاء عن رسول ﷺ وسلم فخذ به ، وما قالوه برأيهم فألقه في الحش» [٢] .

ومن ثم فلا عبرة بخلاف صاحب هوى ، من شيعي مغال في القول بعصمة الأئمة ، أو معتزلي يتقول في كلام الله ، وفي القضاء والقدر ، والوعد والوعيد ، ولا متكلم متحذلق في تأويل الصفات ، ولا صوفي في العقيدة والسلوك ، مما منزعه فيه الأذواق والمواجيد والشطحات ، ولا فيلسوف في الإلهيات ، لأن مناط هؤلاء في الاستدلال غير معتبر عند أهل العلم في منازل الخلاف .

قال الجصاص : «انعقاد الإجماع متعلق بقول الجماعة التي قد شملها الوصف من الله تعالى بالعدالة ، ولزوم قبول الشهادة ، ولأجل ما قد بينا من الأصل لم يُعتد بخلاف الخوارج ، وسائر فرق الضلالة ، لما قد ثبت من ضلالهم ، وأنهم لا يجوز أن يكونوا شهداء لله تعالى» [٣] .

*****

(١) انظر : تربيتنا الروحية :٦٤ وما بعدها ، والإحسان الرجال ، لعبد السلام ياسين : ٥٦.

(٢) جامع بيان العلم و فضله : ١/ ١٦٢.

(٣) الفصول في الأصول لأبي بكر الجصاص ٢/ ٣٠٢ .

٢ ـ لا عبرة بخلاف أهل الأهواء في تفسير التراث

قد تقرر أن من لم يكن من أهل النظر والاجتهاد، أو كان من أهل الأهواء أو كان مناط حكمه فاسدا، لم يعتد بخلافه، ولم يلتفت إلى رأيه، كائنا في سماء الشهرة من كان.

قال الإمام مالك: «لا يؤخذ العلم من أربعة ويؤخذ ممن سوى ذلك لا يؤخذ من سفيه مُعلن بالسفه، وإن كان أروى الناس، ولا يؤخذ من كذاب يكذب في أحاديث الناس، إذا جرب ذلك عليه وإن كان لا يتهم أن يكذب على رسول الله ﷺ ولا من صاحب هوى يدعو الناس إلى هواه، ولا من شيخ له فضل وعبادة إذا كان لا يعرف ما يحدث»[1].

ولعل زماننا من أكثر الأزمة ابتلاء بمثل هؤلاء، لارتفاع العلم، وسيادة الرؤوس الجهال في هذه الأمة.

ومن هؤلاء في عصرنا المفكر العلماني المحسوب في عددا الإسلاميين، «جمال البنا»، الذي دعا إلى التخلي عن السنة لأن أغلب الأحاديث موضوعة، والصحيح القليل منها يخالف القرآن، ولم يزل دائبا منذ سنين في نقض عرى الإسلام والتلاعب بأحكام الشريعة.

فهو يرى في أن المرأة أحق بالإمامة من الرجال إذا كانت أعلم بالقرآن، كما يرى أن الحجاب ليس فرضا على المرأة وأنه خاص بنساء النبي ﷺ، وأن الارتداد من الإسلام والتحول إلى اليهودية أو المسيحية ليس ردة ولا يوجب حد القتل، وأن التدخين أثناء الصيام لا يبطل الصوم خصوصا لغير القادرين عن الإقلاع عنه، كما

---

(١) التقييد لرواة السنن والمسانيد لابن نقطة: ١/ ٤٣٦.

يرى جواز تبادل القبلات بين الجنسين ولا يمانع بأن يقبل شاب ابنته[١] .

وقد ألف في ذلك رسائل عدة منها «الإسلام وحرية الفكر ، الحجاب ، ثلاث عقبات في الطريق إلى المجد . نحو فقه جديد ، قضية الحرية في الإسلام ، الإسلام دين وأمة وليس دينًا ودولة،تفنيد دعوى حد الردة» .

ثم أبورية الذي رفع نفسه إلى مقام المجتهدين ، فصار يضعف أحاديث البخاري ومسلم لأنها خالفت هوى عقله المريض ، كحديث الذبابة ونحوه . واتهم أبا هريرة رضي الله عنه في النقل ، ورماه بالكذب ، لروايته ما خالف هواه ، كما اتهم الزهري بوضع الأحاديث للأمويين تزلفا وتملقا ، ولم يدع كذبة للمعتزلة القدامى ، أو فرية للمستشرقين في الطعن على السنة إلا أوردها في كتابه «أضواء على السنة » وقد رد عليه العلامة عبد الرحمن المعلمي اليماني بما يشفي الغليل ، ففل من غربه ، وكفى الأمة شر فتنته وشغبه[٢] .

وحسين أحمد أمين من أفراخ المعتزلة الجدد ، وهو ممن تأثر بنزعة العقلانية وأمشاج الفكر العلماني ، فتجده يشرع من دون الله بكلام غث يشغب به على النصوص ، كقوله : «فالتشبع بروح الإسلام ، لا الالتزام بأحكام معينة متناثرة ، كفيل بأن يكون البوصلة التي تهدينا سواء السبيل فالقطع الذي قرره القرآن عقابا للسارق هو شريعة بدوية ، مثل عقيدة القدر ! وكذلك الحجاب كان مناسبا للمدينة المنورة ، ولم يعد مناسبا للقاهرة في القرن العشرين »[٣] .

ثم محمد أحمد خلف الله ، وهو أحد مردة العلمانيين ، وصاحب جرأة على الله ، دعا في كتابه «العدل الإسلامي» إلى التحرر من الدين و أحكام النبوة ؛ لأن البشرية

---

(١) راجع جمال البنَّا مفكِّر إسلامي أم علماني؟! محمد إبراهيم المبروك.

(٢) انظر كتابه «الأنوار الكاشفة لما في ظلمات أبي رية من الضلال و الزندقة» .

(٣) «أساطير المعاصرين» للدكتور أحمد عبد الرحمن : ١٥٢ .

كما يزعم قد بلغت سن الرشد بما سنته من قوانين في الأرض ، حيث يقول : « إن البشرية لم تعد في حاجة إلى من يتولى قيادتها في الأرض باسم السماء ، فلقد بلغت سن الرشد ، وآن لها أن تباشر شؤونها بنفسها » [١] .

وقرر أن النبوة من قيود السماء التي كبلت العقول ، وحجرت على الأفكار ، فلم تتحرر البشرية إلا حين انتهى عهد النبوات ، حيث قال « فلقد حرر الإسلام العقل البشري من سلطان النبوة ، من حيث إعلانه انهاءها كلية ، وتخليص البشرية منها» [٢] .

ونوال السعداوي ، داعية التحرر العلماني للمرأة ، كانت تكتب في مجلة الأهالي المصرية ، وتزعم «أنها قرأت القرآن خمسا وعشرين سنة وما وجدت فيه آية تدل على وجوب الحجاب على المرأة» ، وزعمت : «أن فكرة الحجاب نشأت في التاريخ البدائي القديم لأسباب صحية وقائية ، ثم اكتسبت على يد اليهود صفة دينية» [٣] .

كما أصدرت «مجلة نون» وهاجمت فيها الأحكام الإسلامية ، وألفت كتبا ومقالات تدل على عمالتها للماسونية العالمية ، منها «أريد أن أكون مومسا مثل أختي» ، « تحرير المرأة اقتصاديا وجنسيا» «الله مات في النيل» وهو كتاب زندقة وخروج عن الملة طبعته بمساعدة الصهاينة في «تل أبيب» [٤] .

سبحان من يعطي النور فاقده ويحجب النور عن قوم بهم بصر

وممن لزَّ في هذا الباب ، وحشر نفسه في عداد المجتهدين ، شيخ القوميين سابقا «رضوان السيد» الذي نشر مقالا يهزأ فيه بأحكام الإسلام ، ويدعو إلى التسوية بين

---

(١) غزو من الداخل ، جمال سلطان : ٥١ .

(٢) الأسس القرآنية للتقدم ، محمد أحمد خلف الله : ٤٤ .

(٣) حجاب المسلمة بين انتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، د. محمد فؤاد البرازي : ٢/ ٥١٣ .

(٤) نوال السعداوي في قفص الاتهام ، كتاب المواجهة : ص٤١ .

الرجل والمرأة في الميراث ، وإسقاط حد الردة ، احتراما لحرية الأديان لأنه لا إكراه في الدين [١] ، وهذا سخف ظاهر العوار ، لا تخفى مناقضته لنصوص الشريعة .

فأنى لهذا الغثاء أن يعد اجتهادا في أبواب الخلاف المعتبر ، وأصحابه أشباه عوام في علوم الشريعة ، لا يباليهم الله بالة . وهم مع ضلالهم ليسوا في العير ولا في النفير ، لأن علمانيتهم ظاهرة للعيان .

ولئن كان شغب أهل الباطل ظاهر عواره لا نخشى أن ينخدع به أحد من المسلمين فإنه قد وقع الاغترار اليوم بشغب بعض من ينتسبون إلى المدارس الإسلامية ولهم جنوح وجرأة مع فساد هم في تفسير التراث ، ومنهم يُصنف في عداد الدعاة والكتاب الإسلاميين ، ممن لم يبلغوا مدارك النظر والاجتهاد ، ولم يدركوا آلاتها .

ثم تجد الناس متعلقين بما يصدر عنهم من نوادر وغرائب ، يرفعونها إلى مقام آراء المجتهدين مع أن أكثرهم ضعيف البصر بمعرفة الآثار وفقه دلائلها . فأكثرهم من دارسي الحقوق والفلسفة والتصوف وعلم الكلام ، وبعض علوم الشريعة ، وهي بضاعة مزجاة لا تؤهل صاحبها للاجتهاد والفتوى ، وإقحام رأيه في منازل الخلاف المعتبر بين العلماء .

ومن هذا الصنف الشيخ المتمرد على تيار الإصلاح في الصحوة الإسلامية «سعيد رمضان البوطي» ذو المشرب الصوفي ، تراه يختزل مشاكل الأمة وانحرافها في غياب التصوف ، حيث يقول : «غياب التصوف هو المسؤول عن جل مشكلاتنا اليوم ، بل هو المسؤول عن البدع والانحرافات التي تسللت إلى جوهر التصوف وحقيقته» [٢] .

---

(١) انظر مقال «حقوق الإنسان بين الإنسانية و الإسلام» لرضوان السيد جريدة الراية : مجلد ١٩٩٦م ، وإني لأعجب كيف ينشر مثل هذا الغثاء في جريدة إسلامية سيارة، هي لسان الصحوة بالمغرب .

(٢) مجلة منار الإسلام ، رمضان ١٤٠٨هـ : ١٠٣ .

ولا بأس أن يدعو البوطي بعد اختزاله مشاكل الأمة في غياب التصوف إلى مهادنة أنظمة الجور، والخضوع للنظام النصيري في سوريا، وترك الجهاد في سبيل الله، والعناية بجهاد النفس، ويذرف دموع الأسى على موت زعيم النصيرية وحزب البعث، ثم تراه في آخر المطاف يهاجم الثورة المباركة لأبناء الحركة الإسلامية في بلاد الشام، المناهضين للظلم والقهر والفساد، ويراهم خوارج وأهل فتنة يستحقون التعزير [١].

ولسنا ندري ماذا أغنت عن الأمة زوايا التصوف المنتشرة في العالم الإسلامي،للدعاية والارتزاق وقد كان أغلبها سببا في استشراء التخلف ودخول الاستعمار إلى بلاد المسلمين.

وممن لا يعتد بخلافهم كذلك جماعة من العقلانيين الجدد كفهمي هويدي وأمثاله ممن يرون أن وقوف العقول أمام النصوص وثنية جديدة، ولذلك أطرحوا النصوص جانبا في فتاوى الاستخذاء التي دبجوا بها بياناتهم التنويرية إبان الغزو الأمريكي لأفغانستان، ونشروا فتوى لقيطة منحلة العقال من قيود الشريعة، إثر سؤال ورد علي المجلس الفقهي لأمريكا الشمالية، فلز هؤلاء في القوم وأجابوا «بجواز مشاركة الجنود المسلمين في الجيش الأمريكي في الحملة، وقتال إخوانهم المسلمين هناك، لئلا يشك الأمريكان في ولائهم للدستور، فيطردوهم من وظائفهم، أو يفتنوهم في دينهم» [٢].

وقد ساق فهمي هويدي حديث أبي بكرة عن النبي ﷺ: «**إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ**

---

(١) وقد صرح بذلك في مناسبات عدة في القنوات الإعلاميةآخرها تصريحه للقناة السوريةعقب أحداث ثورة مارس ٢٠١١م، التي نكل فيها النظام السوري النصيري بأهل درعا وحمص وحلب.

(٢) صدرت هذه الفتوى يوم ٢٧ شتنبر ٢٠٠٢م، ونشرها فهمي هويدي في عموده الأسبوعي في جريدة الشرق الأوسط بتاريخ ٨ أكتوبر ٢٠٠٢، بتوقيع جماعة من المجترئين على النصوص.

بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ» ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهَّ ، هَذَا الْقَاتِلُ فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ ؟ قَالَ : «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ» (١) .

ثم أطرح مقصد الحديث جانبا وشغب حوله بكلام غث واعتراضات باردة جوفاء . ولا بأس أن يمرغ حديث النبي ﷺ في الرغام ؛ لأنه لم يعد يساوي عند هؤلاء فلسا أمام زخارف المواثيق الدولية ، وقوانين الغرب ، ورعاية المقاصد الأمريكية !!

قال ابن فرحون المالكي : «واعلم أنه لا يجوز للمفتي أن يتساهل في الفتوى ، ومن عرف بذلك لم يجز أن يستفتى ، والتساهل قد يكون بأن لا يتثبت ويسرع بالفتوى أو الحكم قبل استيفاء حقها من النظر والفكر ، وربما يحمله على ذلك توهمه أن الإسراع براعة والإبطاء عجز ومنقصة وذلك جهل ، فلئن يبطئ ولا يخطئ أجمل به من أن يعجل فيضل ويُضل ، وقد يكون تساهله وانحلاله بأن تحمله الأغراض الفاسدة على تتبع الحيل المحظورة أو المكروهة والتمسك بالشبه طلبا للترخيص على من يروم نفعه أو التغليظ على من يريد ضره ، قال ابن الصلاح : ومن فعل ذلك فقد هان عليه دينه ، ونسأل الله العفو والعافية» (٢) .

ثم الدكتور حسن الترابي أستاذ القانون وأحد زعماء الحركة الإسلامية في السودان ، حيث يرى جواز تبديل الدين في ظل نظام الحريات المدنية الحديثة ، ويفتي بجواز الردة وسقوط حكمها عن المرتد ، حيث قال في محاضرة له بعنوان «تحكيم الشريعة» : «وأود أن أقول : إنه في إطار الدولة الواحدة ، والعهد الواحد ، يجوز للمسلم ، كما يجوز للمسيحي أن يبدل دينه» (٣) .

---

(١) أخرجه البخاري ٦٣٦٧ : ومسلم : ٥١٤٠، وابن حبان : ٦٠٨١، عن أبي بكرة ، وأخرجه النسائي ٤٠٤٩ : وأحمد : ١٩٦١٣، من حديث أبي موسى الأشعري .

(٢) تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام : ١٦٤ .

(٣) محاضرة ألقاها في جامعة الخرطوم ،كما نقل عنه أحمد بن مالك في الصارم المسلول عن العقلانيين :٦٩ وله غيرها من الفتاوى الشاذة التي تناقلتها وسائل الإعلام.

وهذه إحدى فواقر الترابي ونوادره المناقضة للشريعة ، ولا ندري أي تجديد يقصد إليه هذا الرجل! مع هذه المخالفة الصريحة للنصوص فإن التجديد لا يكون بإهدار السنن باسم المقاصد العصرية ، وليس هذا محل الرد عليه ، هدانا الله وإياه إلى سواء السبيل .

والواجب أن يُنزل الناس منازلهم ، وتُعرف أقدارهم فلا يُتعدى بهم إلى ما لم يتأهلوا له ، إذ «رحم الله من عرف قدره وقعد دونه» .

*****

٣ ـ زلات العلماء ليست حجة على أحد من المسلمين

ولع بعض دارسي التراث من متتبعي النوادر ، بتتبع زلات وشواذ صدرت عن أئمة أعلام ، وإحيائها في ميادين الخلاف والمناظرة ، ينتهضون بها على الناس ، وينصبونها آراء باردة ، مالها من دليل سوى الشذوذ والإغراب ، وحجتهم في اعتبارها أنها فتوى قال بها العالم فلان وعلان .

وقد تقرر في أصول الخلاف أن كل إمام يؤخذ من قوله ويترك ، وأن السعيد من عدت غلطاته ، واشتدت سقطاته ، فما من عالم إلا وله زلات وسقطات وأوهام ، خالف فيها الدليل ، أو تأوله على معنى انفرد به ، فلم يحالفه الصواب ، وهم بين مجتهد مأجور أو مخطئ معذور .

وقد وقع بسبب ذلك في تاريخ التراث الإسلامي غرائب وشواذ من المسائل صدرت عن أئمة أعلام ، وعرفت «بنوادر العلماء» أكثرها رخص أو شدائد ، أو زلات لم تعتصم بدليل ، منها نماذج في كتب النقائض المذهبية ، ك«الحور العين» لنشوان الحميري وغيرها [١] .

عن معاذ ﷺ قال : «إن من وراءكم فتنا يكثر فيها المال ، ويفتح فيها القرآن ، حتى يأخذه المؤمن والمنافق ، والحر والعبد ، والرجل والمرأة ، والكبير والصغير ، فيوشك قائل أن يقول فما لي الناس لا يتبعوني ، وقد قرأت القرآن ، والله ما هم بمتبعي حتى ابتدع لهم غيره ، فإياكم وما ابتدع ، فإن ما ابتدع ضلالة ، واحذروا زيغة الحكيم ، فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على فم الحكيم ، وقد يقول المنافق كلمة الحق» [٢] .

---

(١) انظر الحور العين لنشوان الحميري : ٤٠/ ٤٦، وكنوز الأجداد، لمحمد كرد علي : ٢٨٠.

(٢) أخرجه أبو داود باب لزوم السنة :٤/ ٢٠٢، البيهقي في السنن : ١٠/ ٢١٠، والحاكم في المستدرك : وقال صحيح على شرطهما، ٤/ ٥١٣ .

وفي رواية الحاكم : «يقرأه الرجل سرا فلا يتبع عليه ، فيقول والله لأقرأنه علانية ، ثم يقرأه علانية فلا يتبع عليه ، فيتخذ مسجدا ويبتدع كلاما ليس في كتاب الله ولا من سنة رسول الله ﷺ فإياكم وإياه فإن كل ما ابتدع ضلالة» [١] .

ومن ثم قرر الأئمة أن شواذ العلماء ونوادرهم التي خالفوا فيها الأدلة لا تعتبر حجة على أحد من المسلمين ، فليس من مراعاة الخلاف في فقه الأحكام فمن تتبع شواذ العلماء خرج من الإسلام [٢] .

وعن سليمان التيمي أنه قال : «لو أخذت برخصة كل عالم اجتمع فيك الشر كله» قال ابن عبد البر : «هذا إجماع لا أعلم فيه خلافا» [٣] .

ومن ذلك ما يفعله بعض أهل الأهواء من تتبع رخص المذاهب وإلصاقها بفقه السنة النبوية ، بدعوى أن هذا رأي ابن عباس ، أو قول ابن المسيب ، وأنه قد صحت به الآثار ، دون التفات إلى مخارج هذه الأخبار ، ودلائلها في العمل والفتوى ، وقد صنف الشيخ جاسم الدوسري رسالة سماها «زجر السفهاء عن تتبع رخص الفقهاء» .

وقد حصل هذا في زمن إمام المالكية بالعراق القاضي إسماعيل ~ حيث قال : « دخلت على المعتضد ، فدفع إلي كتابا فنظرت فيه ،وكان قد جمع له الرخص من زلل العلماء ، وما احتج به كل منهم لنفسه ، فقلت له يا أمير المؤمنين مصنف هذا الكتاب زنديق ! فقال المعتضد : لم تصح هذه الأحاديث ؟ قلت الأحاديث على ما رويت ، ولكن من أباح المسكر أي النبيذ- لم يبح المتعة ، ومن أباح المتعة لم يبح الغناء ، وما من عالم إلا وله زلة ، ومن جمع زلل العلماء ثم أخذ بها ذهب دينه ، فأمر المعتضد

---

(١) وما أرى ظهور الزوايا في أزمنة التخلف إلا من هذا الباب، كما ذكر معاذ بن جبل ﷺ .

(٢) انظر سير أعلام النبلاء ١٣/ ١٠٤ ففيه بحث ماتع في الزجر عن تتبع زلل العلماء .

(٣) جامع بيان العلم وفضله : ٢/ ٩٠، ٩١ . سير أعلام النبلاء : ٦/ ١٩٨.

فأحرق الكتاب» [١] .

وعن معمر بن راشد قال : «لو أن رجلا أخذ بقول أهل المدينة في استماع الغناء ، وإتيان النساء في أدبارهن ، وبقول أهل مكة في المتعة والصرف ، وبقول أهل الكوفة في المسكر ، كان شر عباد الله » [٢] .

وقد وجد قوم من هؤلاء في عصور الإسلام ، كما قال السبكي : «منهم من يسهل الشرع ، فيقول مثلا لمن سأله عن انتقاض الوضوء بمس الذكر ، لا ينتقض عند أبي حنيفة ، وعن لعب الشطرنج ، وأكل لحوم الخيل ، حلال عند الشافعي ، وعن مجاوزة الحد في التعزيرات جائز عند مالك ، وعن بيع الوقف إذا خرب وتعطلت منفعته ، حلال عند أحمد بن حنبل ومن هذه حاله يؤول والعياذ بالله إلى الزندقة . ولعل الأصل في هذا قول أبي نواس :

أباح العراقي النبيذ وشربه ... وقال حرام المداومة والسكر

وقال الحجازي الشرابان واحد ... فحلت لنا من بين قوليهما الخمر

سآخذ من قوليهما طرفيهما ... وأشربها لا فارق الوازر الوزر [٣]

ولو أنك تتبعت فقه السلوك عند كثير من المسلمين اليوم لوجدته مجموعة من الرقاع البائدة البالية ، الملتقطة من هنا وهناك ، ليس بينها تجانس إلا في اختيار ما تسهل وتيسر ، وكان نادرة ورخصة ، من عالم ثقة أو غير ثقة ، حسبهم فيه أنه نجم في سماء الناس ، ويكفيهم أنه قول مشهور ذائع الصيت .

وقال الإمام الروياني : «يجوز تقليد المذاهب والانتقال إليها بثلاثة شروط أن لا يجمع بينهما على صورة تخالف الإجماع كمن تزوج بغير صداق ولا ولي ولا شهود

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي : ١٠/ ٢١١ ، وانظر سير أعلام النبلاء : ١٣/ ٤٦٥ .

(٢) التلخيص الحبير لابن حجر : ٣/ ١٨٧ .

(٣) معيد النعم ومبيد النقم : ٨١، ونقد الطالب لزغل المناصب لابن طولون : ١٤٩ .

فإن هذه الصورة لم يقل بها أحد وأن يعتقد فيمن يقلده الفضل بوصول أخباره إليه ولا يقلد أميا في عماية وألا يتتبع رخص المذاهب» [١] .

على أننا لا نستجيز الوقيعة في أعراض العلماء ، ممن وقعت منهم الزلة والزلتان ، وصدرت عنهم نوادر لم يتعمدوها ، ولم يكن من نهجهم تتبعها والمصير إليها ، بل نعرف لهم فضلهم وأقدارهم ، ولا ننسى محاسنهم ، وما أسدوه من خير للإسلام ، فإن منهم المجاهدين ، وأُولي السابقة في الإسلام ، و من ابتلوا في سبيل الله ، لكن الحق أحق أن يتبع ، فنحذر من زللهم ، ولا نؤثمهم أو نستبيح الوقيعة فيهم .

بعض نوادر وشواذ المعاصرين :

شاعت في زماننا شواذ ونوادر لبعض المجترئين على المعرفة الإسلامية ، ممن ليس لهم فيها عدة سوى الجرأة على الشريعة وتحريف النصوص ، على شاكلة «فتاوى على الهوى» ، حتى كاد يؤول معهم الشرع من شرع منزَّل إلى شرع مُبدَّل ، ويصبح دين هؤلاء «فقه الرقاع» مثل جبة بالية ، ذهب أصلها وبقيت رقاعها ، كما قال الشاعر :

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا ... فلا ديننا يبقى ، ولا ما نرقع

من ذلك ما أفتى به وزير الأوقاف المصري سابقا ، وداعية التقريب بين المذاهب «الشيخ أحمد حسن الباقوري» من غرائب النوادر التي لم يُسمع بها في سالف الأزمان ، والمخزيات التي قد لا تخطر ببال إبليس وجنوده ، حيث قال : «إن المرأة إذا كانت على شواطئ البحار مشغولة بالسباحة والاستجمام ، فإنه يجوز لها أن تقصر وتجمع بين الظهر والعصر ، وأن تصلي في ملابس السباحة» [٢] .

ولعل سبب الرخصة عند هذا الفقيه الألمعي الشفقة لحال هذه المرأة المسكينة التي تكون مشغولة بالعربدة في المياه ، والاستلقاء على الرمال ، لكشط الجلد ،

---

(١) التقرير والتحبير للروياني : ٦ / ٢٩٩.

(٢) نقل الفتوى عنه الشيخ عبد الرحيم الطحان في شريط بعنوان «حجاب المرأة المسلمة» .

والتعرض لأشعة الشمس ، فيشق عليها ارتداء لباسها للصلاة في كل وقت ، فرخص لها أن تقصر وتجمع الصلوات المشتركة في الوقت ، وتصلي في ملابس السباحة ، «فإن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه» .

وهذا غاية التلاعب بأحكام الدين ، ولو أن إبليس استفتي في مثل هذه البلوى ، لقصر باعه في المكر والتحايل أن يأت بمثل هذا .

فالرخص صدقة من الله على عباده ، وإنما هي للمتقين ، أما المستهترين الذين جعلوا القرآن والسنة عضين ، وأخذوا أحكامها رقعا يسترون بها سوءاتهم في المعاصي ، فالترخص لهم زلة في تنزيل أحكام الدين على حالهم . إذ لا يجوز التمادي في الأخذ بالرخص مع زوال سببها وانعدام مناطها فهذا يخرج الرخصة عن محلها الذي شرعت له ، فتصبح هزؤا وتلاعبا بالدين . وإنه قبيح بمن أعطي لؤلؤا وذهبا أن يعلقه في أعناق القردة والخنازير .

قال الإمام القرافي : «فأما المعاصي فلا تكون أسبابا للرخص ، ولذلك العاصي بسفره لا يقصر ولا يفطر ، لأن سبب هذين السفر ، وهو في هذه الصورة معصية ، فلا يناسب الرخصة ، لأن ترتيب الترخيص على المعصية سعي في تكثير تلك المعصية بالتوسعة على المكلف» [1] .

ومن أغرب الفتاوى الشاذة ما أفتى به المتفيقه «جمال البنا المصري» من أن التدخين لايبطل الصيام ، لأنه ليس مغذيا ، لاسيما لغير القادر عن الإقلاع . متابعا في ذلك المرجع الشيعي محمد حسين فضل الله الذي كان قد افتى بأن تدخين السجائر لا يفسد الصيام ، وزعم أنه لا يوجد نص في القرآن أو السنة يحرم التدخين أثناء الصيام ، وأن ما تم تحريمه هو الأكل والشرب والمعاشرة الجنسية ، كما ادعى أن

---

(١) الفروق للقرافي ٢/ ٣٣ و المراد بذلك تحقيق مناط الرخص وتوفر شروط الأخذ بها ، وقصرها على محالها ، وعدم الإسراف و التعدي في العمل بها ، وذلك ؛ لأن ما جاز لعذر زال بزواله .

ابن عابدين وهو من كبار فقهاء الحنفية أفتى بجواز التدخين اثناء الصيام [١] .

كما أفتى بجواز تبادل القبلات بين الشباب والفتيات غير المتزوجين معتبرا ذلك من اللمم التي تمحوها الحسنات . وذلك لعدم قدرة هؤلاء علي الزواج نظرا للظروف الاقتصادية الصعبة . ولأنه لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، وليس كل محرم من الضروري ألا يفعله الإنسان [٢] .

والذي يظهر أن الرجل متسافه مأجور ماض في نقض عرى أحكام الشريعة وتهوين المعصية في نفوس الشباب ، بدافع من مؤسسات حاقدة على الإسلام ، وإلا فإنه لاعلاقة لهذا الشذوذ بالاجتهاد!!

كما أفتى بجواز إمامة المرأة للرجال إذا كانت هي الأعلم بالقرآن ، وأنه لم يكن يُسمح بهذا في عهد الرسولﷺ ، لأن المجتمع في وقتها كان مختلفًا ، ولكن هذا يفضل في المجتمعات الغربية ، خاصة في أمريكا ، لأن الشعب الأمريكي لديه صورة سيئة عن المرأة في الإسلام ، وهذه فرصة جيدة لتصحيح هذه الفكرة [٣] .

كما أفتى بجواز كشف المرأة لشعرها ، وأن الحجاب خاص بنساء النبي ﷺ ، وأنه لانص في القرآن يوجب علي المرأة أن تغطي شعرها؟ فالإسلام للناس جميعًا فهو للمرأة العربية والإنجليزية والأمريكية وأن الإسلام لا يريد إلا الحشمة وعدم الخلاعة [٤] .

وزعم أن من تحول من الإسلام إلى اليهودية أو النصرانية لايكون مرتدا ، لأن الأديان الثلاثة دين واحد ، وهي الإسلام في النهاية الذي يضم في تعاليمه الدينين

---

(١) جريدة «المصري اليوم» الأربعاء ٦/ ٩/ ٢٠٠٦م ، وتصريحات للعربية نت ٢ مارس، ٢٠٠٨م .

(٢) تصريحات لقناة «الساعة» ٢٠٠٨م وقناة التحرير ٢٠١١ .

(٣) تصريحات جمال البنا للعربية نت ٢ مارس، ٢٠٠٨م.

(٤) تصريحات جمال البنا للعربية نت ٢ مارس، ٢٠٠٨م.

السابقين فلايصح أن تكفير من انتقل من دين إلى آخر من هذه الأديان ، لأنه لا يزال في مجال الإيمان بالله ، بشرط أن يظل مؤمنا بأن الدين الآخر سماوي ونبيه مرسل من الله[١] .

وهذه هي عقيدة ابن عربي وعبد الكريم الجيلي وجلال الدين الرومي ، يروم شرذمة العلمانيين اليوم إحياءها ، لترويج مبدأ ميوعة الأديان والتسامح في الأوطان .

وهذه سخافات ظاهرة العوار ، لا تحتاج إلى مناقشة لأنه يدرك بطلانها عندنا الأحداث المبتدئون والصبيان ، وإنما يحمل أمثال هؤلاء الحداثيين على انتحالها حب الشهرة وجنون العظمة والمضاهاة ، على سنة مسيلمة الكذاب ، الذي تسمى برحمن اليمامة ، فخذله الله ، ودخل التاريخ من بابه الأسود فلا يسمى إلا كذاب اليمامة ، وكذلك صاحبنا الذي أبى أن يلبس جلباب أخيه في الصلاح والدين فصار داعية شر يؤصل لبلايا الحداثة وما بعدها .

وقد صار كل من أراد الشهرة في هذا الزمان يتعلق بالطعن في مقدسات الأمة والنيل من الإسلام ، و ما أرى إلا أن الرجل قد خرف وولت أيامه ، ورام الشهرة في آخر عمره بالنيل من أحكام الشريعة ، بعد أن كان يرى نفسه من دعاته ، فنعوذ بالله من الخذلان .

ومن هذه الشواذ ما أفتى به الدكتور حسن الترابي من إباحة زواج المسلمة من اليهودي أو النصراني بدعوى أنه ليس ثمة نص يحرم هذا الزواج كما صرح بذلك لجريدة الرأي الكويتية : «يقال إنك بإفراطك في الفكر التجديدي أفتيت بفتاوى . منها على سبيل المثال قولك بجواز أن تتزوج المرأة المسلمة من يهودي أو نصراني فما دليلك على ذلك ؟ فرد الترابي متسائلا : «أي نص ؟ لا يعرف أحد نصا يمنع المرأة

(١) تصريحات جمال البنا للعربية نت ٢ مارس، ٢٠٠٨م .

المسلمة أن تتزوج يهوديا أو نصرانيا» [١] .

فأجاب : «أنا أحفظ القرآن الكريم كاملا وأعرف السنة ولا أعرف نصا يحرم ذلك ، حتى في زمن الرسول كانت ابنته متزوجة من قرشي عزلها عنه النبي ﷺ ولم يطلقها منه ، ولما عاد إلى الإسلام بنيا بالعقد السابق نفسه!» ثم قال : « ثمة قضايا فيها خلاف ، وهذه فيها سعة ومرونة ، ويختار الإنسان المجتهد منها ما يظنه الصواب» [٢] .

فهذه ثالثة الأثافي ، من نوادر الترابي ، التي خالف فيها النصوص ، وقواعد الشريعة ، عفا الله عنا وعنه . وآفته القطع في الأحكام بظن نفسه . ولو تأمل فقه الأئمة الراسخين ، لعلم أنه صار بدعا في هذا الشأن ، إذ لم يسبقه أحد إلى هذه الآبدة ، ثم هو يفتي لعدم النص الصريح ، دون نظر في مقاصد الشرع وقواعده القاضية بالتحريم ، وهذه كودنة وظاهرية جديدة لم يعرفها ابن حزم ولا أسلافه .

ولو أن الترابي اشتغل بما يحسنه من الدهاء السياسي ، في مواجهة مكر الخصوم في النظام العالمي ، كان خيرا له من وضع نفسه في مضايق ، لا تعود عليه ولا على الأمة بخير .

وبالجملة فلا يصح تتبع زلل العلماء ونوادرهم ، بلا دليل ، إذ لكل عالم هفوة وكبوة ، هي من طبيعة النقص في هذه الدنيا ، والسعيد من عدت غلطاته فهي الدنيا لا يكمل فيها شيء ، وخطأ البشر لا يتخذ دينا .

---

(١) جريدة الرأي الكويتية عدد ١٠٥٥٤/ ١٤ ماي ١٩٩٦م.

(٢) جريدة المسلمون عدد٥٩٩، ١٤ ماي ١٩٩٦م ، عن الرأي الكويتية عدد ١٠٥٥٤.

٤ ـ زلة العالم لا توجب إهدار محاسنه

وهي قاعدة ذهبية في رعاية أدب الخلاف ، والتماس العذر للمخطئين من أهل العلم ، فإنه لما كان كل الناس يؤخذ من كلامه ويرد إلا النبي ﷺ ، وجب أن لا تطرح جميع اجتهادات الرجال ، بل ننظر منها ما وافق الحق فنقبله ، ونعرض عما خالفه ، وذلك عين الإنصاف .

قال سعيد بن المسيب : «ليس من شريف ، ولا عالم ، ولا ذي سلطان ، إلا وفيه عيب لا بد ، ولكن من الناس من لا تذكر عيوبه ، من كان فضله أكثر من نقصه ، وهب نقصه لفضله » [(١)] .

وقال الشافعي : «لا أعلم أحدا أعطى طاعة الله حتى لم يخلطها بمعصية الله إلا يحيى بن زكريا عليه السلام ولا عصى الله فلم يخلطها بطاعة ، فإذا كان الأغلب الطاعة فهو المعدل وإذا كان الأغلب المعصية فهو المجرح» [(٢)] .

فإنه لو رد رأي كل مخطئ أو صاحب زلة ، ما سلم لنا شيء ، وللزم ترك أكثر علماء الأمصار ، كما قال الإمام الطبري : «لو كان كل من ادعي عليه مذهب من المذاهب الرديئة ، ثبت عليه ما ادعي عليه ، وسقطت عدالته ، وبطلت شهادته بذلك ، للزم ترك أكثر محدثي الأمصار ، لأنه ما منهم أحد إلا وقد نسبه قوم إلى ما يرغب به عنه . ومن ثبتت عدالته لم يقبل فيه الجرح ، وما تسقط العدالة بالظن» [(٣)] .

فقد راعى النبي ﷺ أولي السابقة في الإسلام ، واعتبر ذلك في إقالة عثراتهم ، فقد وقع حاطب بن أبي بلتعة فيما لو وقع فيه غيره لاستحق حد الخيانة وإفشاء

---

(١) الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي : ٨٠ ، والبداية والنهاية لابن كثير : ٩/ ١٠٠ .

(٢) الكفاية في علم الرواية : ٨٠ .

(٣) هدي الساري مقدمة فتح الباري لابن حجر : ١٥١ .

أسرار الدولة الإسلامية للأعداء ، لكن لما علم النبي ﷺ خلوص نيته وأنه لم يفعل ذلك عن ردة أو خيانة عفا عنه .

قال ابن القيم : «وقد تقرر أن من قواعد الشرع وحكمة الإسلام أن من عظمت حسناته ، وكثرت فضائله وخيراته ، وكان له في الإسلام تأثير ظاهر ، فإنه يُحتمل منه ما لا يُحتمل من غيره ، ويُعفى له ما لا يُعفى لغيره ، فإن المعصية خبث ، والماء إذا بلغ القلتين لم يحمل الخبث ، وقد قال النبي ﷺ لعمر : وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر ، فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، وقال في شأن عثمان حين أخرج صدقته العظيمة : ما ضر عثمان ما عمل بعدها» [(١)] .

و العلماء المجتهدون قد يكون لهم عذر عند الله ﷻ في أنهم اجتهدوا وأخطأوا ، لكن لا عذر للمقلدين في أن يترخصوا بأخطاء الرجال ، ثم يعتذرون لأنفسهم ، بأننا نتحرى الصواب ، ونجتهد في اتباع مذاهب الناس ، وتقليد آرائهم فيما يعجز المقلد عن الإتيان بأفضل منه ، وذلك عذر أقبح من الزلة .

وقال ابن تيمية : «ولا ريب أن الخطأ في دقيق العلم مغفور للأمة ، وإن كان ذلك في المسائل العلمية ، ولولا ذلك لهلك أكبر فضلاء هذه الأمة . وإذا كان الله يغفر لمن جهل تحريم الخمر لكونه نشأ بأرض جهل ، مع كونه لم يطلب العلم فالفاضل المجتهد في طلب العلم بحسب ما أدركه في زمانه ومكانه إذا كان مقصوده متابعة الرسول بحسب إمكانه هو أحق أن يتقبل الله حسناته ، ويثيبه على اجتهاداته» [(٢)] .

وقال الذهبي : «ثم إن الكبير من أئمة العلم ، إذا كثر صوابه وعُلم تحريه للحق ، واتسع علمه وظهر ذكاؤه ، عُرف صلاحه وورعه واتباعه ، يُغفر له زلَلُه ، ولا نضلله ونطرحه وننسى محاسنه ، نعم ولا نقتدي به في بدعته وخطئه ، ونرجو له

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة ٥٦٩ باب ما جاء في خروج النساء إلى المساجد.

(٢) فتاوى ابن تيمية : ٢٠/ ١٦٥ .

التوبة من ذلك»[١] .

وقال ابن القيم : «ومن له علم بالشرع والواقع يعلم قطعا أن الرجل الجليل الذي له في الإسلام قدم صالحة وآثار حسنة وهو من الإسلام وأهله بمكان ، قد تكون منه الهفوة والزلة وهو فيها معذور ، بل مأجور لاجتهاده ، فلا يجوز أن يتبع فيها ، ولا يجوز أن تهدر مكانته وإمامته ومنزلته في قلوب المسلمين»[٢] .

ويقول الإمام الذهبي : «ولو أنا كلما أخطأ إمام في اجتهاده في آحاد المسائل خطأً مغفور له قمنا عليه وبدعناه وهجرناه ، لم سلم معنا ابن نصر ، ولا ابن منده ، ولا من هو أكبر منهما ، والله هو الهادي الخلق إلى الحق ، وهو أرحم الراحمين ، فنعوذ بالله من الهوى والفضاضة»[٣] .

وعلى ذلك اتفقت كلمات الأئمة : «فلو كان كل من أخطأ أو غلط ترك جملة ، وأهدرت محاسنه ، لفسدت العلوم والصناعات والحكم وتعطلت معالمها »[٤] . فقد أبى الله العصمة لكتاب غير كتابه . والمنصف من اغتفر قليل خطإ . خطأ المرء في كثير صوابه .

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع

والله تعالى يحب الإنصاف ويكره الاعتساف ، وما يضير الناقد لو أنصف المقال ، وإنما الاعتدال حلية الرجال . فمن كثر صوابه ، وظهرت فضائله لم يجز أن نستبيح الوقيعة فيه بالهفوة والزلة يقع فيها .

قال ابن عساكر : «واعلم يا أخي وفقنا الله وإياك لمرضاته ، وجعلنا ممن يخشاه

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي : ٥/ ٢٧٩.

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين : ٣/ ٢٨٣.

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي : ١٤/ ٤٠.

(٤) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين : ٢/ ٣٩.

ويتقيه حق تقاته ، أن لحوم العلماء مسمومة ، وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة ، لأن الوقيعة فيهم بما هم منه براء أمره عظيم ، والتناول لأعراضهم بالزور والافتراء مرتع وخيم ، والاختلاق على من اختاره الله منهم لنعش العلم خلق ذميم»[1] .

*****

(١) تبين كذب المفتري على أبي الحسن الأشعري، لابن عساكر : ٢٩.

٥ ـ لا إنكار في مسائل الخلاف المعتبر

وهذه قاعدة في مراعاة دليل المخالف ، فإن المسائل التي تطرق إلى أدلتها الاحتمال ، واختلفت فيها الأنظار ، واتسعت لها صدور العلماء الرجال ، وجب أن تكون من باب الخلاف المعتبر الذي لا يجوز فيه الإنكار ، فلا نتعصب فيها للمؤالف ، ولا نذم بسببها المخالف . بل يسعنا فيها ما وسع السلف في مراعاة أدب الخلاف .

قال أبو بكر الجصاص : «الاختلاف الذي نفاه الله تعالى عن كتابه وأحكامه هو اختلاف التضاد والتنافي ، وذلك غير موجود في أحكام الله تعالى . وسبيل المجتهدين إذا اختلفوا سبيل المتعبدين بالأحكام المختلفة من جهة النصوص والاتفاق ؛ لأن كلا منهم متعبد بما أداه إليه اجتهاده ، وغير جائز له تخطئة غيره في مخالفته إياه» [١] .

وعلى ذلك جرى أئمة الحسبة في مراعاة الخلاف المعتبر ، وعدم الإنكار فيه على المخالفين ، يقول الإمام النووي : «ولا يُنكرُ محتسبٌ ولا غيرُه على غيرِه ، وكذلك ليس للمفتي ولا للقاضي أن يعترضَ على من خالفه إذا لم يخالفْ نصاً أو إجماعاً أو قياساً جلياً» [٢] .

لكن للمحتسب والمفتي والإمام حقُّ الإنكارِ في الخلاف غير المعتبر ، والاعتراضِ على من خالَفَ نصاً أو إجماعاً .

أما الإنكار في مسائل الاجتهاد فلم تجر به تصرفات العلماء والأئمة ومن ثم فإنه لم يُبق من الجهل شيئا من يُريد أن يحجر على المسلمين واسعا ، ويُلزمهم بفهم واحد في المسائل التي تطرق إليها الاحتمال ، ثم يزعم أن ذلك هو عين الحق . وقد يزعم

---

(١) الفصول في الأصول لأبي بكر الجصاص ٣ / ١٥٣ .

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي : ٢/ ٢٤ .

أنه لا يتقيد في ذلك بآراء الرجال ولا بتقليد إمام من أئمة الإسلام .

وكأن لا أحد من الأئمة المعتبرين فهم السنة ونظر في الأدلة . وقد كثر هذا التنطع في دعاة اللامذهبية الذين قرءوا نتفا من الآثار ، وقصُر باعهم في دلائل النظر ، فنظروا في ذلك نظر العاطلين من قواعد الفهم ، وسنن الاستنباط ، ثم قالوا هذا عين المراد .

وإنما صدهم عن إبصار الحق في ذلك قلة العلم ، وخطل الرأي ، واعتقاد العصمة من الخطأ في المتبوعين ، وإساءة الظن بالسلف الماضين ، حتى إنك تجد الحدث منهم ينظر في رأي مالك والشافعي ويعترض ، وهو لم يحكم بعد مبادئ النظر ، ثم يقول هم رجال ونحن رجال ، ويخالفهم لا لمخالفتهم الأدلة ، بل لمجرد أنه قيل له لا تقلد في دينك الرجال ، وعنده أن بناء المذاهب كلها على آراء الرجال .

وتلك عصبية باردة من جنس عصبية الكرخي الحنفي الذي قال : «الأصل أن كل آية تخالف قول أصحابنا ، فإنها تحمل على النسخ أو على الترجيح ، والأولى أن تحمل على التأويل من جهة التوفيق» [1] .

ومعلوم أن ترك الإنكار إنما يجري في مسائل الخلاف المعتبر في الأمور الظنية ، أما مسائل الخلاف غير المعتبر كالخلاف في القطعيات ، فالإنكار فيها واجب ، فينبغي الحذر من تعميم الأحكام .

قال ابنُ القيِّم : «وقولُهُم إنّ مسائلَ الخلافِ لا إنكار فيها ليس بصحيح . . فإذا كانَ القولُ يخالفُ سنَّةً أو إجماعاً شائعاً وجب إنكارُه اتفاقاً . . وأمَّا العملُ فإذا كانَ على خلافِ سُنّةٍ أو إجماعٍ وجبَ إنكارُه بحسب درجات الإنكار . . وأمَّا إذا لم يكن في المسألةِ سنّةٌ ولا إجماعٌ وللاجتهادِ فيها مساغٌ ، لم تنكر على من عمل بها مجتهداً أو

(١) أصول الكرخي بذيل تأسيس النظر للدبوسي ٨٤.

مقلّداً »[١] .

وقد عمم بعض الناس ترك الإنكار في جميع مسائل الخلاف ، فصار ذلك ذريعة إلى اطراح واجب النهي عن المنكر ، ولو كان الأمر كذلك لتعطل الإنكار على أهل الأهواء والبدع والمحدثات .

قال الشوكاني : «هذه المقالة قد صارت أعظمَ ذريعةٍ إلى سدَّ باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . . وقد وجب الأمرُ بما هو معروفٌ من معروفاتِ الشرع ، والنهيُ عمَّا هو منكرٌ من منكراتهِ ، ومعيارُ ذلك الكتابُ والسنَّةُ . . وإن قال القائلُ من أهل العلم بما يخالفُ ذلك ، فقولُه منكرٌ يجبُ إنكارُه عليه أولاً ، ثم على العاملِ به ثانياً»[٢] .

أدب الخلاف بين السلف :

من نظر في مذاهب الصحابة والسلف الماضين ، علم ما كان عندهم من التقدير واعتبار الرأي المخالف ، الذي له حظ من النظر ، فقد روي عن عمر بن عبد العزيز أنه قال «ما أحب أن لي باختلاف أصحاب رسول الله ﷺ حمر النعم»[٣] .

وقد كانوا يرون أن في اختلاف المسلمين في المسائل الظنية سعة ورحمة بهذه الأمة ، لما في ذلك من التيسير ، بتنوع مراتب الأحكام ، بين تخفيف وتشديد ، وعزيمة ورخصة ، ولم يجدوا غضاضة في أن تختلف مذاهبهم ، لأن مجال الظنون لا يكون محل اتفاق في الغالب .

قال القاسم بن محمد : «لقد نفع الله باختلاف أصحاب رسول الله ﷺ في العمل ،

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين : ٣/ ٣٠٠.

(٢) السيل الجرّارُ المتدفق على حدائق الأزهار :٤/ ٥٨٨ .

(٣) جامع بيان العلم وفضله ٢/ ٩٨ «فيض القدير» للمناوي : ١/ ٢٠٩.

لا يعمل العامل بعمل رجل منهم إلا رأى أنه في سعة» [١] .

وقال عمر بن عبد العزيز : «ما أحب أن أصحاب محمد ﷺ لا يختلفون ، لأنه لو كان قولا واحدا ، لكان الناس في ضيق ، وإنهم أئمة يقتدى بهم ، فلو أخذ رجل بقول أحدهم كان سعة » [٢] .

وقد جرت مسائل ووقائع بين الصحابة اختلفوا فيها ، فأخذ كل بما أداه إليه اجتهاده ، ولم يعتبر أحد منهم رأيه ملزما للأمة . لأنها مسائل فروعية قابلة لتعدد الأنظار .

قال يحيى بن سعيد الأنصاري : «ما برح أولو الفتوى يفتون ، فيحل هذا ويحرم هذا ويحرم هذا ، فلا يرى المحرم أن المحل هلك لتحليله ، ولا يرى المحل أن المحرم هلك لتحريمه» [٣] .

- فقد كان ابن عمر يغسل باطن عينيه في الوضوء ، ويرى أن لمس المرأة ينتقض الوضوء ، وابن عباس لا يرى ذلك .

- كما كان ابن عمر يرى أن التحصيب والنزول بالأبطح سنة في مناسك الحج ، وكان ابن عباس يقول : «ليس المحصب بشيء إنما هو منزل نزله رسول الله ﷺ ليكون أسمح لخروجه» [٤] .

- وكان أبو هريرة يقنت في صلاة الصبح فيدعو للمؤمنين ويلعن الكفار ، ويقول : «والله لأنا أقربكم صلاة برسول الله ﷺ» ، وكان ابن عباس وابن عمر لا يقنتان ، فعن أبي مجلز قال : « صليت مع ابن عمر صلاة الصبح فلم يقنت ، فقلت

---

(١) جامع بيان العلم وفضله : ٢/ ٩٨ .

(٢) جامع بيان العلم وفضله : ٢/ ٩٨.

(٣) المصدر السابق : ٢/ ٩٨-٩٩.

(٤) أخرجه البخاري في الحج :٣/ ٤٧٢، وانظر «زاد المعاد» : ٢/ ٢٩٥.

له : لا أراك تقنت فقال : لا أحفظه عن أحد من أصحابنا »[١] .

وثمة مسائل كثيرة كانت محل خلاف بين أصحاب رسول الله ﷺ ، كلها تدل على اتساع أنظارهم في مسائل الخلاف ، وعدم تأثيم بعضهم بعضا ، ولكل منهم أجر الاجتهاد .

قال الدهلوي : «إن أكثر صور الاختلاف بين الفقهاء ، لاسيما في المسائل التي ظهر فيها أقوال الصحابة في الجانبين إنما هو في ترجيح أحد القولين ، وكان السلف لا يختلفون في أصل المشروعية ، وإنما كان خلافهم في أولى الأمرين ولا ترى أئمة المذاهب في هذه المواضع إلا وهم يضجعون القول ويبينون الخلاف ، ويقول أحدهم هذا أحوط ، وهذا هو المختار ، وهذا أحب إلي ، ويقول ما بلغنا إلا ذاك»[٢] .

فذلك غاية مدارك الخلاف بين السلف في مسائل الفروع ، إنما انحصر في رعاية الأولى واتباع الأحوط . أما الجدل الذي أثار الفتن بين المتأخرين ، فلم يكن من منهجهم ، ولا يعد أهله في أصحاب الخلاف المعتبر ؛ لأن العداء والخصام لا يكون من أجل مسائل فروعية محتملة ، المصيب فيها مأجور ، والمخطئ معذور .

وقد وقع بسبب الجهل بآداب الخلاف ومراتبه ، وعدم تحرير محال النزاع ، ضرر كبير ، وفتن مزقت وحدة المسلمين ، وحدثت خصومات ، ومسائل مخزية ، فوجد في تاريخ الخلاف من يفاصل خصمه في الرأي ، ويتبرأ منه لأجل خلاف في الفروع والظنيات ، لا في الأصول والقطعيات . وقد حصل ذلك بين معتصبي الشافعية والحنفية ، ممن اعتقدوا أن الحق متعين في مذهب بعينه .

ومن ذلك ما نُسب إلى إمام الحرمين الجويني مع خصومه في رسالته : «مغيث

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي : ٢/ ٢١٣ سنن الدارقطني ٢/ ٤١ زاد المعاد : ٢٧٤.

(٢) حجة الله البالغة : ١/ ١٥٨.

الخلق في ترجيح القول الأحق» [١] ، إن صحت نسبتها إليه ، حيث رجح فيها مذهب الشافعي على سائر المذاهب ، وقدح في مذهب أبي حنيفة قدحا صريحا لايمت إلى النقد العلمي بصلة .

ثم تصدى للرد عليه الملا علي بن سلطان القاري الحنفي ت ١٠١٤هـ في رسالته العجيبة الغريبة «تشييع فقهاء الحنفية لتشنيع سفهاء الشافعية» ، أبان فيها عن جرأة ووقاحة جاوزت حد الصراحة ، مما لاينبغي صدوره عن أمي جاهل فضلا عن إمام عالم . إذ زعم أن الشافعي لم يكن من المجتهدين ، وأخرج إمام الحرمين من دائرة المسلمين ، وطعن على مذهب الشافعي كما شاء ، وصال وجال في التعصب والقدح دون حياء [٢] . وقد تبعه على ذلك مفتي الحنفية الشيخ «نوح بن مصطفى القونوي» ت ١٠٧٠هـ في كتاب «الكلمات الشريفة في تنويه الإمام أبي حنيفة عن الترهات السخيفة» ، و الكوثري في كتابه «إحقاق الحق بإبطال الباطل في مغيث الحق» [٣] .

وقد ملأه سُخفا وتجنيا على علماء الأمة كعادته في العصبية والانتصار للمذهب ، والتجني على المخالفين .

قال ابن عقيل « رأيت الناس لا يعصمهم من الظلم إلا العجز ، ولا أقول العوام بل العلماء . كانت أيدي الحنابلة مبسوطة في أيام ابن يونس ، فكانوا يستطيلون بالبغي على أصحاب الشافعي في الفروع ، حتى ما يمكنوهم من الجهر بالبسلمة والقنوت . فلما جاءت أيام النظام ، ومات ابن يونس وزالت شوكة الحنابلة ،

---

(١) طبع في المطبعة المصرية عام ١٩٣٤ بالقاهرة ، وقد شكك شيخنا الدكتور عبد العظيم الديب – في صحة نسبته للجويني، وكان قد أعد بحثاً في ذلك، لكن المنية أعجلته قبل نشره .

(٢) ورسالته مخطوطة في مكتبة شيبخ الإسلام عارف حكمت بالمدينة ٣٥/ ٥ مجاميع . الملا علي القاري وأثره في علم الحديث خليل قوتلاي : ١٠٤.

(٣) وهو مطبوع في المكتبة الأزهرية للتراث.

استطال عليهم أصحاب الشافعي استطالة السلاطين الظلمة ، فاستعدوا بالسجن ، وآذوا العوام بالسعايات ، والفقهاء بالنبذ بالتجسيم قال فتدبرت أمر الفريقين ، فإذا بهم لم تعمل فيهم آداب العلم ، وهل هذه إلا أفعال الأجناد يصولون في دولتهم ، ويلزمون المساجد في بطالتهم» [١] .

وهو أمر عريق في الآدميين وسليل ، لم تخل منه أمة ، ولم تسلم منه طائفة في العالمين ، كما قال أرسطو : «الظلم من طبع النفوس ، وإنما يصدها عن ذلك إحدى علتين : علة دينية ، أو علة سياسية لخوف الانتقام» ، وقد نظم الشاعر المتنبي هذا المعنى حين قال :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

*****

(١) الجرح والتعديل ، جمال الدين القاسمي ، ٣٥.

٦ ـ ترتيب الأولويات وتقديم المعضلات

قد علمنا أن من مقاصد إعادة قراءة التراث الإسلامي سد الثغرات الفكرية والمنهجية التي عانى منها المسلمون في سداد المنهج وإتقان التحكم في سنن بناء الحضارة والمجتمع ، لخدمة حاضر الأمة ومستقبلها . ومعلوم أنه لا يتم ذلك إلا بمراعاة حاجيات العصر ومتطلبات الواقع ، و استشراف مستقبل الإسلام منهجا وحضارة .

إذ لا يخفى أن من عظيم الآفات المنهجية التي وقعت في المعرفة الإسلامية الإخلال بفقه الأولويات في معالجة الواقع ، وعدم اعتبار حاجات الأمة في مراتب العلاج ، وقضايا الخلاف والمواجهة ، حيث غلب على كثير من دارسي التراث ومستلهميه للدفاع عن قضايا الأمة الإغراق في الجزئيات على حساب الكليات ، والولع بتلاد الفرعيات على حساب المعضلات . مع أن الجزئيات لا تنضبط إلا بعد إحكام الأصول والكليات ، حتى يستقيم البناء في المعرفة والسلوك .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : «لابد أن يكون مع الإنسان أصول كلية ترد إليها الجزئيات ليتكلم بعلم وعدل ، ثم يعرف الجزئيات كيف وقعت؟ وإلا فيبقى فى كذب وجهل فى الجزئيات ، وجهل وظلم فى الكليات ، فيتولد فساد عظيم» [(١)] .

فإن المسلمين يعانون اليوم من مشاكل ومعضلات فكرية وأخلاقية ، ويواجهون تحديات علمية وحضارية ، دفع بها القاسطون إلي بلادهم ، ولم يحسنوا مجابهتها وتجاوزها لرفع التحدي الواقع في الأمة .

فإن ثمة تيارات كفر وزندقة تلفعت وتسترت برداء المؤسسات الإنسانية والمنظمات الدولية ، وهي اليوم تخرب الأفكار والعقائد والأخلاق في ديار المسلمين ،

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية : ١٩/ ٢٠٣ .

مرة باسم الإغاثة الإنسانية ، ومرة باسم الدفاع عن حقوق الأقليات ، ونحوها من أوجه المكر والنفاق العالمي المنظم . وثمة مذاهب زندقة وإلحاد متستر باسم التشيع الصفوي وحب آل البيت ، ومرة باسم الزهد والتربية في مروط التصوف الفلسفي الإشراقي ، وأخرى باسم التقدم والمدنية لغرس جذور الحداثة والعلمانية في المجتمع ، وهي تيارات ومذاهب جارفة عششت في بلدان المسلمين ، وباضت وفرخت ، حتى صار لها جذور وأفنان ، قد توطنت في الرباع ، وبلغت من قوم وأناس مكامن النخاع .

فالواجب مراعاة فقه الأولويات في معالجة هذه الأدواء والعلل ، وترتيب درجات الخلاف في المواجهة الفكرية والحضارية ، فيواجه المسلمون الكفر والإلحاد ، قبل اختلال المذهب وانحراف المنهاج ، ويدفعون عن الأمة بدع العقيدة قبل بدع السلوك ، ويحفظون أدب الخلاف في الفروع ، فإن الخلاف فيها لا يفسد للود قضية .

قال الزركشى : «فإن ضبط الأمور المنتشرة المتعددة فى القوانين المتحدة ، هى أوعى لحفظها ، وأدعى لضبطها ، وهى إحدى حكم العدد التى وضع لأجلها ، والحكيم إذا أراد التعليم لابد أن يجمع بين بيانين : إجمالى تتشوف إليه النفس ، وتفصيلى تسكن إليه» [1] .

فلا يليق أن ينشغل أعلام الفكر بقضايا ميتة من أنابيش التراث ، يستنفدون في غمارها جهودهم بالشغب على المخالفين ، ويضيعون بذلك واجبات من فروض الكفاية ، عليها تنبني حضارة الأمة وسيادتها ، ويظلون بذلك أمة من البطالين والفارغين يتسولون المعارف والعلوم من أمم الأرض ، ويقتاتون من فتات موائد أعدائهم من اليهود والنصارى ، لا يملكون قوة ولا قرارا .

---

(١) المنثور فى القواعد للزركشي : ١/ ٦٥-٦٦ .

فسداد منهج المعرفة الإسلامية في فقه الخلاف يكون بترتيب جبهات الجهاد العلمي والحضاري ، وتحديد مناط الخلاف والمواجهة ، فإن خطر التبعية لأمم الغرب الصليبية والصهيونية والشيوعية أشد من خطر مساكنة فرق منحرفة من أهل البدع ممن هم في عداد أهل القبلة ، مخالفون للأمة في مسائل وقضايا في العقيدة والمنهاج .

مع ملاحظة أنه قد اندس بين أهل الإسلام من هو أشد خطرا عليهم عقيدة ومنهاجا من الصليبية والشيوعية ، لأنه يلبس الكفر في ثياب الإسلام ، ويبطن الزندقة والإلحاد في صورة الإيمان ، فالمسلمون أشد به انخداعا ، وبلظى ناره التياعا .

ومن ذلك خطر التشيع الصفوي الذي غزا اليوم بلاد المسلمين ، يروم بذلك استعادة حضارة الفرس ومجد بني ساسان الذي هدمه الصحابة المجاهدون زمن عمر ﷺ ، وخطر التصوف الفلسفي الذي هو محض السفه ومضاهاة الخالق ومذاهب المجوس كالنصيرية والإسماعيلية ، وكلها من مشكاة الباطنية .

قال الإسفرايني : «إن الذين وضعوا دين الباطنية كانوا من أولاد المجوس ، وكان ميلهم إلى دين أسلافهم ، ولكنهم لم يقدروا على إظهاره مخافة سيوف المسلمين» [1] .

وقد قرر الأئمة الأعلام أن «النصيرية» أشد كفرا من اليهود والنصارى ، ونحن نرى اليوم غلاة الباطنية من دعاة الحلول والاتحاد ، ودهاقنة الشيعة والنصيرية أشد خطرا على الإسلام من أحبار الصليبية والشيوعية ، لأنهم لبسوا مسوح الإسلام وأفسدوا عقائد المسلمين شيبا وشبابا ، ممن يظنون أنهم في دهاليزهم يحسنون صنعا ، ولا يخفى ماعانى منهم شباب الصحوة في سوريا ولبنان ، من تنكيل وطغيان .

---

(١) التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية من الفرق الهالكين، لأبي المظفر الأسفرايني : ٨٤ .

ومن يطالع كتب الشيعة والنصيرية وغلاة الصوفية يقف على ما تقشعر منه الجلود ، من فساد العقائد ، وادعاء تحريف القرآن ، علم الأئمة المعصومين وأحبار الصوفية الغيب ، وأن بيدهم مفاتيح الجنة والنار ، وأن فرعون أعظم إيمانا من جبريل ، كما يدندن بلك الغلو عشاق تائية ابن الفارض ، وفلسفة الحلاج وابن عربي ، وابن سبعين والسهروردي وأشياعهم ، مما لا تطمع الصليبية الحاقدة والشيوعية المدحورة أن تدس أخطر منه اليوم بين المسلمين .

اقرأ على سبيل المثال «كتاب الكافي» للكليني الذي هو بخاري غلاة الرافضة ، تجد ما يدعيه الشيعة من علم الملاحم ، وما كان وسيكون في آخر الزمان ، وفقه الأئمة المعصومين ، وتجد الطعن الصريح في أعراض الخلفاء الراشدين أبي بكر وعمر وعثمان ، وأن «الصحابة بدلوا الدين وغيروا وفسقوا وزوروا»!! إلى غير ذلك من المكر بالإسلام وتحريف تاريخ الأمة والنيل من حملة الشريعة [١] .

ثم كتاب الإبريز من كلام عبد العزيز الدباغ ، لأحمد بن مبارك ، ترى فيه تفسير الظواهر الكونية بالخرافات والمنامات ، وتحريف علوم الإسلام ، وتقرير عقائد الثنوية من المجوس ، وادعاء علم الأولياء الغيب ، وأنهم يقسمون الأرزاق في الديوان ، ويدبرون ما سيكون ، من جدب ونزول أمطار ، ورخص وغلاء ، وموت شيوخ ، وميلاد أطفال ، ونحو ذلك مما اطلعوا عليه في اللوح المحفوظ [٢] .

ثم دونك «فصوص الحكم» الذي زعم ابن عربي : «أنه رأى النبي ﷺ في المنام يحمله في يده ويقول هذا كتاب فصوص الحكم خذه واخرج به إلى الناس لينتفعوا به ،

---

(١) راجع «الوشيعة في عقائد الشيعة للبروسوي، والشيعة والتشيع لإحسان إلهي ظهير، وآخر من فضح زندقتهم وباطلهم العلامة جار الله الموسوي في كتابه النفيس : «الله وللتاريخ» .

(٢) انظر الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز، لأحمد بن مبارك : ٦٥ – ٩١، ٣٢٦–٣٤٩ .

فجرد النية وأخرجه للناس كما يزعم من غير زيادة ولا نقصان» [١] .

وقد جمع فيه من الزندقة والكلام المرذول ، والكذب على النبي ﷺ ما لم يطمع الصليبيون في نشر أخبث منه بين المسلمين ، والعجيب أن ترى من يعتذر له بأن تلك الضلالات مدسوسة عليه بغير حجة ، مع أن علماء عصره رموه عن قوس واحدة ، ولو كان بريئا من ذلك لاعتذروا له وكشفوا زيف تلك الدسائس ، ومن علم حُجة على من لم يعلم .

قال بدر الدين بن جماعة : «حاشا رسول الله ﷺ ، يأذن في المنام بما يخالف ويعاند الإسلام ، بل ذلك من وسواس الشيطان ومحنته وتلاعبه برأيه وفتنته . . وأما إنكاره ما ورد في الكتاب والسنة من الوعيد : فهو كافر به عند علماء أهل التوحيد ، وكذلك قوله في قوم نوح وهود : قول لغوٍ باطل مردود وإعدام ذلك ، وما شابه هذه الأبواب من نسخ هذا الكتاب ، من أوضح طرق الصواب ، فإنها ألفاظ مزوّقة ، وعبارات عن معان غير محققة ، وإحداث في الدين ما ليس منه » [٢] .

فابن عربي يرى الحق في «وحدة الأديان» ويقول : «فإياك أن تتقيد بعقد مخصوص ، وتكفر بما سواه ، فيفوتك خير كثير فكن في نفسك هيولى لصور المعتقدات كلها ، فإن الله تعالى أوسع وأعظم من أن يحصره عقد دون عقد ، فإنه يقول : ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١١٥] ، فقد بان لك عن الله تعالى أنه في أينية كل وجهة ، وما ثم إلا الاعتقادات ، فالكل مصيب ، وكل مصيب مأجور وكل مأجور سعيد» [٣] .

وبذلك يصبح «الذين كفروا» عند ابن عربي هم «الأولياء الخُلَّص» ، «الذين

---

(١) انظر فصوص الحكم لابن عربي بشرح القاشاني : ٩ .

(٢) جزء عقيدة ابن عربي وحياته لتقي الدين الفاسي. :٢٩-٣٠ .

(٣) فصوص الحكم لابن عربي : ١١٣ .

ستروا محبتهم ، فلا يومنون إلا بالله ، والمجرمون الذين يساقون إلى جهنم وردا ، هم الذين استحقوا المقام الذي ساقهم إليه بريح الدبور ، فهو يأخذ بنواصيهم والريح تسوقهم إلى جهنم وهي البعد الذي كانوا يتوهمونه ، فلما ساقهم حصل له القرب فزال مسمى جهنم في حقهم ، وفازوا بنعيم القرب» [١] .

فلا معنى لعذاب الله أو نار جهنم عند ابن عربي ، بل لا وجود لها إلا في ظواهر الصور لمن تعلقوا بظواهر الشريعة وحُجبوا عن معرفة أسرار غلاة الصوفية ، حيث يقول في الفتوحات المكية : «فإذا وقع الجدار ، وانهدم الصور ، وامتزجت الأنهار ، والتقى البحران ، وعدم البرزخ ، صار العذاب نعيما ، وجهنم جنة ، ولا عذاب ولا عقاب ، إلا نعيم وأمان ، بمشاهدة العيان» [٢] .

فهذا الغثاء هو قرة عين الصليبين وأعداء الإسلام ، ولذلك قامت جامعة السوربون الفرنسية بطبع كفريات ابن عربي في «الفتوحات المكية» التي هي سلاح الصليبيين والمستشرقين لتضليل المسلمين والعبث بلغة القرآن الكريم .

ولم يُستشر علماء الأزهر في ذلك لأن أسلافهم في عهد الأيوبيين حكموا بكفر ابن عربي ، وأودع السجن ، ثم نجح أصحابه من الباطنية الحشاشين بتواطئ مع الملك الكامل أن يهربوه ليظل فكره سُما زعافا سائرا بين الناس .

وقد رأينا وتابعنا اليوم كيف تحالف المتصوفة بزعامة سعيد رمضان البوطي المخذول وشيعة حزب اللات في لبنان مع النظام النصيري في سفك دماء المسلمين ، و تخريب ديارهم ، وقتل أطفالهم وترميل نسائهم ، باسم الدفاع عن نظام الممانعة ، وهو معروف بالعمالة للصهاينة وصد المقاومة ضدهم في الجولان ولبنان .

كما تعنى اليوم مؤسسات ماسونية وجامعات صليبية باستقطاب العلمانيين من

---

(١) انظر فصوص الحكم لابن عربي : ١٠٨ .

(٢) راجع روح المعاني للإمام الآلوسي : ١/ ١٤٢ .

العملاء الخونة في بلاد المسلمين ، ودعمهم بالمال في مراكز البحث ومؤسسات الصحافة والإعلام ، للطعن في مقدسات الإسلام ، وزعزعة ثقة المسلمين بهذا الدين .

وهي حالنا اليوم مع شرذمة ممن يتسترون بفكر الحداثة ، ويقتاتون من بنوك الصهاينة والصليبيين ، ولا شغل لهم سوى النيل من هذه الشريعة وأعلامها ، لتدمير الأخلاق ، وهدم بناء الأسرة ، وتخريب التعليم ، وتمييع أخلاق الشباب ، وإخراجه عن ملة الإسلام .

ففي بيروت قامت مؤسسة بطبع الأعمال الكاملة للعلماني المتفرنس «محمد أركون»الذي ظل ينفث سموم الفكر الوافد ، ويتميز غيظا وحقدا على الإسلام ، حتى تتوغل الثقافة الماكرة في أقطار العالم الإسلامي .

ويقرر محمد أركون بعدها : «أن الإسلام ليس دين الحق ، وأنه ليس لنا معشر المسلمين أن ندعي امتلاك الحقيقة ، لأن ذلك جر حروبا دينية طويلة في العالم ، فالإسلام مجرد تجربة دينية تاريخية كسائر الأديان ، يخضع للنقد والمراجعة في كل عصر» [1] .

فلتنم الصهيونية والصليبية في مراقدها قريرة العين بخذلان المسلمين وتدمير حصونهم من الداخل ، ولا حاجة بها إلى أن تكلف نفسها عناء اجتياح بلادهم بخيلها ورجلها ، لأن هناك أمة من المبطلين ينوبون عنها ، فإن هذا الكفر يفعل بعقيدة المسلمين وعلومهم وحضارتهم ما تفعله النار بحصاد الهشيم .

كما أن المسلمين يعشون اليوم فقرا مدقعا في امتلاك ناصية علوم الكون ، التي

---

(١) صرح بذلك أركون في برنامج للقناة الثانية بالمغرب، بحضور مصطفى بوهندي الذي هو على شاكلته وأحمد العبادي الذي لم يرد عليه بشيء في ظل مغرب الثقافات، والتسليم بثقافة الحوار ولو في مجال القطعيات .

أذلنا بالتحكم فيها المبطلون من فلاسفة صدام الحضارات ، فمن النكاية بالإسلام أن ينشغل المسلمون اليوم عن صد هذا الكفر البواح ، وتحقيق فروض الكفاية في علوم الكون لرفع ذل التبعية للأمم عن المسلمين ، بردود سخيفة لتمزيق وحدة الأمة .

والأعجب منه الاشتغال بإثارة خلافات بائدة ، وتضييع أعمار المسلمين بنشر ردود من جنس «القذاذة في تحقيق مسألة الاستعاذة» ، و«الجوهرة الغالية في حكم الجماعة الثانية»ونحو ذلك مما فرغ العلماء منه ، ولم يدعوا فيه كلاما لمتعقب ، فالاشتغال به ضرب من اللغو والفكاهة ، وتضييع جهود المسلمين في غير طائل .

*****

المبحث الثالث

معالم في نقد المعرفة الإسلامية ونخل التراث

١ – فهم السلف أسد وأقوم ، ومذهبهم أسلم وأعلم وأحكم .

٢ – لا نعصم العلماء ولا نؤثمهم .

٣ – نأخذ النص وننسخ الشخص .

٤ – مراعاة المذاهب بالدليل واطراح التقليد والتزيين .

٥ – قول الأكثرين والمشهورين ليس حجة .

٦ – الحذر من تحريف الغالين وانتحال المبطلين

١ـ فهم السلف أسد وأقوم ، ومذهبهم أعلم وأحكم

اشتهر بين دعاة التوفيق بين الشريعة ومذاهب الفلاسفة والمتكلمين «أن مذهب السلف أسلم ، ومذهب الخلف أعلم وأحكم» تزينا لما ظهر عند الأخلاف من الأهواء التي أحدثها المعتزلة والمرجئة والجهمية ، وغيرهم من المتكلمين ، وانتهوا إلى التعطيل أو التأويل ، والخوض فيما سكت عنه سلف الأمة ، مع أن السلف عن علم سكتوا ، وبإدراك كفوا .

فالاشتغال بتحريف تراث السلف بتأويلات المتكلمين ، وتلبيسات الفلاسفة ، وخرافات المتصوفة ، متولج ضلالة ، ومدخل غواية ، ومضيعة زمان ، لا يعود على الأمة بخير في حاضر أو مستقبل .

فقد تقرر أنه ما مات رسول الله ﷺ حتى أكمل الله الدين وأتم البيان ، وعلم المسلمين كل صغيرة وكبيرة ، من أمور الشرع أصولا وفروعا ، فلم يبق بعده لمبتدع أو متخرص كلام ، ينتحل به هوى جديدا للأمة ، حيث قال ﷺ :«وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة» [(١)] .

قال الهروي ~ سئل مالك عن الكلام والتوحيد فقال : «محال أن يظن بالنبي ﷺ أنه علم أمته الاستنجاء ولم يعلمهم التوحيد ، والتوحيد ماقال النبي ﷺ : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله لا الله ، فما عصم به المال والدم حقيقة هو التوحيد» [(٢)] .

وقد كان السلف إذ سئلوا عن آيات وأحاديث الصفات يقولون : «أمروها بلا كيف» وكان سفيان الثوري يقول «تفسيرها قراءتها» إلى أن حدثت بدع المتكلمين في

---

(١) أخرجه أبو داود : باب في لزوم السنة ٤٦٠٧ والترمذي في العلم ٢٦٨٦ وغيرهما .

(٢) ذم الكلام للهروي : ٢٢ ، والحديث أخرجه البخاري في الإيمان ٢٥ . ومسلم رقم ٢٠ ، وغيرهما .

نفي الصفات أو تأويلها ، كتأويل اليد بالنعمة ، والاستواء بالاستيلاء ، وظهرت بدع الصوفية ، وترتيباتهم في المجاهدة وتعذيب النفس ، ووساوسهم في السلوك .

فظن قوم أن فهم العقيدة ، وإدراك منهج السلوك إلى الله ، ومعرفة أسرار النفس ، لا تدرك إلا بمعرفة وساوس الفلاسفة والمتكلمين ، وجهالات الباطنية ، أصحاب التعاليم والأسرار ، وإسلاس القياد لأشياخ الصوفية . لأنهم في زعمهم أطباء هذا الشأن والعالمون به .

وكأن السلف لم يكن لهم علم بشيء من ذلك . وبذلك تمحلوا تزيين الباطل وتلميع هذه الأهواء ، وقالوا «إن مذهب السلف أسلم ، ومذهب الخلف أعلم وأحكم» .

وهي كلمة جنت على أمة من المتكلمين المتحكمين في فهم مذهب السلف وخدعت خلائق من المغترين ، ولا يخفى ما في ذلك من إزراء بعلوم الأوائل ، واستدراك خفي على مقام النبوة ، في أمور العقيدة والتشريع ، إذ لم يكفهم ما أثر عن النبي ﷺ ، وسلف الأمة ، فاحتاجوا أن يكلموا الدين ، ويسددوا منهاج النبوة بهذه الأهواء .

قال الشوكاني : « فهم متفقون فيما بينهم على أن طريق السلف أسلم ، ولكن زعموا أن طريق الخلف أعلم ، فكان غاية ما ظفروا به من هذه الأعلمية لطريق الخلف أن تمنى محققوهم وأذكياؤهم في آخر أمرهم دين العجائز . . فإن هذا ينادي بأعلى صوت ويدل بأوضح دلالة على أن هذه الأعلمية التي طلبوها : الجهل خير منها بكثير ، فما ظنك بعلم يقر صاحبه على نفسه : أن الجهل خير منه ، وينتهي عند البلوغ إلى غايته ، والوصول إلى نهايته أن يكون جاهلا به عاطلا عنه ، ففي هذا عبرة للمعتبرين وآية بينة للناظرين »[1] .

---

(١) التحف في مذاهب السلف، للشوكاني : ٣-٤.

والأصل أن فهم السلف لنا في الأصول والمنهاج ، خير من فهمنا لأنفسنا ، ورأيهم عند أحمد من رأينا عند أنفسنا ، وكذلك في فروع النوازل التي لا تتغير بالتقادم ، ولنا أن نجتهد فيما جد من وسائل ونوازل لم يعرف لها نظير في زمانهم .

قال ابن مسعود : «من كان مستنا فليستن بمن قد مات ، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد كانوا أبر هذه الأمة قلوبا ، وأعمقها علما ، وأقلها تكلفا ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، إنهم كانوا على الهدى المستقيم» [١] .

وقال الشافعي ~ : «وهم فوقنا في كل علم واجتهاد ، وورع وعقل ، وأمر استدرك به علم واستنبط به ، وآراؤهم لنا أحمد وأولى بنا من رأينا عند أنفسنا » [٢] .

وعن عمر بن عبد العزيز قال : «سن رسول الله ﷺ وولاة الأمر بعده سننا الأخذ بها تصديق لكتاب الله ، واستكمال لطاعة الله ، وقوة على دين الله ، ليس لأحد من خلق الله تغييرها ولا تبديلها ، ولا النظر في شيء خالفها ، من اهتدى بها فهو مهتد ، ومن استنصر بها فهو منصور ، ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرا» [٣] .

فما أحدث من أهواء مخالفة لسننهم ، مباعدة لمنهجهم ، مما علق بالتراث ، فهو من البدع والمحدثات التي لا ينبغي تضييع الأعمار في الاشتغال بها ، أو تكلف تسويغها بركوب كل صعب وذلول . وعدم اكتراث السلف بها ، لا يسوغ النظر فيها ، بحجة الاجتهاد في المسكوت عنه ، أو سد الفراغ الحاصل في علوم الأوائل .

فينبغي أن يعلم أنه ما من خير في العقيدة والفكر والمنهج إلا وأصحاب رسول

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ٤/ ١٣٩.

(٢) إعلام الموقعين : ١/ ٨٠ .

(٣) العقيدة الحموية ، لابن تيمية : ٢٤.

الله السباقون إليه . فما المنطق والفلسفة والكلام والتصوف في جنب علوم السلف إلا كقيعان كدرة ، بجانب بحر خصم عذب زلال ، ومن ورد البحر استقل السواقي .

فقد سئل أبو زرعة عن كتب المحاسبي فقال : «إياك وهذه الكتب ، هي كتب بدع وضلالات ، عليك بالأثر فإنك تجد فيه ما يغنيك ، فقيل له إن في هذه الكتب عبرة ، فقال من لم يكن له في كتاب الله عبرة فليس له في هذه الكتب عبرة ، بلغكم أن سفيان ومالكا والأوزاعي صنفوا هذه الكتب في الخطرات والوساوس ، ما أسرع الناس إلى البدع» [1] .

فكيف لو رأى أبوزرعة تصانيف المتأخرين كقوت القلوب لأبي طالب المكي ، وعوارف المعارف للسهروردي ، وحقائق التفسير للسلمي ، والغنية لعبد القادر الجيلاني ، وفصوص الحكم ، والفتوحات المكية لابن عربي ، وطبقات الصوفية للشعراني ، والمطرب في مشاهير أولياء المغرب لعبد الله التليدي ؟ لطار لبه ، وأنكر انتساب هذه التصانيف لملة الإسلام .

لأن هذه المؤلفات المستخفة بعقول المسلمين ليس فيها خطرات ولا وسواس ، ولا أحاديث النفس ، ولا شدائد المتنطعين في دقائق الزهد والورع ، بل فيها من الباطل الصراح ، والاستهزاء بنصوص الشريعة ، والقول على الله بغير علم ، ما لا يخفى على عاقل .

وقد دخل أخلاف المتكلمين في دهاليز المنطق والفلسفة قصد مماحكة الخصوم ومجادلتهم فانتهوا إلى الحيرة والزيغ ، كما قال الذهبي : «والمنطق نفعه قليل ، وضرره وبيل ، وما هو من علوم الاسلام ، والحق منه فكامن في النفوس الزكية بعبارات غريبة ، والباطل فاهرب منه فإنك تنقطع مع خصمك وتعرف أنك المحق ، وتقطع

(١) ميزان الاعتدال في نقد الرجال : ١/ ٤٣١ .

خصمك وتعرف أنك على الخطأ ، فهي عبارات دهاشة ومقدمات دكاكة ، نسأل الله السلامة ، وإن قرأته للفرجة لا للحجة ، وللدنيا لا للآخرة ، فقد عذبت الحيوان وضيعت الزمان ، والله المستعان» [١] .

*****

(١) بيان زغل العلم للذهبي : ٤٣ .

٢ ـ لا نعصم العلماء ولا نؤثمهم

إن نقد الآراء والأفكار لا يوجب إهدار أقدار العلماء والحط من منازلهم، الإزراء بعلومهم، كما لا يوجب اتباعهم فيما أصابوا فيه التعصب لآرائهم واعتقاد العصمة فيهم، بل لا نجعل كل ما قالوه حقا ينبغي اتباعه، ولا باطلا ينبغي اجتنابه، إذ كلا طرفي القصد مذموم.

قال ابن القيم: «لابد من أمرين أحدهما معرفة فضل أئمة الإسلام، ومقاديرهم وحقوقهم ومراتبهم، وأن فضلهم وعلمهم ونصحهم لله ورسوله لايوجب قبول كل ما قالوه، وما وقع في فتاويهم من المسائل التي خفي عليهم فيها ماجاء به الرسول، فقالوا بمبلغ علمهم، والحق في خلافها لا يوجب إطراح أقوالهم جملة وتنقصهم والوقعية فيهم، فهذان طرفان جائران عن القصد، وقصد السبيل بينهما. فلا نؤثم ولا نعصم، ولا نسلك بهم مسلك الرافضة في علي، ولا مسلكهم في الشيخين»[1].

فقد جرى أسلاف المسلمين على ذلك في تقدير العلماء المجتهدين واطراح الإثم عن المخطئين منهم في المسائل الاجتهادية، مع علمهم أن الحق متعين بدليله لا بقائله، خلافا لأهل الأهواء.

قال الإمام الآمدي: «اتفق أهل الحق من المسلمين على أن الإثم محطوط عن المجتهدين في الأحكام الشرعية، وذهب بشر المريسي وابن علية وأبو بكر الأصم ونفاة القياس، كالظاهرية والإمامية، إلى أنه ما من مسألة إلا والحق فيها متعين، وعليه دليل قاطع، فمن أخطأه، فهو آثم غير كافر، ولا فاسق. وحجة أهل الحق في ذلك، ما نقل نقلا متواترا لا يدخله ريبة ولا شك، وعلم علما ضروريا من

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين: ٣/ ٢٨٣.

اختلاف الصحابة فيما بينهم في المسائل الفقهية ، مع استمرارهم على الاختلاف إلى انقراض عصرهم ، ولم يصدر من أحد منهم نكير ، ولا تأثيم لأحد ، لا على سبيل الابهام ولا التعيين» [١] . وقد خلط قوم في هذا الشأن ، فجعلوا شخص العالم مناطا لإدراك الحق أو معرفة الباطل ، واتخذوا كلامهم في مصنفاتهم ذريعة إلى الوقيعة فيهم ، أو المبالغة في مدحهم ، ورفعهم فوق مقام البشر .

قال ابن قتيبة : «وقد يظن من لايعلم من الناس ولا يضع الأمور مواضعها أن هذا اغتياب للعلماء وطعن على السلف وذكر للموتى ، وكان يقال «اعف عن ذي قبر» ، وليس ذلك كما ظنوا ؛ لأن الغيبة سب الناس بلئيم الأخلاق ، وذكرهم بالفواحش والشائنات . فأما هفوة في حرف أو نحو ذلك في معنى أو إغفال أو وهم أو نسيان ، فمعاذ الله أن يكون من هذا الباب ، أو يكون صاحبه آثما بل يكون مأجورا عند الله ، مشكورا عند عباده الصالحين ، وقد كنا زمانا نعتذر من الجهل ، فقد صرنا الآن نحتاج إلى الاعتذار من العلم ، وكنا نؤمل شكر الناس بالتنبيه والدلالة ، فصرنا نرضى بالسلامة ، وليس هذا بعجيب مع انقلاب الأحوال ، ولا ينكر مع تغير الزمان وفي الله خلف ، وهو المستعان» [٢] .

فلا يُنزه المؤالف في صوابه ، ولا يؤثم المخالف في اجتهاده قال ابن تيمية : «وليس كل مخالف في شيء من هذا الاعتقاد يجب أن يكون هالكًا . فإن المنازع قد يكون مجتهدًا مخطئًا ، يغفر الله له خطأه ، وقد لا يكون بلغه في ذلك من العلم ما تقوم به عليه الحجة ، وقد يكون له من الحسنات ما يمحو الله به سيئاته» [٣] .

فالعلماء حراس ثغور في هذه الأمة ، على مقدار ما عندهم من العلم والورع ، فلا نعتقد العصمة فيهم إن أصابوا ، ولا نستبيح الوقيعة فيهم إن أخطأوا ولو اشتغل الناس بما يحسنون ، وسكتوا عما يجهلون لقل الخلاف .

---

(١) الأحكام في أصول الأحكام : ٤/ ١٨٢ .

(٢) إصلاح غلط أبي عبيد لابن قتيبة : ٤٦ ، ٤٧ .

(٣) العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، لمحمد بن أحمد المقدسي : ٢٣٠.

٣ـ نأخذ النص وننسط الشخص

وهي قاعدة في منهج نقد النصوص والأفكار ، والنظر في آراء العلماء ، فالذي يهمنا من تراث العلماء كلامهم ، لا أشخاصهم وذواتهم ومذاهبهم ، فننظر إلى القول لا إلى قائله ، وحسبنا تمحيص الرأي ، لا الطعن في صاحبه ، إلا أن يكون متسافها مجاهرا بضلاله فلا يحفظ معه أدب العلماء .

وقد زل أقوام فأناطوا الحق والباطل بمسالك الرجال وشهرتهم أو خمولهم وذلك مسلك في غاية الاختلال ، فإن الحق لا تزري به ضعة عالم ، أو خمول ذكر ، أو شهرة بالهوى ، كما لا يرفعه ذيوع صيت ، أو علو شأن ، لأن الحق دائر مع الدليل حيث دار ، فنقبله من أي كان .

فلو جاء الحق عن رؤوس أهل الأهواء ، وجب اتباعه لدليله وعدم الالتفات إلى قائله . فلا يستقيم تركه والإعراض عنه لمجرد أنه صدر عن فلان الزائغ في عقيدته ، المتهم في رأيه .

قال الذهبي : «غلاة المعتزلة ، وغلاة الشيعة ، وغلاة الحنابلة ، وغلاة الأشاعرة ، وغلاة المرجئة ، وغلاة الجهمية ، وغلاة الكرامية ، قد ماجت بهم الدنيا وكثروا ، وفيهم أذكياء وعبّاد وعلماء ، ونحب العالم على ما فيه من الاتباع والصفات الحميدة ، ولا نحب ما ابتدع فيه بتأويل سائغ ، وإنما العبرة بكثرة المحاسن»[1] .

فإن الحق بدليله لا بقائله ، يجب المصير إليه ولو نُقل على ألسنة أهل الزيغ والأهواء ، أمثال بشر المريسي ، وعمرو بن عبيد ، والجاحظ وجار الله الزمخشري ، وأبي حيان التوحيدي ، وأضرابهم . ولا أعلم أن أحدا من أئمة البلاغة والبيان ونقاد التراث ، استغني عن النظر في تفسير الكشاف للزمخشري ، مع ما فيه من

---

(١) سير أعلام النبلاء : ٢٠/ ٤٤ .

اعتزاليات أخرجها ابن المنير الإسكندري بالمناقيش ، ولا يُعرف من علماء الأدب من أعرض عن كتب الجاحظ ، أو شعر المتنبي أو المعري ، كما لا يسع اليوم مفكرا ترك النظر في تصانيف الغزالي ، والجويني وابن عابدين ، وابن عطاء الله ، وإنما يُستجاد القول لرفعته وخلوصه من الشوائب .

قال الأمير عبد القادر الجزائري : «اعلموا أنه يلزم العاقل أن ينظر في القول ولا ينظر الى قائله ، فإن كان القول حقا قبله ، سواء كان قائله معروفا بالحق أو الباطل ، فإن الذهب يستخرج من التراب ، والنرجس من البصل ، والترياق من الحيات ، ويُجتنى الورد من الشوك ، فالعاقل يعرف الرجال بالحق ، ولا يعرف الحق بالرجال والأعمى لا يصح أن يقود العميان ، وإذا كان تقليد الرجال مذموما غير مرضي في الاعتقادات ، فتقليد الكتب أولى وأحرى بالذم ، وإن بهيمة تقاد ، أفضل من مقلد ينقاد» [١] .

وهذا الذي جرى عليه علماء الإسلام فإن البدع والأهواء لم تمنعهم من إدراك الحق في ركابه ، وتحريه في نصابه ، كائنا قائله من كان ، فقد روى البخاري عن خلائق من أهل البدع ، من القدرية ، والخوارج ، والمرجئة ، كعمران بن حطان الخارجي ، وعكرمة مولى ابن عباس المتهم بالإرجاء ، وعباد بن يعقوب الرواجني الشيعي ، المتهم في دينه ، الصادق في روايته ، وأبان بن تغلب الرافضي .

لكنهم قيدوا جواز الأخذ عن أهل الأهواء بأن لا يكون فيه إشهار لمذاهبهم ، كما قال الإمام الجوزجاني : «ومنهم زائِغٌ عن الحقّ ، صدوق اللهجة ، قد جرى في الناس حديثه ، إذ كان مخذولاً في بدعته ، مأموناً في روايته ، فهؤلاء عندي ليس فيهم حيلة إلا أن يؤخذ من حديثهم ما يُعرَف ، إذا لم يُقَوِّ به بدعته ، فيُتَّهم عند ذلك» [٢] .

---

(١) قواعد التحديث ، لجمال الدين القاسمي : ٣٧٣ .

(٢) أحوال الرجال للجوزجاني : ٣٢.

وذاك منتهى النزاهة العلمية ، وغاية العدل في معاملة المخالفين . وقد ضرب المحدثون في هذا بسهم وافر ، وكان لهم فيه نماذج رائعة ، صارت غرة في جبين تاريخ المعرفة الإسلامية ، ومنارة لمن يتحدثون اليوم عن الموضوعية العلمية والنزاهة واحترام الرأي الآخر ، وهي عبارات أُفرغت اليوم من محتواها ، بل حسبك منها طنين الألفاظ ، وتشقيق الخطاب .

فقد ترجم الإمام الذهبي لخلائق من أهل الأهواء والبدع ، وبين ما يؤخذ عنهم من الحق ولا يهضمون فيه ، كقوله في أبان : «أبان بن تغلب ، شيعي جلد لكنه صدوق فلنا صدقه ، وعليه بدعته» (١) .

وقال : «كان قتادة وهشام الدستوائي ، وسعيد بن أبي عروبة ، وعبد الوارث ، وذكر جماعة يقولون بالقدر ، هم ثقات يكتب حديثهم ما لم يدعوا إلى شيء ، قلت هذه مسألة كبيرة ، وهي : القدري والمعتزلي والجهمي والرافضي ، إذا عُلم صدقه في الحديث وتقواه ، ولم يكن داعيا إلى بدعته ، فالذي عليه أكثر العلماء قبول روايته ، والعمل بحديثه وقال بعضهم : إذا علمنا صدقه وكان داعية ، ووجدنا عنده سنة تفرد بها ، فكيف يسوغ لنا ترك السنة ؟» (٢) .

وعن يحيى بن معين ، قال : «يقدم عليكم رجل من أهل الكوفة ، يقال له : عبد الرحمن بن صالح ثقة ، صدوق ، شيعي ، لأن يخر من السماء ، أحبَّ إليه من أن يكذب في حرف» . وكان يغشى ، مجلس أحمد بن حنبل ، فيقربه ويدنيه ، فقيل له في ذلك ، فقال : سبحان الله ، رجل أحبَّ قوماً من أهل بيت النبي ﷺ ، نقول له : لا تحبهم! هو ثقة» (٣) .

---

(١) ميزان الاعتدال : ١/ ٥ .

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي : ٧/ ١٥٣ ، ترجمة هشام الدستوائي .

(٣) تهذيب الكمال : ١٧/ ١٨١ ، تاريخ بغداد : (١١ / ٥٤٤) .

وبذلك قرر أئمة الإسلام أنه لا عبرة بالمذاهب في الرواية ، بل يؤخذ العلم عن الرجال بدليله لا بقائله . ومُطَرح الرجال لأجل المذاهب يضيع عليه علم كثير .

*****

٤ . مراعاة المذاهب بالدليل وإطراح التقليد والتزيين

والمراد بهذ القاعدة أن نقبل من مذاهب العلماء وآرائهم ، ما وافقوا فيه أدلة الشريعة ، ولم يخرجوا عن مقتضاها ، ونطرح منها القول المهجور وما كان بمحض الظن والتقليد بغير دليل . فلا نجحف بآرائهم فيما أصابوا فيه ، ولا نغالي في تقليدهم بمجرد الهوى والتزيين ، قال الله تعالى : ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ [محمد:١٤] ، ولا بد في ذلك من أمرين :

اتباع المذهب بدليله لا بقائله :

وهذا باب زلت فيه أقدام ، وضلت فيه أفهام ، من لدن غلاة المقلدين ، وجفاة اللامذهبيين ، أما الجفاة فكفروا بآراء العلماء جملة وتفصيلا ، بدعوى أنها آراء رجال ، سواء حالفها الدليل أو خالفها ، وقالوا نجتهد كما اجتهدوا ، فهم رجال ونحن رجال .

وزعموا أن ابن تيمية كان سلفا لهم في ذلك ، وشيخ الإسلام بريء من هذا الوسواس الخناس ، الذي انتحلوه يلبسون به على أغمار الناس ، ورسالته «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» طافحة بغرر الأدلة والأقوال التي تفحم المتخرصين .

ومن يك ذا فم مر مريض ... يجد مرا به الماء الزلالا

وقد أثارت هذه الدعوة بلاء على الفكر الإسلامي في السنين الأخيرة ، حيث ظهرت نابتة من المتنطعين ، ينادون بنبذ المذاهب الفقهية وآراء العلماء والاستنباط من الكتاب والسنة مباشرة مع أن أكثرهم من الأحداث المبتدئين ، ممن لا يحسنون إقامة اللغة والكلام ، فضلا عما سوى ذلك من الأدلة والأحكام .

وقد رد على أصحاب هذه الدعاوى الكاسدة وكشف زيف توهماتهم الفاسدة

الشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني ت ١٢٥٣هـ على ما في النقل عنه من حرج ، وما في نحلته من عرج ، في رسالة أسماها «السهام الصائبة لأصحاب الدعاوى الكاذبة» .

ومما قال فيها : «فإذا علمت هذا تعلم أن ما يهذي به بعض طلبة العلم من بلوغهم درجة الاجتهاد المطلق ، وأنهم تأهلوا لاستنباط الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة . ولم يبق لهم حاجة إلى تقليد الأئمة الأربعة وصاروا يعترضون بأفهامهم السقيمة على المذاهب ، ويقولون نحن لانعمل بآراء الرجال ، وما أشبه ذلك من عبارات المغرورين الجهال ، هو من الوساوس الشيطانية والدعاوى النفسانية ، التي حملهم عليها قلة العقل والدين» [(١)] .

ثم قال : «وإذا تقرر ذلك فاعلم أن من الجنون فنونا ، وأن من أقبح فنونه جنون هؤلاء الحمقى ، الذين ظهروا في هذا الزمان السيء ، وجعلهم الشيطان ملعبة ، فحملهم على دعوى الاجتهاد وبعضهم إلى الآن لا يحسن الاستنجاء ، فضلا عما فوق ذلك من أوصاف العلماء أف لهذه الدعوى الكاذبة الباطلة وأهلها» [(٢)] .

فهي ظاهرة تعالم الأحداث ، وتشيخ الصحفية ممن طاولوا العلماء ، وهم لم يبرحوا التراب ، وهذا من بلايا الجرأة على الأسلاف . ومع انتساب هؤلاء للسلفية ،

---

(١) السهام الصائبة لأصحاب الدعاوى الكاذبة، ضمن شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق للنبهاني : ٢٦ . ولا يخفى أن الرجل من غلاة المتصوفة صاحب طامات، فلا نخليه من الذم، واستدلالنا بكلامه لايوجب إقرار باطله، لكن نأخذ الحق ولا يضرنا من أي وعاء خرج .

(٢) السهام الصائبة لأصحاب الدعاوى الكاذبة، :٢٦ . وليس في الكتاب من شواهد الحق شيء ذو بال إلا ما كان من جنس هذا الكلام، وإلا فحقه أن يسمى شواهد الباطل ومستودع الضلالات والمناكر، فدلائله على جواز الاستغاثة بالأنبياء والصالحين أحزاب أكابر الصوفية، كحزب البحر، وحزب الطلسم، واستغاثات الصوفية المريدين بقبور المشايخ في الشدائد، ونحو ذلك من الأدلة الباردة الجوفاء، التي لم تعتصم بدليل.

فإنهم آفة وذباب تطاير وتهافت على مذاهب السلف وهم منه براء . فإن لكل أمة حشوا من المنتسبين المتعلقين بأذيالها ، فما عرفنا علماء السنة إلا دعاة للإتباع والنظر في المذاهب ، والاهتداء بأقواها دليلا وأهداها سبيلا ، وما سمعنا أحدا من أعلامهم دعا إلى نسف المذاهب جملة وتفصيلا حتى نبتت نابتة هؤلاء الأحداث .

فليست الآفة في المذهبية أو التحرر والاجتهاد ، إذ لم يوجب الله على أحد لزوم مذهب بعينه ، ولا اطراح كل المذاهب ، والاستقلال بالنظر والتأصيل ، فإن ذلك ليس في مكنة كل واحد من الناس ، بل غالب الأمة متبعون أو مقلدون ، بينهم وبين الاجتهاد خرط القتاد وصعود السماء .

و بيت القصيد بالنسبة لمن بلغ درجة النظر في الأصول اتباع الدليل ، فإن كان الدليل في قول مالك أو الأوزاعي أو الشافعي أوأبي حنيفة أو أحمد أو ابن حزم أو غيرهم وجب اتباعه والمصير إليه .

فما ينبغي أن يصدنا ذم التقليد ومحاربة رسوم المشيخة أن نعترف بالحق لأهله ، ولا يهمنا من أي وعاء خرج ، فإن الحق يعرف بالأدلة كما أن الشهور تشتهر بالأهلة .

ومن علم أدب السلف مع الأئمة الأعلام خنس وكف عن هذا الوسواس الذي أثاره أدعياء اللامذهبية ، الذين سمعنا أخيرا أن أخلافهم في الحجاز من أتباع «محمود سعيد حداد» عمدوا إلى إحراق فتح الباري ؛ لأن صاحبه كان أشعري العقيدة في الأسماء والصفات .

والحق أن هذه الشنيعة التي لم نسمع بها في سالف الأزمان جرأة وافتئات على العلماء ، وبطر للحق ، وغمط للناس ، فأين الثرى من الثريا ، وأين هؤلاء الغلمان من إمام أهل السنة في زمانه الإمام الشوكاني رحمه الله الذي استعظم أن يستدرك على فتح الباري بتصنيف شرح للبخاري ، فقال «لا هجرة بعد الفتح» ، لكنها محنة

العلماء مع جهلة العوام لا يقف دون لفح نارها وتطاير شررها حد .

كما غلط في هذا الشأن غلاة المقلدين المتعصبين للمذاهب ، وجهلة المتصوفة ، الذين عطلوا نعمة العقل والنظر واتبعوا المشايخ سادرين مغفلين ، وتلقوا بمطلق القبول والتسليم كلام المتقدمين دون تمييز .

الحذر من داء العصبية للمذاهب :

وهو داء سرى في متعصبة المذاهب الذين نزلوا أشياخهم منازل المعصومين ، أمثال الجويني والحصكفي والملا علي القاري ، وغيرهم من القائمين على نصرة المذاهب الفقهية .

فقد ادعى الجويني وجوب اتباع الخلائق لمذهب الشافعي ؛ لأنه أقومها قيلا وأهداها سبيلا ، فقال : «ونحن ندعي أن يجب على كافة العاقلين وعامة المسلمين شرقاً وغرباً ، بعداً وقرباً انتحال مذهب الشافعي ، ويجب على العامة الطغام والجهال الأنذال أيضاً انتحال مذهبه ، بحيث لا يبغون عنه حولاً ولا يريدون به بدلاً »[1] .

وقد أغرق متأخرو الحنفية في هذه العصبية للمذهب ، وأبعدوا النجعة في المدح والإطراء لأبي حنيفة ، كما فعل الحصفكي الحنفي الذي قال : «والحاصل أن أبا حنيفة النعمان من أعظم معجزات المصطفى ﷺ بعد القرآن ، وحسبك من مناقبه انتشار مذهبه ، ما قال قولاً إلا أخذ به إمام من أئمة الأعلام ، قد جعل الله الحكم لأصحابه وأتباعه من زمنه إلى هذه الأيام إلى أن يحكم بمذهبه عيسى عليه السلام»[2] .

وهذا تعصب مقيت استنكره العلماء كابن عابدين والسيوطي حيث قال : «ما يقال إنه يحكم بمذهب من المذاهب الأربعة باطل لا أصل له . وكيف يظن بنبي أنه

---

(١) إرشاد النقادإلى تيسير الاجتهاد،للصنعاني : ١٧ .

(٢) الدرالمختار لعلاء الدين الحصفكي الحنفي : ١/ ٦٠.

يقلد مجتهداً مع أن المجتهد من آحاد هذه الأمة لا يجوز له التقليد ، إنما يحكم بالاجتهاد »[١] .

كما سار على ذلك الإمام التهانوي الحنفي الذي حمله تعصبه للحنفية على أن يقسم الأيمان المغلظة على أن مذهب أبي حنيفة هو أصح المذاهب حيث قال : «فو الله لم يولد في الإسلام بعد النبي ﷺ أيمن وأسعد من النعمان أبي حنيفة ، ودليل ذلك ما هو مشاهد من اندراس مذاهب الطاعنين عليه ، وانتشار مذهب أبي حنيفة وازدياده اشتهارا ليلا ونهارا ، ويأبى الله والمؤمنين إلا أبا حنيفة»[٢] .

ومعلوم أن التعصب والتبعية العمياء للرجال من شيم النفوس الضعيفة ، والعقول المريضة ، التي عجزت عن إبصار نور الحق بالأدلة ، لغلبة شِقوة الجهل عليها ، فطلبته في آراء الرجال .

قال أبو بكر بن العربي ~ : «فإن العالم لا ينضج حتى يترفع عن العصبية المذهبية ويجنح إلى الحق والخير حيثما كانا ، ومن كان الحق غرضه تحراه واحتج له وكان معه في كل حال . أما التعصب للطائفية والمذهب وبُنيات الطريق ، وتمحل الحجج الواهية لذلك ، فمن دلائل صغر النفس وزغل العلم والأنس بالباطل»[٣] .

وقد تبعهم على ذلك عوام المتأخرين أتباع كل ناعق من متصوفة المخرقة ، الذين اعتقدوا عصمة المشايخ ، وأذعنوا لسخافاتهم ، بدعوى أن لهم علما خاصا لا تفهمه العوام ، فإذا قال الصوفي منكرا من القول وزروا سلموا له بلا اعتراض ، و إلا عم الله المريد بالبلاء . لأن السلامة عندهم في الانقياد وترك الاعتراض . وهذا السفه جر بلايا على المسلمين ، وأركسهم أزمانا في ذل التخلف والتبعية .

---

(١) رد المحتار على الدر المختار لابن عابدين : ١٤٠ .

(٢) الرفع والتكميل في الجرح والتعديل، للكنوي : ٣٩٤ .

(٣) العواصم من القواصم لابن العربي : ٢٩ .

٥ ـ قول الأكثرين والمشهورين ليس حجة على المسلمين

ألف خلق من المقلدين اتباع الرأي لشهرة صاحبه ، أو لكثرة من قال به ، وهذا منهج الغوغاء أتباع كل ناعق ، ممن لم يعتصموا بالعلم ولم يأووا إلى ركن وثيق ، يستدلون على الباطل بكثرة الأتباع ، وشهرة الشيوخ ، وذيوع الصيت ، والغربة عن المألوف ، من جنس أو لغة أو بلد . كما قال ابن الجوزي في أمثالهم :

عذيري من فتية بالعراق ... قلوبهم بالجفا قُلَّبُ
يرون العجيب كلام الغريب ... وقول القريب فلا يعجب
وعذرهم وعند توبيخهم ... مغنية الحي لا تطرب

فتراهم يعجبون بالشيخ إذا كان من أصحاب الطبوليات ، ولو كان أفرغ من فؤاد أو موسى في العلم والفضل ، ويتبعون الرأي والمذهب لكثرة من قال به وقلده من الرعاع . والناس أسراب طير .

وليس هذا سبيل معرفة الحق ، بل هو طريق المشركين ، والجاهلين ، كما حكى عنهم القرآن ، قال تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٣] .

وقال تعالى : ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ [الأنعام:١١٦] .

فليس في الكثرة والشهرة دليل على صواب رأي أو مذهب ، بل جرت سنة الله على قلة أهل الحق بين الناس ، وهي سنة الله في أتباع الأنبياء ، كما قال تعالى : ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ [هود:٤٠] .

وعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : «**عُرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط ، والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي ليس معه أحد ، إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي فقيل لي : هذا موسى ﷺ وقومه ، ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد عظيم فقيل لي : انظر إلى الأفق الآخر فإذا سواد عظيم فقيل لي : هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب**» [(١)] .

فذكر أمة موسى وسوادهم العظيم ، ولم يذكر أمة عيسى عليه السلام ، مع أن النصرانية هي الديانة الأولى من حيث عدد المنتسبين إليها اليوم . وكذلك أمة المجوس البوذيين يملؤون اليوم آفاق الدنيا وكل ذلك لا قيمة له عند الله في إصابة الحق ومعرفته .

فعن ابن مسعود قال : «عليك بطرق الهداية ، ولا تستوحش لقلة السالكين ، وإياك وطرق الضلالة ، ولا تغتر بكثرة الهالكين» [(٢)] .

وأثر عن الإمام الأوزاعي ~ أن كان يقول :«عليك بآثار من سلف وإن رفضك الناس» [(٣)] .

وقد جبلت الكثرة على اتباع كل ناعق ، والسير وراء كل دجال ، لمجرد أنه زعيم في قومه ونجم في سماء أهله ، مع أن الزعامة والشهرة بكثرة الأتباع والتعرض للمحن والبلايا والسجون تحصل للمؤمن كما تحصل للكافر ، وتقع للصالح والطالح ، فلا تقوم دليلا وحجة على سلامة عقيدة أو استقامة منهاج فيمن اشتهر بذلك من الناس .

---

(١) أخرجه البخاري : ٥٢٧٠، ومسلم ٣٢٣ ، وأحمد في المسند : ٢٣٢١، والطبراني في الكبير : ١٤٤٦٦.

(٢) ويروى نحو هذا من كلام الفضيل بن عياض ~ .

(٣) مختصر العلوللعلي الغفار للذهبي :١٢٣.

فقد دخل السجن يوسف عليه السلام وهو على الحق ، وخرج منه منصورا مشهورا ، ومكن الله له في الأرض ، وآل إليه ملك مصر ، ودخله معه فتيان مشركان وكانا على الباطل . وامتحن بالسجون والمحن والبلايا في زماننا خلائق من أهل الحق الإسلاميين وأهل الباطل من الملاحدة والعلمانيين والشيوعيين ، وقد يكون نصيب أهل الباطل من المحنة والبلاء أكثر وأشد من نصيب أهل الحق .

فلئن كان دليل الحق «المحنة والشهرة والبلاء» فإنه يجب اتباع الأكثر محنة وشهرة والأشد بلاء ، دون تمييز بين صالح وطالح ، وهذا منهج الرعاع أتباع كل ناعق ، المتبعين لذوات الرجال ، دون نظر أو اعتبار لسداد المناهج والأفعال .

قال ابن قتيبة ~ : «ولو ردوا المشكل منهما إلى أهل العلم بهما لوضح لهم النهج ، واتسع لهم المخرج ، ولكن يمنع من ذلك طلب الرئاسة وحب الاتباع ، واعتقاد الإخوان بالمقالات . والناس أسراب طير يتبع بعضها بعضا . ولو ظهر لهم من يدعي النبوة مع معرفتهم بأن رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء ، أو من يدعي الربوبية ، لوجد على ذلك أتباعا وأشياعا» (١) .

فلا يحجبنك أيها المقلد عن دفن أفكارك البالية البائدة هوى شهرة ، أو استعلاء بكثرة . ولا يصدنك عن اتباع الحق شهرة شيخ ، أو ذيوع صيت أو كثرة أتباع . فإن الحق يعرف بالأدلة كما أن الشهور تشتهر بالأهلة ، فسر تحت راية الدليل ، ولا تكن بهيما تدفع في نحر دلائل الهدى البينة ، بقيل ، ولعل ، وقد ، وربما .

قال الحافظ المزي رحمه الله «واعلم أن الحق ثقيل ، وهو مع ثقله مريء ، وأن الباطل خفيف ، وهو مع خفته وبيء» (٢) .

*****

(١) تأويل مختلف الحديث، لابن قتيبة : ١/ ١٤ .

(٢) من كلام الحافظ المزي ~ ، تهذيب الكمال في أسماء الرجال : ٥/ ٥٠٨.

٦ـ الحذر من تحريف الغالين وانتحال المبطلين

التحريف والانتحال والتزيين من غوائل النظر في مقام الخصومة والمناظرة، وغايته إظهار الباطل في صورة الحق بمحض الهوى. وقد نص علماء الإسلام على أن أقوال المفسرين والفقهاء، والمحدثين، والمؤرخين، والفلاسفة وأهل الآداب، لا تعتبر حجة على أحد من المسلمين، ما لم تستند إلى دليل شرعي. فينبغي التمييز بين أدلة الشرع المعتبرة، وبين آراء الرجال، التي جمعت الغث والسمين، والمكين مع المزلزل العليل.

والدليل في تحري الصواب يكون قبلة العالم، إذا سلم منهاجه، وصفت مشاربه من الأهواء والشبهات، فإن غلب عليه الهوى والعصبية، لطائفة أو مذهب، ركبته عفاريت الدنيا، فيترك العلم، ويركب صهوة والهوى، وتزين الباطل في صورة الحق، فتراه يخبط خبط العوام، ويستدل بالأوهام، التي لا تروج على المبتدئين من الصبيان.

وهذا من جنس مسلك أهل الكتاب المحرفين لكلم الله عن مواضعه، وقد كثر في أهل الأهواء، الذين لا يجدون دليلا يعضد أراءهم، فيلوون أعناق النصوص والأدلة، لتسند أهواءهم، وتنصر مذاهبهم.

قال ابن القيم: «وعلى أعقاب هؤلاء حلت قارعة التحريف، في كل من غلا في المذاهب، وجفا النصوص، وعقد الولاء والبراء على المذهب، والتعصب لإمام المذهب، لا على الدليل، وما قام عليه من الحق المبين»[1].

وقد وقع في هذا الغلو في الانتصار لزلل الرجال بالتنميق والتزيين، بعض جلة

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤١٧.

العلماء ، كالسيوطي الذي صنف رسائل يقضي امرؤ منها العجب ، حشر فيها ترهات ، وساق فيها دلائل واهيات ، كالرؤى والمنامات ، والأحاديث الموضوعات ، ويكفي أن تقرأ عناوينها لتعلم سخف ما فيها ، وبعده عن دلائل الشريعة ، منها :

«تأييد الحقيقة العلية بتشييد الطريقة الشاذلية» ، وهي رسالة في نصرة الطريقة الشاذلية ، التي انخدع بزخرف محالها الإمام السيوطي ~ في آخر حياته ، وفعله ليس حجة على الأمة [١] .

ورسالة «الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال» [٢] .

وهي محض أساطير يروج لها المتصوفة ، بناء على أحاديث خرافة ، كخبر عنقاء مغرب ، ليتعلق بهم العوام من دون الله .

ثم «تنوير الحلك في إمكان رؤية النبي والملك» أي يقظة ومناما ، وهذا من السخافات التي يروج لها المتصوفة اليوم ليشرعوا للناس أكاذيب يزعمون أن النبي ﷺ نسيها ، فخرج من قبره ليلقاهم ويكلفهم بتبليغها إلى الأمة حتى لا تضل ، وفي هذا تكذيب للقرآن وافتئات على النبي ﷺ لايروج إلا على العميان .

وممن نحى هذا المنحى الإمام الفقيه ابن عابدين ، أحد فرسان الحنفية المتأخرين ، حرر مسائل فأجاد ، وحل مشكلات ومعضلات وأفاد ، ومع ذلك زلت قدمه ، وفسد منهاجه ، كما حصل لأبي حامد الغزالي ~ .

---

(١) ومن عجيب أمر بعض المنتسبين للدعوة، أنهم يرشدون الأتباع إلى قراءة هذه الرسالة وأمثالها، ويرون ذلك سبيل رشد الحركة الإسلامية ؛ لأن فيها شهادة السيوطي لنصرة التربية الصوفية على يد ولي مرشد، مما يسمي تربية إحسانية. وأنى لها الإحسان!؟ فغاية الإحسان أن يصل العارف إلى مقام «كبار الصوفية كالغزالي الذين ينظرون في اللوح المحفوظ !وينبئون بغيب المستقبل» فاللهم لا شماتة! إن كان هذا هو التنوير الذي ستقاد به الحركة الإسلامية اليوم. انظر «تنوير المؤمنات : ١/ ١٩٠ والإحسان الرجال : ٥٠.

(٢) انظر : الحاوي للفتاوي ٢/ ١٩١، ٤١٧، ٤٣٧.

فألف رسائل زينها بطلاوة الكلام ، وأسجاع الكهان ، ينتصر فيها لمشايخ الطريقة النقشبندية، . منها رسالته «سل الحسام الهندي لنصرة مولانا خالد النقشبندي» الذي كان شيخ النقشبندية في زمانه .

وهي طريقة تلفعت بمروط الزهد والتربية ، وتدثرت بدثار الخدمة الاجتماعية ودعوة الدراويش ، وقد صار لها نفوذ سياسي واجتماعي في مصر والشام وتركيا ، وانخدع بها العوام . وصارت فتنة للناس ، أفسدت عليهم دينهم .

ومما ذكره ابن عابدين في هذه الرسالة قوله : «لما فسد الزمان وتعاكس ، وتقاعد عن الصلاح وتقاعس لم يشتغل غالب أهله بخاصة نفسه ، وبما ينفعه عند أفول شمسه ، بل صار يطيل لسانه في أشراف جنسه ، بمجرد وهمه وحدسه ، أو بمحض الزور والبهتان ، لداء الحسد والطغيان فألف بعضهم رسالة أراد ترويجها في سوق الجهالة ، بين أهل البطالة . حيث حكم فيها بالزندقة والضلالة ، على الإمام الشهير ، والعارف الكبير ، الذي ورث من العوارف كل طريف وتالد ، ولم ينكر فضله إلا الجاحد المعاند ، والمكابر الحاسد .

وهو الإمام الأوحد ، والعالم المفرد ، الهمام الماجد ، حضرة سيدي الشيخ خالد الذي بذل جهده في نفع العبيد ، وإرشادهم إلى الدأب على كلمة التوحيد ، حتى غدا قطب العارفين في سائر الآفاق ، وملاذ المريدين على الإطلاق ، واشتهرت به الطريقة النقشبندية الواضحة الجلية ، في عامة البلاد الإسلامية ، والممالك المحمية فلذا سأل الفقير بنصل فصال النضال ، من غمد كتائب كتب فحول الرجال ، لينقشع عن عين العيان غين البهتان والضلال ، ويسلم صحيح الأفعال من همز الضعف والاعتلال ، ويرتفع خفض المنصوب على التميز للحال» [1] .

وهذا منتهى التحريف والتزيين للباطل وركوب الهوى ، ونور الحق أجلى من أن

---

(١) سل الحسام الهندي في نصرة مولانا خالد النقشبندي : رسائل ابن عابدين : ٢/ ٢٨٤.

تحجبه شقشقة هذه الكلمات ، أو يصد عنه فُشارُ سجعٍ وهذيان ، بلا دليل أو برهان . إذ الطرق كلها مسدودة على من تنكب طريق النبوة .

ومما ولع به بعض المتأخرين مؤلفات منسوبة للشيخ عبد القادر الجيلاني ، انخدع بها كثير من أهل الغفلة ، اكتفاء بما ثقفوه من كلام ابن تيمية وبعض أهل العلم في توثيقه ، وما اشتهر بين الناس من صلاحه ، والله أعلم بصحة ذلك عنه ، لسوء ما ورد في هذه المؤلفات من طامات وبلايا ، ومنها قوله في بعض أشعاره :

ذراعي من فوق السماوات كلها ... ومن تحت بطن الحوت أمددت راحتي

وأعلم نبت الأرض كم هو نبتة ... وأعلم رمل الأرض عداً لرملة

وأعلم علم الله أحصي حروفه ... وأعلم موج البحر عداً لموجة

أنا كنت مع نوح أشاهد في الورى ... بحارا وطوفانا على كف قدرة [1]

وهذا الغثاء يدرس اليوم ويلقن للمريدين في زوايا الطرق الصوفية من لدن القاسطين من دعاة التزيين ، على أنه من كرامات الشيخ عبد القادر الجيلاني وتصرفه في الكون ، والله أعلم بصحة ذلك عنه ، لمخالفته الصريحة لعقيدة التوحيد ، وغالب حال الرجل لم يكن كذلك .

ومن أخطر مظاهر تحريف التراث ما دسه الإخباريون والمُجان ، وأهل الأهواء من المؤرخين في تواريخ العلماء ، والمجاهدين ، والخلفاء ، بغرض إسقاط الرموز ، وتهوين الانحلال عن العامة ، وكان ممن ولع بذلك صاحب العقد الفريد ، و أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني الذي هو أحفل كتب التاريخ بأخبار الخلاعة والمجون ، والنيل من أعراض رجال الأمة ، حتى يقرن بين العبقرية والنزق والطيش .

ومن ذلك اتهامه للمحدث القاضي «يحيى بن أكثم» بشناعات كثيرة ردهاالعلماء

---

(١) الشيخ عبد القادر الجيلاني، لأبي بكر القادري : ١٧٥ .

النقاد ؛ لأنها حكايات باطلة لم تصح عنه . من أنه كان مولعا بشرب الخمر ، ومصاحبة الغلمان ، وهو قاضي قضاة بغداد .

ومن أبشع هذه الأخبار المحرفة ما ساقه ابن عبد ربه حيث قال :«شرب المأمون ويحيى بن أكثم القاضي وعبد الله بن طاهر ، فتغامز المأمون وعبد الله على سكر يحيى ، فغمز يد الساقي فأسكره ، وكان بين أيديهم رزم من ورد وريحان ، فأمر المأمون فشق له لحد في الورد والريحان وصيروه فيه ، وعمل بيتي شعر ودعا قينة فجلست عند رأسه وحركت العود وغنت :

دعوته وهو حي لا حراك به ... مكفن في ثياب من ريحان

فقلت قم قال رجلي لا تطاوعني ... فقلت خذ قال كفي لا تؤاتيني

فانتبه يحيى لرنة العود وقال مجيبا لها :

يا سيدي وأمير الناس كلهم قد ... جار في حكمه من كان يسقيني

إني غفلت عن الساقي فصيرني ... كما ترى سليب العقل والدين

لا أستطيع نهوضا وقد وهى جسدي ... ولا أجيب المنادي حين يدعوني

فاختر لبغداد قاض إنني رجل ... الراح تقتلني والعود يحييني [1]

وذكر صاحب الأغاني أنه تواتر النقل عن يحيى بما يُرمى به من الشناعات فاستدعاه المأمون ليمتحنه وأمر أحد غلمانه أن يلاعبه في غيبة المأمون ، ففعل فقال له يحيى :«لولا أنتم لكنا مؤمنين» ، وكان المأمون متوار يستمع إليهما عن كثب فدخل ينشد أبياتا يقول فيها :

وكنا نرجي أن نرى العدل ظاهرا ... فأعقبنا بعد الرجاء قنوط

متى تصلح الدنيا ويصلح أهلها ... وقاضي قضاة المسلمين يلوط [2]

(١) «العقد الفريد» : ٦/ ٣٤٥.

(٢) انظر «الأغاني» : ٢٠/ ٢٢٤ ، ٢٢٥.

وقد ولع رواة النوادر والحكايات الأدبية بهذه الأخبار وروجوها في المجالس وسطروها على صفحات الكتب دون بحث عن أسانيدها أو نظر في مدى صحتها ، إذ لا يهمهم في الأخبار إلا النكتة والطرافة [١] .

وقال القاضي أبو عمر بن يوسف سمعت إسماعيل بن إسحاق يقول : «كان يحيى ابن أكثم أبرأ إلى الله تعالى من أن يكون فيه شيء مما رمي به من أمر الغلمان ، ولقد كنتُ أقف على سرائره فأجده شديد الخوف من الله ، ولكن كانت فيه دعابة» [٢] .

ودافع عنه الحافظ الناقد ابن حبان البستي فقال :«وكان من علماء الناس في زمانه حدثنا عنه شيوخنا ، لا يُشتغل بما يحكى عنه ، فإن أكثرها لا يصح عنه» [٣] .

وقال الذهبي :«قلت ولع الناس بيحيى لتولعه بالصور حبا أو مزاحا ، قال الصولي : سمعت إسماعيل القاضي يعظم شأن يحيى بن أكثم ، وذكر له يوم قيامه في وجه المأمون لما أباح متعة النساء فما زال به حتى رده إلى الحق ونص له الحديث في تحريمها ، فقيل له : فما كان يقال ؟ قال : معاذ الله أن تزول عدالة مثله بكذب باغ أو حاسد» [٤] .

ومن التحريف انتحال القصص المكذوبة في تاريخ الإسلام لتزيين الباطل ، كما ولع بذلك الشيعة الروافض ، فقد رووا في مقتل الحسين أساطير لا يصدقها عقل .

فمما نسجه قصاص الشيعة قولهم لما قتل الحسين «مكثت الدنيا سبعة أيام والشمس على الحيطان كالملاحف المعصفرة ، والكواكب يضرب بعضها بعضا ،

---

(١) راجع تفصيل الرد على هذه الأكاذيب وما شاكلها في كتاب «إعادة كتابة التاريخ الإسلامي» للمؤلف.

(٢) المصدر السابق : ١١/ ١٨١ .

(٣) الثقات لابن حبان : ٩/ ٢٦٦.

(٤) «سير أعلام النبلاء» : ١٢/ ٨، ٩.

وكسفت الشمس ذاك اليوم ، واحمرت آفاق السماء ستة أشهر ولم يقلب حجر بيت المقدس إلا وجد تحته دم عبيط ، ونحروا ناقة في عسكرهم ، فكانوا يرون في لحمها مثل النيران ، وطبخوها فصارت مثل العلقم ، وتكلم رجل في الحسين بكلمة ، فرماه الله بكوكبين من السماء فطمس بصره» [١] . وكل ذالك باطل لا أصل له كما ذكر ابن كثير .

ومن أشهر المؤلفات التي امتلأت بأكاذيب القصاص في التاريخ الإسلامي كتاب «فتوح الشام» المنسوب للواقدي زورا وبهتانا ، وأسلوبه القصصي الروائي لا يمت بصلة إلى أساليب مؤرخي الإسلام في القرن الثاني الهجري ، وهو مشحون بالحكايات الموضوعة التي لا يصدقها عقل ولا يقرها نقل .

وكذلك كتاب «الإمامة والسياسة» المنسوب زورا وكذبا لابن قتيبة الدينوري ت ٢٧٠ هـ ، وهو ليس من تأليفه بل هو من وضع الشيعة نسبوه إليه لشهرته بين علماء أهل السنة ، وذلك حتى تروج أخباره المكذوبة على العوام ، وفيه أخبار شنيعة في الحط على معاوية وبني أمية ، مما تنتحله الشيعة الروافض .

وابن قتيبة كان من أئمة السنة قد أوسع مثل هذه الأخبار نقدا في كتابه «تأويل مختلف الحديث» ، كما دسوا في الكتاب رواية ابن قتيبة عن رواة شهدوا فتح الأندلس عام ٩١هـ ، وذلك مستحيل ؛ لأن ابن قتيبة ولد بعد فتح الأندلس بنحو قرن من الزمان ، مع شواهد أخرى تدل على وضع الكتاب [٢] .

كما وضعت الشيعة كتاب «نهج البلاغة» ودست فيه أباطيل نسبتها إلى الإمام علي ﷺ ، مما لم يصح عنه ، ولم يشتهر في كتب التواريخ والآثار الثابتة ، وقد شرحه

---

(١) انظر البداية والنهاية : ٨ / ٢٠٣ ، تاريخ الخلفاء السيوطي : ٣٢٨ .

(٢) انظر مقدمة الميسر والقداح لابن قتيبة، محب الدين الخطيب : ٢٦ ، ٢٧ .

ابن أبي الحديد وزاد في الطين بلة [١] .

قال ابن تيمية : « وقد اتفق أهل العلم بالنقل والرواية والإسناد على أن الرافضة أكذب الطوائف والكذب فيهم قديم ولهذا كان أئمة الإسلام يعلمون امتيازهم بكثرة الكذب » [٢] .

فليحذر الناظرون في تراث الرجال من تحريف الغالين وانتحال المبطلين ، وليعتبروا بالتمييز بين البينة والتزيين ، فإنه لا يتبع الرجال بلا دليل إلا كل جاهل بهيم ، سفه نفسه ، لا يدرى ما الأصول ولا ما الأدلة ، وإن بهيمة تنقاد ، خير من مقلد يُقاد .

*****

(١) انظر لسان الميزان :٤/ ٢٨٣ .

(٢) منهاج السنة النبوية : ١ / ٣٧ .